الجرة المشروخة

شد الرحال لغاية سامية

الجرة المشروخة

شد الرحال لغاية سامية

Copyright©2014 Dar al-Nile

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع: ISBN 978-977-6183-22-3

رقم النشر

1005

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـــ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

القاهرة 2014

الجرة المشروخة

شد الرحال لغاية سامية

تأليف:
محمد فتح الله كُولَن

ترجمة:
عبد الله محمد عنتر
د. عبد الرازق أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

ماذا تعني الجَرَّة المشروخة؟ ١١

﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ١٥

بَطَلٌ لا مثيل له في أفق الثقة ١٥

سرُّ الأحدية يتجلى في نور التوحيد ١٦

رسالة الآية الحَسبية ١٨

وفي النجاحات "حَسْبِيَ اللهُ" أيضًا ٢٠

ساعات الإصغاء إلى أرواحنا: الأشهر الثلاثة ٢٣

التوجّه يُقابَل بالتوجّه ٢٤

البرامج المناسبة للأوقات المباركة ٢٥

أبلغ دعوة لجلب العناية الإلهية ٢٩

أهمُّ وسيلة لحصول التوفيق الإلهي ٢٩

عطاء غير متوقع ٣٢

المذاكرة مفتاح لأبواب الإخلاص الأتمّ ٣٣

ممثِّلو روح الفتوة ٣٧

ترقُّب النتيجة من الله ﷻ فحسب ٣٨

الفتوة والتفاني ٣٩

الفتوة والثبات ٣٩

الفتوة الحقيقية هي الفناء عن الذات ٤٠

التواضع سمة لازمة للفتوة ٤١

مهندسو الفكر وبُناة المستقبل ٤٥

وَرَثَةُ منهاج الأنبياء ٤٦

ساحةُ تأثيرٍ تمتد من الطالب إلى بيئته ٤٦

كسبُ قلوب تدعو لنا طوال العمر ٤٨

ما مِن معضلة إلا ويحلّها لسانُ الحال ٤٩

التعفُّف والاستغناء طوال العمر ٥١

الذل والخنوع من أجل المنصب ٥١
أَصعبُ الاستغناء ٥٢
تربويّون مجهولون تواروا وراء خشبة المسرح ٥٣
الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله ٥٤
لزوم الاستقامة وترك الركون إلى الظَّلَمة ٥٧
سرُّ توجيه الأمر للمفرد المخاطب ثم النهي للجمع ٥٧
حذار حذار من الظلم بأنواعه كافة ٥٨
إنّ الورد مَنبتُه الترابُ ٦٣
كان من الممكن أن يسقط نَيزَكٌ ٦٣
التخلص من الأنانية ٦٥
عندما يغدو التواضع فطرة ٦٦
بكاء القلوب الحزينة ٦٩
أن يدرك الإنسان أنه في قاع البئر ٦٩
حالة الاستضعاف تستنزل الرحمات ٧١
بذور الهموم التي تنتشر في القلوب ٧٣
الاتزان والاعتدال ٧٧
الصراط المستقيم ٧٧
ضحايا النجاح ٧٩
دعاوى المهديّة في عصر الأنانية ٨٠
المبالغة في المدح وأضرارُها ٨٣
وهكذا جعلتَ الممدوح هدفًا للحُسّاد ٨٣
الحمد لله وحده ٨٤
ظَلومٌ أشبَهَ المظلومَ ٨٦
أعداء العش السعيد ٨٧
العدو الخفي اللدود ٨٧
حجمُ الإفساد ٨٨
آخر الدواء: الطلاق ٩١
المحاسبة والاستغفار ٩٥
البحث عن المجرم الحقيقيّ ٩٦

لا بدّ من تجنب أي نوع من الشكوى ٩٧
المحاسبة تفضي إلى الاستغفار ٩٩
الاستغفار: ماء الحياة للبعث من جديد ١٠٠
مفاهيم مفتاحية في تفسير الوجود ١٠٣
المعنى الاسميّ والمعنى الحَرفيّ ١٠٣
النية تغير ماهية الأعمال ١٠٤
النظر أو أن تَرى حين تَنظر ١٠٥
إلامَ يُنظَر وكيف؟ ١٠٦
النظر الكليّ ١٠٧
أفق العرفان ١٠٩
عبادات تُتوَّج بالوعي ١١٠
الاستقامة وكرامة الديمومة ١١٢
التواضع كلمة السر لشتى أنواع الخير ١١٣
مخلَّفون رضُوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها ١١٥
ابن آدم: مَن لديه قابلية لأن يكون كل شيء ١١٦
تعساء يفرحون بخسارتهم ١١٦
نشرُ المرض ١١٨
لو اعتَبر الناسُ بحوادث التاريخ لَمَا تكررت ١١٨
القرآن والاكتشافات العلمية ١٢١
منزلة الاكتشافات العلمية في المقاصد العامة للقرآن الكريم ١٢٤
عُقدة الدُّونية والتأويلات المتكلفة ١٢٤
قلوب مؤمنة عاشقة للاكتشافات ١٢٦
من المعرفة إلى السلوك ١٢٩
أداء شكر العلم ١٣٠
العقل العملي ١٣١
آفاق تتفتح بالقراءة الجماعية ١٣٣
حقُّ الجوار ١٣٥
مِن طُرُق الإيمان الكامل ١٣٦
الجار الصالح بيده مفتاحُ السعادة الأبدية ١٣٧
بيئة الذنوب مناخ للآفات ١٣٨

جسور صداقة تُقام بسلطانية عاشوراء ١٣٩
مرضٌ اجتماعي يشلّ العقل السليم: التعصب ١٤٣
عاملٌ يحول دون إيمان الإنسان ١٤٤
مرضٌ مرعب يسري في كل مكان ١٤٥
الثبات على الحق أو الصلابة في الدين ١٤٦
الفسق وسبل الوقاية منه ١٤٩
صفةُ الفسق عند المسلم ١٥٠
زقاق مسدود سَلكه الفاسقُ ١٥٢
حبُّ المنصب ومداخل الفسق ١٥٣
تفسير السنة وفق الأهواء والرغبات ١٥٧
لا بد أن ترتجف القلوب عند تقريرها لأي حكم ١٥٩
مَن اتّخذ إلهَه هواه ١٦٠
دَور المرشد في حياة القلب والروح ١٦٣
فراسة المرشد وقابلية المريد ١٦٤
حتى وإن كان المرشد كاملا ١٦٥
رمحٌ طعَّان في روح الوحدة ١٦٧
السُّبُل الموصِلة إلى الله وعصرُنا ١٦٩
خصائص عصر الأنانية ١٧٠
الأرواح التي وصلت إلى الحق بواسطة الهجرة ١٧٢
الإمكانيات الدنيوية والمعيار في التخطيط للمستقبل ١٧٥
الثروات التي تُنفَق في سبيل الحق ١٧٦
وَرَثة روح الاستغناء ١٧٧
سبيل تخليد الإمكانيات الزائلة ١٧٩
دَوْر النية ١٨٠
عفّة الفكر ١٨٣
الأفكار السليمة منجم للتصرفات السليمة ١٨٤
مَن حسُنتْ فِكرتُه استمتع بحياته ١٨٤
الأهواء والرغبات بلباس الفكر ١٨٦
بوصلة النيّة وشعور المحاسبة ١٨٩

أعمال أهدَرتها المباهاة ١٩٠
مأوى المحاسبة ١٩١
الأماكن الهادئة وبرامج القراءة..... ١٩٥
مناخٌ منفتحٌ على الرُّوحانيّات ١٩٦
مؤلَّفاتٌ مألوفة غلبت عليها الإلفة..... ١٩٧
الحماسة والوَلاء ٢٠١
أعلى المراتب ٢٠٢
عباراتٌ فيها مبالغات ضارّة تكاد تكون خيانة ٢٠٣
التوقيع بِـ"لا شيء" ٢٠٤
روابط الأخوة النورانية ٢٠٧
روابط الأُخوَّة بعدد الأسماء الإلهية..... ٢٠٨
إرادة التخلي عن الثوابت الشخصية ٢٠٩
إصلاح النفس وإصلاح المجتمع..... ٢١٣
الطفل الذي لا ينفطم..... ٢١٤
أعظم الجهاد ٢١٥
نِعَمٌ تصبح نِقَمًا..... ٢١٧
احترام المقدسات..... ٢٢١
من أراد أن يُحترَم فعليه أن يَحترِم ٢٢٢
إن كان بيتكم من زجاج..... ٢٢٤
مهندس القلوب: فضيلة الشيخ أَلْوَارْلِي أَفَه..... ٢٢٧
دوحة نيّرة مباركة..... ٢٢٧
نغمات حرَّى تُلهب الأرواح ٢٢٩
لا يَعرف الفضل من الناس إلا ذووه..... ٢٣٠
كلماتٌ يتردّد صداها في أذني..... ٢٣١
لَيْتَ نافعة وأخرى بلا فائدة..... ٢٣٣
"لَيْتَ" الكبرى ٢٣٤
أوجُه الضعف التي تخسف بالإنسان الأرضَ ٢٣٦
تروسٌ واقية من "ليت" القاضية..... ٢٣٧
"ليت" من صُوَر الاستغفار ٢٣٨

الاستغفار ٢٤١
الطب الوقائي ٢٤٢
إكسير يستأصل شأفة النزعة إلى الشرّ ٢٤٣
أوقات مهمة للاستغفار ٢٤٤
طلب المغفرة بأحسن الحديث ٢٤٧
تَضرَّعْ حتى تتطهّر ٢٤٨
أنواع الابتلاءات ٢٥١
كلما عظم الهدف اشتدّ الابتلاء ٢٥٢
عثرات الطريق ٢٥٣
الطمع في الثروة ٢٥٤
الولع بالشهوات ٢٥٥
الرغبة في الشهرة ٢٥٦
النفس والشيطان وأصحاب الأعراف ٢٥٧
انتهازيٌّ يترقب لحظة الغفلة ٢٥٨
من اكتفى بما عنده فهو مخدوع ٢٥٩
ملازمة المجالس الإيمانية ٢٦٠
أصول النقد البنَّاء ٢٦٣
أقفالٌ مفاتيحها الإنصاف واللِّين ٢٦٤
الحديث إلى العامة وعدم هتك الستر ٢٦٥
تربيةُ مخاطَبٍ يتحمل النقد ٢٦٧
الرزق الحلال والعمل الصالح ٢٧١
أعظم وسائل الترقي ٢٧٢
عاقبة طاعم الحرام الوخيمة ٢٧٣
انتشار الحرام لا يسيغه قطعًا ٢٧٥
تأملات في أيام العيد ٢٧٧
رمضان والعيد ٢٧٨
العيد ساحة ذكر وشكر ٢٧٩
عادات عيدية لا يحظرها الإسلام ٢٧٩
دفء المسامحة يحتضن الجميع ٢٨٠
مصادر ٢٨٣

ماذا تعني الجَرَّة المشروخة؟

إن الأستاذ المربي "فتح الله كولن" شخصية جامعة، وأحاديثه تفيض بمعان عميقة تخاطب طبقات مختلفة من الناس، ولا جرم أن مَن يستمع إلى مثله من العلماء يضرب بحظّ وافر من العلم على حسب مستواه، وأكثر الناس فهمًا هم أغزر الناس علمًا، فمن بلغ مرتبةً سامية في العلم ألفى كثيرًا من الحقائق الخفية بين السطور، ورأى في كلمة واحدة دروسًا عظيمةً لا يتسع لها كتاب؛ فتراه مثلًا وهو يشرح حديث رسول الله ﷺ: **"إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ..."**[1] يصف ما في الحديث بـ"الخشية ذات البُعد الالتجائي"، فيسحر من يسمعه بهذا المعنى النفيس، فهو ذو دلالات عميقة عظيمة تملأ الصفحات.

وها نحن نسمّي سلسلتنا هذه بـ"الجرة المشروخة" اعترافًا بعجزنا عن فهمه كما ينبغي، وقصورنا عن تشرّب ما يطرحه علينا من حقائق، وتقصيرنا في تسجيلها والاستفادة منها وإفادة الآخرين بها؛ ومرادنا بعنوان السلسلة المذكور الإشارة إلى أن ما نقدمه ليس إلا مرآة أصغر بكثير من أن تعكس عِلمَ أستاذنا الجليل وحياتَه الروحية والقلبية وزُهدَه وتقواه؛ وقد استوحينا هذه الفكرة من قصة ذكرها مولانا جلال الدين الرومي:

(١) سنن الترمذي، الزهد، ٩.

في قديم الزمان نصب سلطان فسطاطه على نهر الفرات، فأَحَبَّه الناس، لأنه فتح قلوب العباد لا البلاد فحسب؛ أجل، أحبّوه، وتمنّوا أن لو تعارفوا، ليحظوا بحبه ورضاه، فهو أهل بر وخير، لذلك كانوا يأتونه في بعض الأيام ويقدّمون له الهدايا؛ وذات يوم قدّم الأغنياء والميسورون هدايا ثمينة للسلطان، فراح أحدُ الفقراء يبحث عن هدية تليق بالسلطان، فلما لم يجدْ شيئًا خطرت على باله جرة مشروخة تقبع في ناحية من بيته، فأخذها وملأها بماء عذب من سبيل القرية، وقصد بها السلطان، فقابله أحدهم وسأله عن صنيعه ووجهته، فلما عرَّفه غايتَه قال له مستهزئًا: "أما تعلم أن الأنهار تجري من تحت قصر السلطان، والماء الذي في جرّتك من العين السلطانية أيضًا"؛ فامتقع لون الفقير وغصّ وانعقد لسانه، ثم قال: "لا ضير، فالسلطنة تليق بالسلطان، والفقر يليق بالفقير؛ فإن لم يكن لديّ هدية قيّمة أقدّمها للسلطان فحسبي أنني أحمل قلبًا مفعمًا بحبّه همّه أن يقدّم ماء عينِه إليه".

وقد عزمنا على تقديم هدية للسلطان بجرتنا المشروخة التي بين أيدينا؛ عسى أن تكون قراءتكم لهذه اللطائف التي أفاضها الله علينا هي هديتنا؛ ونحن نجزم بأن سقي كثيرين من هذا المنهل العذب المورود فيه شكر لنعمة القرب من هذه العين المباركة.

بادئ الأمر كنّا ندوّن شيئًا من الملاحظات نستعين بها في تذكر ما نسيناه من أحاديثه، لكن كان يفوتنا الكثير، فشرعنا في تسجيلها ثم تفريغها بدقة على الحاسوب لنقل ما يذكره تامًّا وافيًا، ثم نقوم بعملية التبييض والتنقيح والتدقيق، ثم نتذاكر نتاج ذلك فيما بيننا.

وها نحن شرعنا نقدّم لكم ماء الحياة -الذي ملأنا به جرّتنا- في

هـذه السلسـلة "الجرة المشـروخة"، وأصلها جزء من موقعنـا الإلكتروني "*www.herkul.org*"؛ وإنما فعلنا ذلك خشية أن يكون في احتكارنا لينابيع أفق القلب والروح نكران لهذا الجميل.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

سؤال: ما من نبي من الأنبياء إلا وحلّت به مصائب، فتبرّأ من حوله وقوّته إلى حَول الله وقوته، وأيقن أن النصر والفرجَ من عند الله؛ فما مكانة "الحَسْبَلَة"[٢] في حياة رجال الخدمة وهم يواجهون كثيرًا من المشكلات ويُمْنَوْن أحيانًا بالإخفاق؟

الجواب: لا يتغلب الإنسانُ -وهو العاجز الفقير المحتاج- على مشكلاته إلا باللجوء إلى الله تعالى القدير المطلق الغنيّ المطلق؛ لذا فمن الأهمية بمكان أن يلجأ العبد إلى الله تعالى إن نزلَتْ به مصيبة أو بلاء ويقول: "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ".

إنّ هذا الذكرَ دليلٌ على إيمان الذّاكر بأن الله تعالى هو الوكيل الذي إليه مرَدُّ أمورنا كلّها، فإن توجهنا إليه فلن يردَّنا خائبين، ولن يكلنا أبدًا إلى أنفسنا، ولن يدعنا وحدنا.

بَطَلٌ لا مثيل له في أفق الثقة

قال الله لرسوله ﷺ:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١٢٩/٩).

(٢) الحَسْبَلَة: هي قول الإنسان: "حَسْبِيَ الله" أو "حَسْبُنَا الله".

يقول بديع الزمان سعيد النورسي في تفسير هذه الآية: "معناها: إذا تولى أهل الضلالة عن سماع القرآن، وأعرضوا عن شريعتك وسنتك، فلا تحزن ولا تغتمّ، وقل: "حَسْبِيَ اللهُ"، فهو وحده كافٍ لي، وأنا أتوكل عليه؛ إذ هو الكفيل بأن يقيض من يتبعني بدلًا منكم، فعرشُه العظيم يحيط بكل شيء، فلا العاصون أفلتوا منه، ولا المستعينون به حُرِموا مدده وعونه"(٣).

وورَدَ في هذا دعاء أوصانا رسول الله ﷺ أن ندعو به صباح مساء:

"يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ"(٤).

وإن جاز لنا أن نشرح هذا بتفصيل أكثر فلنقل: "اللهم إني أسألك وأنا أسير في سبيلك ألا تدع شيئًا من الفسق والفجور -يضرّ بلباب الأمر ويخلط الحابل بالنابل- يتسلل إلى عملي؛ اللهم لا تكلني إلى نفسي ولا إلى الشيطان طرفة عين، فإنك إن وكلتَني لم أدر في أيّ غيّ سأتردّى؛ ولو تحكمت فيّ النفسُ الأمّارة -وهي ليست محلّ ثقة- فأنا لا محالة مغلوب، أما إن كنتَ وكيلي فلسوف أهتدي إلى الطريق المستقيم وأتمكن من السير عليه؛ فإنّ النفس والشيطان لا يد لهما تمتد إلى عملٍ تُحيطه سبحانك بحولك وقوتك.

سرُّ الأحدية يتجلى في نور التوحيد

لما أعرَضَ قومُ سيدنا إبراهيم عليه السلام عنه لجَأَ هو ومن معه إلى الله تعالى متوكلين عليه، فجابهوا كلّ تهديد، وثبتوا أمام الكفار، وبدؤوهم بقولهم:

﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ (سُورَةُ الْمُمْتَحَنَة: ٤/٦٠).

(٣) سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية عشرة، النكتة الرابعة، ص ٧٥.

(٤) النسائي: **السنن الكبرى**، ٢١٢/٩؛ الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٤٣/٤؛ الحاكم: **المستدرك**، ٧٣٠/١.

وهذا إعلانٌ منهم أنه لا قيمة لِما يُعبد من دون الله، بل لا تستحق تلك الآلهة شيئًا مما يُنسب إليها، وليست جديرة بأي تكريم أو تعظيم؛ ثم قالوا بلسان من لا حيلة له -معبرين عن تجلي سرّ الأحدية في نور التوحيد-:

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ: ٦٠/٤-٥).

وأستطرد لأشير إلى المسألة التالية: إذا أردنا أن ندرك المنزلة الرفيعة لسيدنا رسول الله ﷺ مقارنةً بالأنبياء الآخرين فلنعلمْ أنّ كلّ تبجيل وتقدير من الله تعالى له كان مَنْ سبقه من الأنبياء يطلبه من الله تعالى طلبًا؛ فمثلًا: سأل سيدنا موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره، فقال: **﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾** (سُورَةُ طَهَ: ٢٠/٢٥)؛ أمّا سيدنا رسول الله ﷺ فقد أُوتي هذا الفضل في مقام الامتنان؛ قال تعالى: **﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾** (سُورَةُ الشَّرْحِ: ٩٤/١).

وتذكر الآيات السابقة -في مقام تكريم الله لرسوله ﷺ أن الله تعالى هو حسبه ووكيله، أما سيدنا إبراهيم عليه السلام ومن معه فقد سألوا الله تعالى أن ينعم عليهم بهذا الفضل.

هذا وفي آية أخرى أن سادتنا الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم كانوا يلتجئون إلى الله تعالى، ويعتمدون عليه عند لقاء العدو:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٧٣).

أجل، قال سادتنا الصحابة "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" في موضعٍ يستدعي خوف الإنسان ووجلَه وقلقه وحيرته في الظروف العادية، وكانوا يترقبون لقاء العدو وهم في حالة تحفزٍ قصوى.

رسالة الآية الحَسبية[٥]

يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﵀: "حينما جرّدني أربابُ الدنيا من كلّ شيء، وقعت في خمسة ألوان من الغربة، فلما أوشكت جذوة الأمل تنطفئ وطأطأتُ رأسي يائسًا إذا بالآية الكريمة ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٧٣/٣) تغيثني قائلة: اقرأني جيدًا بتدبرٍ وإمعان، فشرعت أقرؤُها خمسمائة مرة كل يوم، وكانتْ كلما تلوتُها تكشف عن بعض أنوارها وفيوضاتها الغزيرة...

وكلما تلقيتُ ذلك الدرسَ من تلك الآية الكريمة أحسستُ بقوة معنوية عظيمة، وشعرتُ أنني أملك قوة أتحدّى بها العالم بأسره لا أعدائي الماثلين أمام عينيّ فحسب"[٦].

حقًّا إن من انشرح صدره هكذا لا يضرّه همٌّ ولا كدر، ولا يصده عن غايته سجنٌ أو تضييق؛ فسجنه "مدرسة يوسفية"[٧] يؤدِّي فيها رسالته، بل لو تأتى له الخروج من السجن فلربما آثر البقاء حتى يُتمّ ما شرع فيه من أعمال مباركة لتصبح نافعة لمن في السجن.

هذا هو الانشراح الحقيقي والفسحة والسَّعَة الحقيقية؛ أما مَن ضاقت به حياته الروحية والقلبية فلا شك أن الضنك والاضطراب بانتظاره، وأن الآلام تلو الآلام ستدهمه حتى إنه لا يجد مخرجًا من هذا الضيق وإن حاز الدنيا بأسرها.

---

(٥) **رسالة الآية الحسبية**: من مؤلفات الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورْسي، وهي "الشعاع الرابع" من كتاب "الشعاعات"؛ هذه الرسالة عبارة عن نكتة مهمة للآية الكريمة ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ (سورة آل عمران: ١٧٣/٣).

(٦) سعيد النورسي: **الشعاعات**، الشعاع الرابع، ص ٦٧.

(٧) **المدرسة اليوسفية**: اسم سمى به الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي السجونَ التي سُجن فيها هو وطلابه "طلاب النور" مستلهمًا مما قام به سيدنا يوسف ﵇ في السجن من إرشاد؛ فإن الأستاذ وطلابه اقتفوا آثار النبي الجليل يوسف ﵇ في هذا، وهدى الله على أيديهم كثيرًا من أهل تلك السجون.

أجل، إن مَن لم يستطع أن يرقى بعالمه الداخلي يتعذر عليه أن ينجو من معاناته وضيق صدره وإن ملك مصانع تنتج له يوميًّا آلاف اليخوت وأفخر السيارات، بل ولو أحرز كلَّ الإمكانيات المادية؛ أما الراحة والسعادة الحقيقية فهي ذلك الانشراح الذي يقذفه الله في قلب العبد، فإذا نزلت بهذا العبد مصائبُ كالجبال صهرَها في قلبه وأحالها إلى ألعاب نارية تبعث السعادة فيمن حوله.

ولعل تلك التجليات التي أُلقيت في قلب الأستاذ النورسي ﵀ تفيض على قلوبنا حين تطبع مشكلاتنا آثارها في عالم خيالنا لتزلزل تصوراتنا وأفكارنا؛ نعم، إن مَن دأب على عقد صلة وثيقة مع الله وهرول نحو الإيمان الكامل والإخلاص الأتمّ خاصةً قد يحظى بأكثر من هذه التجليات، لكن معظمنا لا ينصت لحديث قلبه ولا يكترث لخواطر كهذه قد ترد على عقولنا بل نعدّها أمورًا مألوفة ترد على خاطر كل إنسان، وبذلك نغفل هذا الضرب من التجليات؛ أما العظماء فلم يكونوا يعدونها أمورًا عبثية مألوفة، بل يرونها إنذارات وتحذيرات، ويقولون: "لا جرم أن لهذه الأمور معنًى وحكمة"؛ والأستاذ النورسي عَدَّ هذا المعنى النفيس الذي أُلهمَه قلبُه ذا قيمة كبيرة، فعُني به، وبدأ يردد "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" خمسمائة مرة في اليوم.

إن في تَكرار الأستاذ لهذه الكلمة المباركة خمسمائة مرة يوميًّا دلالة على أنّ للتكرار حكمة تساعد على فهم المسألة بعمق؛ فإذا أردنا أن نحصن أنفسنا من شر الأعداء فلنلجأ إلى حول الله وقوته، ولنشحذ همتنا ونردد كل يوم خمسمائة مرة بل ألف مرة:

"حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ"

ويمكن أن نقوم بهذا كما نفعل في قراءة بعض الأذكار إذ نقسمها فيما بيننا: فلان كذا مرّة وعلّان كذا مرة؛ لنحظى بثواب الشركة في الأعمال الأخروية، فلو اجتمع عشرة منّا وقرأ كلّ منهم هذه الكلمة المباركة مائة مرة نرجو أن يُكتب لكل واحد ثواب ألف.

وفي النجاحات "حَسْبِيَ اللَّهُ" أيضًا

على القلب المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى وقت الظفر والنجاح كما يلوذ به وقت المصائب والكوارث، وهذا يعني أن مدى الكمية والكيفية في مسألة الحسبلة يختلف من شخص إلى آخر؛ فمنهم من يقول "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" في المصائب أو المشكلات المعضلة فقط، ويتوجه إلى الله تعالى بهذا الذكر عندما يقع في ورطة وتنقطع به السبل، فتُحَلّ مشكلاته بإذن الله وعنايته ومزيد فضله وإحسانه؛ ومنهم من يقوله على الدوام، ويلجأ إلى حول الله وقوته صباح مساء، لا سيما من انكشفت له الآفاق، وسما فبلغ أفق السر والروح، فإنّه يغدو وكأنه يشعر بأثر قدرة الحق تعالى حتى في أدنى أموره الخاصّة.

أجل، إنهم يعيشون في معارج "حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" وإنْ في أيسر الأمور التي يُعتقد أن تحلّها الإرادةُ الإنسانية في الظاهر، مثل نظم الخيط في الإبرة أو وضع اللقمة في الفم، بل إنهم يفكرون أحيانًا كالجبرية المتوسطة، ويقولون بـ"الاستطاعة مع الفعل"، وليس لهم من أفعالهم سوى القصد والمَيْل بل سوى التصرف في المَيل، ويكررون على الدوام: "لا خالق إلا الله"؛ وهذا في الحقيقة تعبير عن التوحيد الخالص.

والحقّ أنّ اتباعنا للسنة النبوية الشريفة بأن نكرّر سبع مرات في أدعية الصباح: "**حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**"

يـدلّ أننـا أعلنّا أنه ﷻ هو وكيل كل شـيء، الكفيـلُ بحلّ ما يعرض لنا من مشكلات نهارًا، فإذا ما أقبل الليل وكررنا هذا الدعاء مرة أخرى نكون قد استودعنا ذا الرحمة الواسعة ليلَنا.

اللهـم مُـنّ علينا بأن ننسـج كلّ لحظـة من حياتنا أوشـحةً نورانية من السُّنة السَّنيَّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

ساعات الإصغاء إلى أرواحنا: الأشهر الثلاثة

سـؤال: هلّا تُسْدُون لنا نصيحةً نتمكّن بها من الاستشعار بنشوة الأشهر الثلاثة المباركة، والاستفادة الحقّة من أجوائها الروحية والمعنوية؟

الجواب: ننوّه بدايةً بأنّ الأشـهر الثلاثة هي أعظمُ الأوقات المباركة؛ ففيهـا قـد يصبح المرءُ أقـربَ إلى الله تعالى، ويغدو أهـلًا لأن يتغمّده الله بواسـع رحمته، فينسلخ من ذنوبه ويسيح في أفق القلب والروح.

والحـقّ أنّ المـرء فـي حاجة دائمة كلّ عـام إلى فترة نَقاهة سـماوية، يزكّي فيها نفسـه، ويربّي روحه، ويصفّي قلبه؛ وهذه الأشـهر المباركة من أكبر الوسائل لتحقيق هذا.

ولا جرم أنّ التخلص من الأعباء الجسمية والنفسية في هذه الأوقات المباركـة والارتقـاءَ إلـى أفقٍ معين والوصـول إلى مسـتوى معين يتطلّب بدايـةً إجراءَ عملية خطيـرة من التفكّر والتذكّر، ولا بدّ عند إجرائها من أن يَفتح المرءُ قلبَه وروحَه دائمًا على المعنويات، أي إنّ عليه أن يحاول فهم المسائل الإيمانية والقرآنية بملكاته الذهنية والعقلية بالمدارسة والمذاكرة، وأنْ يعبّ شيئًا فشيئًا من سيل الأنوار والمعنويات الهادرة عليه.

التوجّه يُقابَل بالتوجّه

لا يـزال كثيـر مـن الناس يتفوهون بطيّـب الـكلام وأروع البيان حول هذه الأشهر المباركة ولياليها وأيامها وفقًا لمستواهم وسَعَة أفقهم، لافتين الأنظار إلى جمالياتها التي تغذّي حياة المؤمن.

والوقـوف علـى هـذه المؤلفات -التـي تُقـدَّر قيمتُها بالكنـوز- كلمةً كلمةً، وتحليلُها وفهمُها واسـتيعابُها بالمدارسـة والمناقشـة له أهميةٌ بالغة في فهم الواردات واستشـعار الفيوضات التي تنهال على الإنسـان بفضل هذه الأشهر المباركة.

أجـل، لا بـدّ مـن تجنّب القراءة السـطحية الشـكلية ومن سـبر أغوار المسـألة حتى تتحقق الاستفادةُ الكاملة مما كُتِبَ عن الأشهر الثلاثة، وإلّا تعذّر على المرء أن يستفيد تمام الاستفادة ممّا قرأه أو سمعه.

ولا يسـتطيـع المرء أن يتلذذ ويستشـعر حقًّا بجماليات هذه الأوقات المباركـة وأذواقهـا ولذائذهـا التي يجد طعمها في قلبـه إلا بعد أن يعرف ويضـع فـي حسـبانه أنها أَشْـهُر جمـع الغنائم، وبعـد أن يسـتغلّها بليلها ونهارها ولا يضيّـع لحظةً منها؛ فمثلًا إنْ لم يعزم المرء ويصمّم على قيام الليـل ولـم يتوجه إلـى الله ولم ينهل من فيوضات الليالـي فإنه يتعذر عليه أن يشعر بعمق جماليات هذه الأشهر المباركة أو يتلذّذ أو يستمتـع بها.

أجل، إن لم يبدأ الإنسـانُ هذه الأشـهرَ بشـدٍّ معنوي قوي، ولم يَنذر نفسـه للعبادة استشـعارًا لحقّ العبودية، ولم يفرّغ نفسـه تمامًا لهذا الأمر، فلـن يمكنـه استشـعار مـا في هـذه الأوقات المباركـة وإن انهمـرت عليه ألطافها بغزارة، بل قد يقيّم ما قيل عنها حسـب إدراكه واسـتعداده، ويعده تكلّفًا وخيالًا.

أجل، إن استشعار الفيوضات التي تغمرنا من رأسنا إلى أخمص قدمينا في هذه الأشهر المباركة مرهونٌ بدايةً بالإقرار بها والإقبال عليها؛ لأنّ التوجّه يُقابَل بالتوجّه، فإن لم تُقبِلوا على هذه الأشهر بروحها ومغزاها فلن تفتح لكم أبوابها، بل إنّ الكلمات الرنّانة البراقة التي قيلت عنها تنطفئ وتذبل في أنظاركم وكأنّها جسدٌ لا روح فيه ولا حياة؛ بل إنّ عبارات ابن رجب الحنبلي التي تعزف على الوتر الحساس وأقوال الإمام الغزّالي التي تبعث العشق والشوق في القلوب لا تجد صداها في قلوبكم؛ لأنّ الكلمة لا يكون لها وقعٌ أو تأثير إلا إذا تهيّأت لها عقول المخاطبين وإدراكاتهم وصدورهم تهيُّؤًا يناسب قيمتها.

ومن ثمّ ينبغي للمرء أن يتبنى هذه المسألة وأن يصبح رجبيًّا وشعبانيًّا ورمضانيًّا؛ أجل، عليه أنْ يتوحّد مع هذه الأوقات السعيدة حتى يتسنّى له استشعار ما تبثّه في روحه وإدراكه؛ وإلا فإنْ ظللتم كما أنتم ولم تنأوا بأنفسكم عن السطحية ولم تحقّقوا في ماهية هذه الشهور، فستدخل هذه الكلمات الجميلة التي تدور حولها من أُذُن وتخرج من أخرى.

وعلى ذلك فمن يُقبل على سفاسف الأمور، ولا يسعى إلى تجديد نفسه في موسم الغنائم هذا، ولا تتّسم أفعاله وسلوكياته بالجدّية والاتّزان فمن الصعب جدًّا أن يستفيد من مثل هذه الأوقات المباركة.

البرامج المناسبة للأوقات المباركة

وللمسألة وجه آخر ذو صلة بروح المجتمع ورضاه بالأمر؛ والواقع أن الشعورَ والإحساسَ بسعة هذه الأشهر وعمقها الحقيقي شأنُ من يحلِّقون في أفق القلب والروح، والحق أن لمجتمعنا معرفة عامةً بقدر هذه الأشهر الثلاثة وبركتها، لذا يرتاد المساجد، ويتوجه إلى الله تعالى؛ ويمكن الاستفادة من هذا الواقع، فهو طريق مهمّ إلى قلوب الناس لنبلغهم

رسائل معينة، وذلك بتنظيم برامج وأنشطة مختلفة في هذه الأوقات المباركة؛ ولنا في ليالي "المعراج ونصف شعبان والقدْر" أن ننظم برامج خاصّة تخاطب أهل عصرنا بشرط الالتزام بروح الدين؛ وبهذا نكون قد استثمرنا تلك الليالي المباركة في تقريب الناس إلى الله، وإشعار القلوب بحقيقة الدين؛ وكما يمكن إشعار قلوب الوافدين إلى المساجد ببعض الحقائق يمكن أيضًا استغلال لقاءات المدارسة والمذاكرة ومجالس العلم؛ ويحسن كذلك استغلال اهتمامات وطموحات من يعرفون عظيم قدر هذه الأشهر الثلاثة.

وأريد أن ألفت الانتباه هنا إلى بعض الأمور التي أراها مهمةً في هذه البرامج: إن غايتنا من استغلال هذه المناسبات المختلفة وتنظيم جميع هذه الفعاليات هو تقريبُ الناس خطوة خطوة إلى الله تعالى بعوالمهم الفكرية والحسّية، فإذا لم تبلغ بنا هذه البرامج والأنشطة إلى ذاتيتنا، ولم ترشدنا إلى سبيل معرفة أنفسنا، فإن هذا يعني أننا نشتغل بما لا طائل من ورائه؛ أجل، إن كنا نعجز عن التعبير عن الحقائق الإلهية، ولا نستطيع أن نقرّب الناس من سيد السادات عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات أكثر، أو إن كنا ننظّم برامج تخاطب أهواء الناس ورغباتهم، ولا يخرجون إلا بقول: "لقد أمضينا لحظات لطيفة"؛ فهذا يعني أننا أسرفنا في الوقت، أو أننا اقترفنا إثمًا؛ وذلك أن كل سبيل لا تؤدي إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ هي سبيل خدّاعة؛ نعم، إن تسلية الناس وتنظيم الحفلات والمهرجانات ليس شأن ولا وظيفة القلوب المؤمنة التي ترغب أن تكون ترجمانًا للحق والحقيقة.

وللناس في يومنا هذا أنماط حياة فيها لهو وتسلية، فربما يخدعكم ما يُظهرونه من اهتمام في هذا الموضوع، حتى إنكم حين تنظرون إلى

سـرورهم قـد تظنون أنكم قمتم بعمل نافـع، بينمـا الأهمّ من اهتماهم هو صحـة هذا العمل في ميزان الشـرع؛ فعليكم أن تهرْولـوا دائمًا وراء الحق حتى وإن لم يكن هناك اهتمام بالفعالية القائمة أو كانت المشـاركة قليلةً، أي إن تقديـر النـاس وتصفيقهم ليـس هو المهم، بل المهـم هو أن يكون البرنامج الذي تنظّمونه يضيف شيئًا لحياتنا القلبية والروحية.

فـي هـذه الفتـرة الزمنية المباركة التـي تغرق فيها السـماوات في لجة الأنـوار وتـزدان الأرض بالموائـد السـماوية علينـا أن نوجه النـاس دائمًا إلـى التعمق فـي حياتهم القلبية والروحية، وأن نربط كل عمل سـنضطلـع بـه بالأهـداف السـامية والغايـات العاليـة، حتـى إنـه لا بد أن نغـذّي في كل مـرة قلـوب النـاس معنًـى وروحًا جديديـن، ونجعلهم يُبحِـرون بنهَم إلى المعنويات؛ ولتحقيق هذا علينا أن نستهدف من خلال هذه الفعاليات كلهـا ترغيـب الناس في الآخـرة، ونحرّكَ فـي القلوب الشـوقَ إلى الفوز بالسعادة الأبدية والخوفَ من الخسارة، وأن نسعى في النهاية إلى أن يعي الناس روح الدين.

والحاصل أنه لا بد من جعل الجوامـع والجماعات والجُمَـع والأشهر الثلاثـة المباركـة: رجـب وشـعبان ورمضان، ومـا فيها من ليلـة المعراج ونصف شـعبان والقدْر، وسـيلةً لتوجيه الناس إلى الله تعالى؛ إن كل لحظة مـن هذه الأوقات المباركة مواتيـة لبلوغ الخلود، فينبغي أن تهدف جميـع ما فيها من فعاليات إلى تحقيق الغايات السامية النبيلة.

أبلغ دعوة لجلب العناية الإلهية

سؤال: مِن أُسس الإخلاص ودساتيره عند الأستاذ سعيد النورسي: "أن تعدّوا مزايا إخوانكم مزاياكم، وفضائلَهم فضائلَكم، وأن تفتخروا بها شاكرين لله"[٨]؛ فكيف نفهم هذا الدستور؟ وما الأمور التي تبلغ بنا أفق الفخر بمزايا الإخوان، ومشاعرُ الحسد والغيرة كامنةٌ في طبيعتنا البشرية؟

الجواب: كثيرًا ما يشير القرآن الكريم إلى أن العبادة لا تكون إلا لله، ويستخدم مفهوم "الإخلاص" تعبيرًا عن هذا، قال تعالى:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٢/٣٩).

أمر ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية في أوائل سورة الزُّمَر بأداء العبادة مع التحلي بالإخلاص، وفي السورة نفسها جدَّد الأمر بالإخلاص، فقال:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ١١/٣٩).

ثُم أكدَّت السورة مرةً أخرى أهمية الإخلاص، فقال ﷻ:

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٣٩/ ١٤).

أهمُّ وسيلة لحصول التوفيق الإلهي

كتب الأستاذ النورسي ﵀ في الإخلاص رسالتين اثنتين أوجز فيهما كل ما في المسألة:

(٨) سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٤.

الدستور الأول لبلوغ الإخلاص: ابتغاء مرضاة الله تعالى في كل شأن، بمعنى ألا ينشد المرء أي مطمع دنيوي أو أخروي عند امتثاله لما أُمر به، وأن تكون غايته الوحيدة هي رضا الله فحسب، أما من سعى واجتهد ثم أُكرِم بشيء من الثمار والمكافآت دون طلب فتلك عاجلُ بُشرى المؤمنِ، فليقابل ذلك بالشكر والحمد.

لكن في هذه الأيام التي طغت فيها الأنانية حذارِ أن يغيب عنا ولو لحظة أن هذه النعم التي نُمطَر بها زخًّا زخًّا قد تكون "استدراجًا"؛ وإن شئت ألا تخسر في وقت هو أدعى للكسب فقل كما قال الشيخ محمد لطفي أفندي[٩]:

يا لَها مِنْ نعمةٍ هَذَا الْحَقيرُ لم يَكُنْ أهلًا لها
فما سرُّ هباتِ كلِّ ذاك اللطف والإحسانِ؟

لا ينبغي أن نأمن الاستدراج ألبتة؛ فليُعلَم أننا إنما حظينا بألطاف تتجاوز طاقاتنا وتفوقها بفضل العناية الإلهية.

ثمة رجال عظام ذوو حكمة وبصيرة يستطيعون قراءة الأحداث قراءة صحيحة، إلا أنهم لم يحظوا أو يوفقوا بمثل هذه الخدمات الجليلة التي تكرم الله تعالى بها على أناس صغار مثلنا؛ فلنلجأ إلى الله تعالى ولنرفع أكفّ الضراعة إليه قائلين: "اللهم إن كانت هذه النعم التي أسبغتها علينا ستفضي بنا إلى البغي والطغيان فإنا نستعيذ بجنابك منها، اللهم إنا نتوسل إليك أن تجيرنا من الطغيان".

(٩) **محمد لطفي** (١٢٨٣هـ/١٨٦٨م – ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م): عالمٌ زاهدٌ وشاعرٌ صوفي، ولد في محافظة أرضروم شرقي تركيا، حصل على الإجازة العلمية من كبار علماء عصره، وبعد أن عُيِّن إمامًا وخطيبًا انتسب لشيخ النقشبندية محمد بيري كفراوي. عُرف بين الناس بـ"إمام ألوار"، واشتهر بلقب "سيدي أفه"، نظم أشعارًا بالعربية والفارسية والتركية، نُشرت فيما بعد تحت عنوان "خلاصة الحقائق".

إن التحلّـي بالإخلاص الذي له كل هـذا القدر من الأهمية في حياتنا الدينية يتناسـب طرديًّا مـع قوة الإيمان؛ فلو أنكم تدبرتم الأوامر التكوينية والتشـريعية، وسـلكتم طرقًـا تعبر بكم مـن الإيمان التقليـدي إلى الإيمان التحقيقي، وتوجهتم على الدوام إلى ربكم ﷻ قولًا وفعلًا وحالًا، فإن الله تعالى سيجود عليكم يومًا بإشعال جذوة الإخلاص في قلوبكم كما أشعل جـذوة الإيمان من قبلُ؛ فتوفَّقـون لأداء ما تُكلَّفون به بإخلاص تام بفضل الله تعالى وعنايته.

نعـم، إنّ منـع الإنسـان نفسَـه من مشـاعر التظاهر، وإدراكَـه لقصوره وعيوبه، واسـتغفارَه الله فورًا إذا ما تلفظ بكلمة "أنا" وتقويمَه لمشـاعره بل كبْحَهـا مباشـرة، كل هذا منـوطٌ بزيادة اليقين في الإيمـان والاعتكاف في حِمـى الإخلاص، فمن حظي بهاتين الخاصيتين وُفِّق في مشـاركة إخوانه في العمل؛ إذ يعلم أنه من المحال أن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا من دون عناية الله تعالـى وفضله، وأنجـعُ وسـيلة لتحقيق النجاح وبلـوغ فضل الله تعالى وعنايته هي الوفاق والاتفاق.

مـن أجل ذلك عُنِيَ الأسـتاذ بديـع الزمان بأهمية الشـخصية المعنوية وذكرهـا فـي مناسـبات مختلفـة، فهو يراهـا ذاتَ قـدر في بلـوغ الإيمان التحقيقي وحسن الخاتمة، ويرى أن الحسنات التي يعملها فردٌ من جماعة تُكتـب لأفـراد الجماعـة كلهم، فعملٌ واحـدٌ يقوم به فردٌ يصبح ألفًا بسـرِّ الشَّركة الأخروية في العمل.

مثـلًا قد يشـرع الشـخص في الوعـظ ببلدة مـا، وثمة عشـرةٌ آخرون يفعلون ذلك في البلدة نفسـها بروح الأخوة، فكلٌّ منهم قد يحظى بثواب جزيل وكأنه قد قام بألف عمل، لكن لا يعتمد المرء على هذا لأنه لا علم له بما كُتِبَ في ميزان حسـناته، فلا يضيـع ثواب عمله؛ إذ إنه لا يدّعي أن

مـردّ هذه الجماليـات إليه، ويوم القيامـة يقول العليم الخبير: "لقد سـرتم معًـا، وتلاءمـت خطاكم، ولم يكن أحد منكـم حجر عثرة في طريق أخيه، فجعلتُ التوفيق حليفَكم فيما قمتم به في الدنيا من أعمال أخروية، فاليوم أَجْزِيكـم علـى ما قدّمتم بروح الشـركة الأخروية، فأعطـي كلًّا منكم مثل ثـواب كلّ فرد في الجماعة"؛ وبذلـك يُضاعف ثوابُ أعمال صغيرة قاموا بها بروح المشاركة الأخروية.

عطاء غير متوقع

في بعض الأوقات والأحوال يضاعف الله ﷻ بعضَ الأعمال الصغيرة أضعافًا كثيرة لملابستها لظروف ما.

مثلًا رباطُ سـاعة على ثغر الوطن قد يعدل عبادة سـنة، والشـهيد في سـبيل الله يرتقـي مباشـرة في الكمـالات إلى أعلى عليين وكأنه قد ركب مكـوك الفضـاء، وهكذا العبادة في ليلة القدر، فهي خير من ألف شـهر إن أحسنّا استغلالها.

رأينـا فـي الأمثلـة السـابقة أن الله ﷻ يضاعـف وينمّـي ثـواب بعض الأعمال لملابستها لظروف خاصة، فيجعل الحسنة كسنبلة فيها ألف حبة؛ وهكذا العمل داخل إطار الشخصية المعنوية، له قيمة جدّ متميزة عند ربنا تبـارك وتعالـى وهو يُعدّ بعدًا من أبعاد الإخلاص، ويبلـغ هذا ذروته بفخر الفرد من باب الشكر بـمزايا إخوانه وشركائه في هذه الشخصية المعنوية.

ذات يوم أراد الأسـتاذ النورسي ﵀ اختبار شعور الإخلاص والأخوة لدى طلابه، فقال لأحدهم: إن خط زميلك في استنسـاخ الرسـائل أجمل من خطّك، فما كان من المخاطب إلا أن طار بكلام أسـتاذه فرحًا مفتخرًا بأن خط أخيه هو الأحسـن، فحمد الأسـتاذ النورسـي ربه سبحانه وتعالى

علـى ما لدى طلابه من شـعور الإخـلاص والأخوة، وقـال: "راقبتُ قلبه وأمعنت فيه بدقة، وعلمت أنه ليس تصنعًا، بل شـعرت أنه شعور خالص، فحمـدت الله تعالـى على أن في إخواننا من يحمل هذا الشـعور السـامي، وسـينجز هذا الشـعور بإذن الله الكثيرَ الكثيرَ من الخِدمات، والحمد لله أن ذلك الشعور الأخوي أخذ يسري في صفوف إخواننا في هذه المنطقة"[١٠].

نعم، إذا كان العمل استنساخًا ونشرًا وتوزيعًا لكتاب مثلًا فلا يهمّ من الـذي فعـل، فليفـرح المرء بأن أخاه هو من قام بهـذا، وعليه أن يؤثر غيره ليحافظ على خلوص قلبه لأن النجاح في أي أمر له جوانب تنذر بالخطر؛ فقد يعزو الإنسـان هذا النجاح إلى عقله وعلمه ومهارته، وقد يسيطر عليه مثـل هـذا الشـعور لتقديـر النـاس وثنائهم عليـه وإن لم يكن قـد فكر فيه ابتـداء؛ لـذا ينبغي أن يسـعد المرء عند قيـام أخيه بهذا الأمـر، وأن يفتخرَ بمزايـا أخيـه شـاكرًا لله فيحصل على ثواب شـكره؛ وهـذا ليتقي كل تلك المخاطر ولئلَّا يُترَك الأمر ويُهمَل، ولْيَعلم أنه سيكتب له في صحيفته مثل أجر ما أنجزه أخوه، وهكذا يُضاعف ثواب ما يُؤدَّى في جماعة؛ هذا وإن تشـجيـع الإنسـان لأخيه وتهليله له قمعًا لأنانيته وكبحًا لجماحها سـيعود عليه بأنواع من الجزاء والثواب، وقد يسـهم تهليل الإنسان لأخيه وتقديره له في انكشـاف قدرات هذا الأخ ومواهبه، ويشـجعه على أداءٍ أكثر تميزًا في الأعمال المهمة الأخرى، فمن كان سببًا في هذه الأعمال كلّها فسينال حصتَه من ثواب ما قام به إخوانه بلا ريب.

المذاكرة مفتاح لأبواب الإخلاص الأتمّ

ذكرنا آنفًا أن الإخلاص والصدق والوفاء يتناسـب تناسـبًا طرديًّا مـع الإيمـان؛ فالإنسـان يوفَّـق إلى الإخلاص بقـدر عمق إيمانـه، إذًا عليه ألا

(١٠) سعيد النورسي: الملاحق، ملحق بارلا، ص ٥٤.

يكتفي بما حصّله في مسألة الإيمان، بل عليه أن ينقّب ويقلّب ويحقّق دائمًا في الأوامر التشريعية والتكوينية قائلًا: "هل من مزيد؟"، حتى يقطع المسافات في سبيل الإيمان والمعرفة.

أجل، على الإنسان أن يسعى ويجتهد بلا فتور في هذا السبيل، ويطوّف في مراتب اليقين، ويرقى دائمًا من مرتبة إلى أخرى.

ثم إنه يجب أن يدعم بعضنا بعضًا لتغدو دساتير الإخلاص روحًا لحياتنا، فإذا ما اجتمعنا تناقشْنَا وبحثنا في مثل هذه المسائل، ولكن حذار أن يتسم هذا الأمر بالسذاجة والسطحية كأن تقول لفلان مباشرة: "عليك بالإخلاص!".

وإليكم هذه الحادثة مثلًا: لما كنت طالبًا لم يكن لي إلا بنطال واحد، أغسله، ثم أضعه تحت الفراش لألبسه مكويًّا في الصباح، لا أعلم فلعل هذا ضعف أو عقدة نقص لكوني من أسرة فقيرة، وذات يوم جاءني صديق مقرّب وقال -وهو يقصد البنطال المكوي-: "أما كان الأولى أن تتقي الله بعض الشيء؟"؛ لا فضّ فوه، يا له مِن صديق!، لكن لم أستطع أن أستوعب حتى الآن علاقة التقوى بكيّ البنطال.

أجل، ليس من الصحيح أن نحدّث مخاطبينا بأسلوب كأننا نملي عليهم أوامرنا حتى وإن كنا مخلصين في هذا، خاصة أننا عندما نستخدم أسلوب التعالي تجاههم ونستثني أنفسنا ونُزكّيها نكون قد تجاوزنا الحدّ، أمّا الطريق أو المنهج المتعين في هذا فهو إعمالُ الفكر في بحث المسائل ومناقشتها ومخاطبةُ الآخرين بألطف الأساليب وأنسبها حتى لا نجرح مشاعر أحد أو نكسر خاطره.

وقد حملت أهمية الإخلاص الأستاذَ بديعَ الزمان على أن يوصي

بقراءة "رسالة الإخلاص"[١١] مرة على الأقل كل أسبوعين، لعل هناك من قرأ هذه الرسالة المهمة عشرات المرات، وإذا ما ذُكرت كلمة من أي فقرة أكملها كلها عن ظهر قلب، لكن القراءة السطحية لا تكفي، بل لا بد أن تكون القراءة أكثر عمقًا وشمولية ليغدو الإخلاص روحًا لحياتنا، ويتشربه القلب والروح.

أجل، لا بد أن نقوّم طريقة القراءة ونجددها حينًا بعد حين حتى نخلّصها من الرتابة ونضفي عليها حيوية وعمقًا جديدًا.

مثلًا ابحثوا الموضوع بالتفصيل، وعودوا به إلى الكتاب والسنة، ثم ادرسوه وحللوه معًا في جلسة مذاكرة ومناقشة، فإن فعلتم فستقولون: "الحمد لله أننا استفدنا من هذا الموضوع، فكم من الأمور كنا نجهلها، وكم مسألة مهمة اكتشفها هذا العالم الجليل في عهد مبكر، فرغم قراءتنا مرارًا لهذا الموضوع لم نكن ندرك أهمية هذه المسألة بجوانبها كلّها".

نعم، إن استخراج أعذب الأفكار من الأعماق منوطٌ بالمذاكرة والمناقشة، وفي المثل: "الْعِلْمُ بِئْرٌ دِلاؤها الْمُذَاكَرَة".

أجل، إن لطَرْقِ المسائل بالمذاكرة والمناقشة أهميةً كبيرة جدًّا، قال ﷺ: **"مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ"**[١٢]؛ وردت في الحديث عبارة "يَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ"، ومعلوم في الصرف أن "التدارُس" من باب "التفاعُل" الدالّ على "المشاركة بين اثنين فصاعدًا"، أي إن أي كلمة من هذا الباب تدل أن شخصين أو أكثر قاموا بعمل واحد، فالتدارس هو مباحثة ومناقشة لمسألة ما في حلقة علم بين

(١١) سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢١٩.

(١٢) **صحيح مسلم**، العلم، ٣٨.

شخصين أو أكثر، وللشيخ محمد لطفي أفندي في أهمية حلقة العلم:

إلى الحَلْقةِ أيا طالبَ فيضِ اللهِ إلى الحَلْقةِ هَلُمّ!

إلى الحلقة أيا عاشق نور الله إلى الحَلْقَةِ هلُمّ!

وفي حديث آخر يقول ﷺ: **"إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَؤوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: "مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟" فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: "وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟" قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: "وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟" قَالُوا: لَا، أَيْ رَبِّ، قَالَ: "فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟" قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قَالَ: "وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟" قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: "وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟" قَالُوا: لَا، قَالَ: "فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟" قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، فَيَقُولُ: "قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا"، فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، فَيَقُولُ: "وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ"**(١٣).

إذًا علينا أن نعمل بروح الأخوة لنبلغ الإيمان التحقيقي والإخلاص، بل علينا أن نطبّق مبدأ الشركة في بحث المسائل على أرضية المذاكرة، هذا في باب الأسباب، وكذلك علينا أن نعتصم بالدعاء ونلوذ بالعناية الإلهية؛ عسى الله أن يمنّ علينا جميعًا بروح الأخوة التامة والإخلاص الكامل في فترة حرِجة طغت فيها الأنانية.

(١٣) صحيح البخاري، الدعوات، ٦٦؛ صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٢٥ (واللفظ لمسلم).

ممثِّلو روح الفتوة

سـؤال: للفتوة تعاريف شـتّى منذ قديم الزمان، فما معناها، وعلى مَن يُطلق "الفَتَى" في ضوء ظروفنا الراهنة؟

الجواب: الفتوة لغة: الشـباب، وهي مشـتقة مـن الجذر "ف ت ي"؛ واصطلاحًا: تشـبُّع القلب بالإيمان الكامل، وحسـنُ معاملة الناس كلهم، ونـذر العمـر مـن أجـل الآخريـن، وأداءُ المـرء مهامه دون أن يرى نفسـه متميزًا، وبذلُ كلّ التضحيات في سبيل القيم المقدسة، وانتظارُ ما له أجل مسـمى والصبـرُ عليه صبرًا يبلـغ حدّ الجنـون كصبر الدجاجة حتى تفقس بيضها، والثورةُ على كل المسـاوئ والشـرور مـع مراعـاة العصر والزمان الـذي نعيـش فيه، ودون إهمال العقل والمنطـق، والثباتُ وعدمُ الفزع من الأذى والمشقة التي تنتج عن كل ما ذكرنا.

رُوي في الأثر: "**لَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ وَلَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفِقَار**"[١٤]

يشـير هـذا إلـى أن سـيدنا عليًّا كـرّم الله وجهه بطلٌ يمثـل الفتوة بكلّ معانيهـا؛ والحـقّ أن الفتوة تمتد إلى ما قبل سـيدنا علي ﷺ بكثير، فلنا أن نعدّ كلًّا من الأنبياء العظام ممثِّلًا حقيقيًّا للفتوة في أعلى مسـتوياتها لأنهم أفنوا حياتهم في سـبيل رسـالاتهم، ورغم أنّ منهم من لم يتّبعه إلا بضعة أشخاص ومنهم من لم يتبعه أحد إلا أنهم مضوا في دعوتهم ولم يفتروا.

(١٤) انظر: العجلوني: **كشف الخفاء**، ٤٤٧/٢.

ترقُّب النتيجة من الله ﷻ فحسب

إن الأنبياء العظام عليهم السلام أدَّوا رسالتهم على أكمل وجه، وواصلوا أداءها بوعي وفطنة في ضوء الأوامر التكوينية، وتصرفوا في كلّ حال بحِكمة بالغة، ومع ذلك كله لم يترقبوا النتيجة إلا من الله ﷻ، وهذا بعدٌ آخر من أبعاد الفتوة.

أجل، إن تحرّقَ المرء شوقًا وعشقًا في البداية لأداء الواجب، ثم اطمئنانَه في النهاية إلى أنه قد قام بواجبه، كلاهما معًا مؤشرٌ مهم على روح الفتوة؛ وبتعبير آخر: ثمة أمر شديد الأهمية في خدمة الإيمان والقرآن، ألا وهو أن يَشْغَلَ عقلَ المرءِ على الدوام -وهو يقوم بمهمة الإرشاد والتبليغ- أنِ "الحمدُ لله أنني امتثلتُ أمر ربي وإن لم يتبعني أحد، وله الحمد أنه لم يحرمني من تبليغ هذه الرسالة"، وأنْ يمضي في مهمته بلا خنوع ولا انكسار ولا يأس ولا قنوط.

لقد قام الممثلون الحقيقيون لروح الفتوة على مدار التاريخ بتبليغ رسالتهم حتى عندما أُشهِرت لهم المقاصل، فلم يعبؤوا بقمع السادة والكبراء واضطهادهم، واستخفوا بالحياة ومضوا في طريقهم؛ فهذا عيسى عليه السلام لم يتوانَ قطُّ في التضحية بروحه في سبيل رسالته رغم ظلم الرومان وقمعهم، ومحاولة طائفةٍ التنكيلَ به وتأليبَ الرومان عليه؛ ثم وجَّه نظرَه إلى العالم الآخر وارتقى إلى مرتبة حياتية مختلفة؛ فيمكن أن يقال: إن الفتوة التي كان يمثلها عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كانت مرقاةً لرقيّه إلى الأفق الذي هو فيه الآن.

وفي قصة سورة الكهف حول رحلة موسى عليه السلام وفتاه ولقائه بالخضر بعدٌ آخر للفتوة؛ فهذه القصة تشير إلى بعد من أهم أبعاد الفتوة وهو

الخـروج من سـجن قوالب الطبيعة الضيقة والانفتـاح على رحابة ما وراء الطبيعة للرقي إلى مستوى حياة القلب والروح، ثم التطواف باستمرار في هذا المدار؛ وإن كانت الجسـمانية تسـتمرّ بقدر الحاجة ولا تنعدم جذريًّا في مثل هذا المستوى من الحياة إلا أن الرغبات والأهواء تتقهقر في سلم أولويات المرء؛ ولمثل هذه القصص دلالات مهمة منها أن على المؤمنين ألا يكتفوا بعلوم الظاهر فحسـب، بل عليهم طلب العلم اللدنّي باسـتثمار عوالم قلوبهم وأرواحهم.

الفتوة والتفاني

من أهم مقوِّمات الفتوة أن يتحلّى المرء بروح التفاني؛ أي أن ينذر نفسه لغايته المثلى، ويطرح ما سواها، وعلى الروح المتفانية أن تقول: إن وظيفتي الحقيقية هي إعلاء كلمة الله والسعي الدؤوب لتحقيق هذا الهدف المنشود.

والحقّ أن كلمة الله في نفسها عالية كما أسلفنا مرارًا، ولكن لا بد من بـذل الجهد ليسـمعها العالـمُ كله؛ فعلى من تفانى في سـبيل غايته المثلى أن يهرول وراء هذه الغاية بمشـاعره وأفكاره وسـلوكه وأفعاله كلِّها، وأن يتضرع إلى الله تعالى أن يثبّته على هذا الأمر؛ لا بدّ لمثل هذا الإنسـان أن يفيض قلبه بالرغبة في إحياء الآخرين حتى ينسى -وهو على ذلك- طريقَ بيته ووجوهَ أولاده، إلا أن علينا أن نذكر أن مِن أسُس الخدمة الإيمانية أداء المرء لما عليه تجاه أولاده وأبويه وكل من لهم حق عليه.

الفتوة والثبات

ومثل التفاني في الأهمية في هذا المقام الثباتُ والشموخ، فعلى المرء أن يثبُت حيث هو، ويقول كما قال "إبراهيم تنوري"[١٥]:

(١٥) **إبراهيم تُنُوري** (ت ٨٨٧هـ/١٤٨٢م): شاعر صوفيٌّ، له دواوين شعر منها: "كُولْزار معنوي (حديقة الورد المعنوية)"، و"كُولْشَنِ نِياز (بستان التضرع)".

ما أعذب البلاء إن كان من جلالِهْ

وما أحلى الوفاء إن كان من جمالِهْ

ففي الجمالِ لطفُهُ وقهرُهُ سواء

ونقصد بالشموخ ألّا يُصاب المرء بالذعر فيتداعى ويسقط، وألا يتخلى عن رسالته مطلقًا مهما كلّفه الأمر، وإلا فالأجدر بالمؤمن أن ينحني كعلامة الاستفهام بين يدي ربه ﷻ، بل ويخرّ على وجهه ساجدًا، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فلنميز بين هذين الأمرين.

الفتوة الحقيقية هي الفناء عن الذات

أهمّ سِمَة لا بد أن يتميز بها مَن نذروا أنفسَهم لحركة المتطوعين هي ألا يروا أنفسَهم متميزين رغم أدائهم المتميز.

فإذا ما اطّلع المراقبون على ما يبذلون من تضحيات فلربما يقولون: "قليلٌ في هؤلاء وصفُهم بـ"المثاليين"؛ لأن لهم عمقًا معنويًّا خاصًّا لو مُزِّق أحدهم أشلاءَ ووُضع المنشار على رأسه فجُعل نصفين، ومُشِط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فلن يصرفه ذلك عن رسالته؛ ورغم كلّ هذه التضحيات عليهم أن ينقشوا في أرواحهم أنهم لا يتميزون عن غيرهم بشيء، بل لا ينبغي أن يرِدهم هذا الخاطر، فإن مر بهم خاطرٌ كهذا قسرًا فليُهرعوا إلى سجّادة التوبة فورًا وكأنهم اقترفوا أمرًا عظيمًا؛ أما ما يجري على أيديهم من جماليات فيرون أنها جميعًا نتاجٌ لِتفتُّح أزاهير بذور ألقاها مَن كانوا قبلهم، ثم غدت براعمَ تنمو وتُزْهِر، فسنابلَ في كل سنبلة منها ألف حبة، فهذه الجماليات ناجمة عن صدق سلفنا وإخلاصهم في جهدهم وسعيهم، وشاء الله أن يوافق عصرُنا وقتَ العناية بتلك البذور وعزق الأرض وتعهدها بالتنقية والنظافة لتغدو هذه الفسائل أشجارًا تُثمر؛

فأنى لنا أنْ ننسب لأنفسنا كلّ هذه الجماليات؟! إنه لَبخس لحقّ سلفنا ووقاحةٌ وصفاقةٌ بين يدي الله تعالى.

ولا عبرة في مقام الفتوة بالعمر أو المقام أو المنصب أو الخبرة؛ فقد يتوهم الإنسان أنّ له ميزةً على غيره لإقبال الناس عليه لعمره أو مقامه أو منصبه أو خبرته، والحقّ أنّ توقير من بدأ حمل هذه المهمة قبل غيره هو مقتضَى الأدب والتناغم بين السابق واللاحق؛ أجل، إنّ من وسائل تحقيق التوازن والتناغم بين الأفراد احترامَ الصغار للكبار وحسن الظن بهم بشرط أن يكون دون مغالاة أو مبالغة، ودون الدخول في أنانية الجماعة الأمر الذي ينفّر الآخرين؛ وليُعلَم أنّه إن لم يتحقق من نوقّرهم بالفناء عن الذات، وإن لم يدرّبوا أنفسهم على أن يروها "صِفْرًا" فقد تساورهم الأوهام والادعاءات ويعشقون المناصبَ المعنوية التي وهبَها لهم مَن أحسن الظنَّ بهم، فرب قائلٍ: "قد بلغتُ من العمر الستين، وأنا أستاذ كبير في نظر كثيرين، وها هم يجثون بين يدَيّ على الركب، ومعنى هذا أن لي ميزة"؛ فمثل هذه الخواطر نذيرٌ بالخطر ونافذة لزيغ الإنسان وضلاله، ومحوه وهلاكه؛ أمّا لو رأى المرء أن تحقيق مقتضى الخبرة مَسؤوليةٌ حتميةٌ تقع على عاتقه فهذه مسألةٌ أخرى؛ لكن إن ردّ إقبالَ الناس عليه إلى خبرته وذكائه وفطنته، واتخذ ذلك وسيلة للتحكم فيهم، فذاك شططٌ بيّن ووقاحة مضاعفة.

التواضع سمة لازمة للفتوة

ثمة حكمة يعزوها بعضهم إلى سيدنا عليّ ﷺ: "كُنْ بين الناس فردًا من الناس"، فمن أراد أن يكون ممثِّلًا حقيقيًّا للفتوّة فعليه أنْ يكون فردًا من الناس حتى لا يراه الناس متميّزًا عن غيره.

وأرى أن هذا مبدأ أساس وبُعد مهم للفتوة؛ لم يُكتب لي أن أصحب الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي لأرى حياته، لكن سمعت من طلابِه من الرعيلِ الأول في الخدمة أنه ﵀ لا يميز نفسه عن طلابه ألبتة رغم أنه أستاذهم، وله يد عليهم، ويعرِّف نفسه دائمًا بقوله: "أخوكم"، وأشار إلى هذا في رسائل النور، فقال: "إن أساس مسلكنا ومنهجنا هو الأخوة في الله، وإن العلاقة التي تربطنا هي الأخوة الحقيقية، وليست علاقة الأب بالابن ولا علاقة الشيخ بالمريد، وإن كان لا بدّ فمجرد العلاقة بالأستاذ؛ وما دام مسلكنا هو "الخليلية" فمشربنا إذًا "الخلّة"، والخلة تقتضي أن يكون الأخلاء بعضهم لبعض صديقًا صدوقًا، ورفيقًا مضحّيًا، وأخًا شهمًا غيورًا..."[١٦].

ولنا في علاقة الرسول الأكرم ﷺ بصحابته أسوة حسنة، فكلّما عرف الصحابة الكرام رضوان الله عليهم شخصيتَه أكثر، ووقفوا على الحقّ والأدب الذي يقتضيه هذا المقام وذلك الموقف تضاعف احترامهم وتوقيرهم ولطفهم في معاملتهم له صلوات ربي وسلامه عليه، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق﵁ الذي جعله الله تعالى صرحًا للجماليات: خطيبٌ مِصْقَع يسحر السامعين، وإذا قرأ القرآن أثّر حتى على المشركين، لكنك تراه بين يدي رسول الله ﷺ ناكس الرأس، يقف وكأنّ على رأسه الطير، وأظن أننا لو جمعنا كلماته بين يدي رسول الله ﷺ لما زادت على مائتين.

فمن ذاك الذي حاز كلّ هذا القدر من التقدير والاحترام؟

هناك قول أثبت الأولياء صحة معناه وإن قال المحدّثون بأنه لم يثبت حديثًا: "لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ"[١٧]؛ إنه ﷺ مُرشدٌ ومبلِّغٌ لا مثيل له في

(١٦) سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٤.

(١٧) انظر: العجلوني: **كشف الخفاء**، ١٩٢/٢.

شـرح كتاب الكائنات وفي تفسير القرآن الكريم المصدر الأول للتشريـع، فتوقير الصحابة له واجبُهم وحقٌّ له عليهم.

أجـل، لا يكفـي أن يهبّ الأحياء من مجلسـهم احترامًـا له عندما تطأ قدمـه موضعًـا ما، بـل إن على رميم العظام أن تهبّ مـن مرقدها توقيرًا له ﷺ؛ ورغـم ذلك كان رسول الله ﷺ يقول: **"لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا"**(١٨).

وكان ﷺ يخدم نفسه بنفسه في مطعمه ومنامه ونحو ذلك، ولو أَذِن لَما تركه أهلُ بيته أو الناسُ يقوم بشـيء من ذلك أبدًا، ولكن سـيد الأنام عليه أفضـل الصلوات والسـلام لم يكن ليأذن؛ لأن عظمـة الكبار في التواضـع والفنـاء والحياء، أمـا التكبر والخيلاء فهو عقدة نفسـية لدى الصغار، فإنه لا يليق بالعظماء استغلال توجه الناس إليهم بالتحكم فيهم.

ولـم يفعل رسـول الله ﷺ شـيئًا ممـا لا يليق به قط؛ أجـل، كلّ ما كان يفعلـه يليـق به للغاية؛ حتـى إن الملأ الأعلى ليغبطـه ويَعجب لِما يقوم به من أعمال.

وقصـارى القـول أن حياتـه السـنيّة ﷺ فيهـا أروع نماذج الفتـوة بكلّ أبعادها وأعماقها كما كان في مكارم الأخلاق جميعها.

(١٨) سنن أبي داود، الأدب، ١٥١.

مهندسو الفكر وبُناة المستقبل

سؤال: يذكر بعضُ المعلِّمين -أنه عدا المعاناة من الضيق المادي والمشاق- قد يتأثرون أحيانًا بمشاكسات الطلاب وعزوفهم عن العلم والتعلم، فما قولكم في هذا؟

الجواب: لو وضعنا المبادئ الدينية نصب أعيننا لتبين أنَّ التعلّم والتعليم وظيفتان علويتان مرتبطتان بما وراء السموات، وفي كثير من الآيات والأحاديث الشريفة إشارات إلى أهمية العلم وحضٌّ عليه، يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ الزُّمَرِ: ٩/٣٩).

وعندما تحدّث القرآن الكريم عن فضل سيدنا آدم عليه السلام على الملائكة أبرز ميزته في موهبته وقدرته على تحصيل العلم، وهذا له مغزى عميق في حديث القرآن الكريم عن أهمية العلم، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣١/٢-٣٣).

ويُفهم من هذا أن أهم خاصية فضلت الإنسانَ على الملائكة هي تعلُّمه الأسماء، أي استعداده وقدرته على تحصيل العلم.

وَرَثَةُ منهاج الأنبياء

وجّه سيدُنا رسول الله ﷺ الأنظارَ إلى أن العلم هو ميراث النبوة، قال: **"إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"**(١٩).

وقال في حديث آخر: **"إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا"**(٢٠)، ولفت الأنظار إلى أهمية العلم والتعليم.

إذًا المعلّم ممثِّل لمهمة سامية، وهو صانِع فكرها ومهندسها، واليوم يمكن للمعلِّم الذي جعل همَّه دعوتَه أن يُنير عقول طلابه وأرواحهم باستغلال كل إمكانيات العصر، وسبر أغوار العلوم، والاستفادة من كل فروع المعرفة مثل الرياضيات والأحياء والفيزياء والكيمياء والتشريح والفسيولوجيا والجيولوجيا؛ وعليه يُقال: إنّ التعليم هو أنسب الطرق لإشادة الصروح العظام في باب صياغة الإنسان؛ من أجل هذا أولى القرآن الكريم هذا القدر من الأهمية للتعليم، وأكثرَ رسول الله ﷺ في حديثه عن هذه المسألة، فكلّ من ينشد النفع لوطنه وأمته والبشرية جمعاء عليه أن يتحمل كلَّ المشقات وأن يبذل وسعه في هذا السبيل رغم كل شيء، وأن يستخدم هذه الأداة النافعة بكلّ قوة.

ساحةُ تأثيرٍ تمتد من الطالب إلى بيئته

نعم لا يُعتد شرعًا بشهادة الأطفال لكنها نفسيًّا هي أمضى الشهادات، فهم إن قالوا صُدِّقوا، والمثل التركي يقول: "سَلِ الطفلَ"؛ فإذًا ليس الطالب هو المخاطب الوحيد للمعلِّمين، لأن لكل طالبٍ أقرباءَ كأصوله وحواشيه،

(١٩) سنن أبي داود، العلم، ١؛ سنن الترمذي، العلم، ١٩.

(٢٠) سنن ابن ماجة، المقدمة، ١٧.

وعندما يرجع من المدرسة يقصّ عليهم ما جرى فيها مع معلّمه، وكيفما يفعل المدرِّس في تصرفاته وأخلاقه يروي الطفلُ لعائلته، فيقول عن معلمٍ أحبه وتعلّق به: إن معلّمنا يعاملنا بأخلاق سامية، يسمع شكوانا، ويحلّ مشكلاتنا، فإن حزِنّا سرَّى عنا وأذهب كلَّ همومنا وغمومنا؛ وبهذا يحسن أولياء الأمور الظنَّ بالمعلِّم، وإن استطاع المعلِّم اقتناص زيارة أولياء الأمور أو مناسبات أخرى لبِنَاء حوار بنَّاء معهم صار الطلبة بذلك قنوات لشبكة علاقات بعدَّة عائلات؛ وبذلك يمكن أن تصل عناية المعلم بالطالب ورعايته له إلى أسرة الطالب أيضًا، بل إلى كل ذي قربى بهذه الأسرة، فتتسع مساحة تأثيره.

وأرى أنَّ مهمة كهذه لها هذا القدر من المكتسبات جديرة بأن يقوم بها الفرد مهما كانت المشاق والعقبات، وبأن يكتفي بما يسد الرمق إن لزم ذلك، وألا يرى من العقبات المادية كضعف الراتب مشكلةً تَثنيه عن أداء رسالته، فالمال ليس ركنًا في كل شيء، بل ربما كان أشد الناس فقرًا على وجه البسيطة هم الأنبياء، ومع ذلك تربّعوا في قلوب الناس، ووجهوهم إلى الخير، ووهبوا للدنيا كلها حياة جديدة، ولا أقصد أن يكون الفقر المصطنع وسامًا للمعلّمين، بل أريد أن أبين أن المال ليس كلَّ شيء، وأن لدينا أنواعًا أخرى من الثراء مثل: كسب القلوب، والنفوذ إلى الأرواح، وتوجيه الناس نحو غايات سامية.

ولقد حاز التعليم أهمية بالغة خاصة اليوم؛ إذ حوَّلت الأنشطةُ التعليمية العظيمة العالمَ قرية صغيرة؛ هذا ويُلاحظ أن من المعلِّمين من يُكره الطلاب على أشياء دون اكتراث لردود أفعالهم، أما أنتم فعليكم أن تجتهدوا بالاعتماد على الودّ واللطف للانطلاق برحلات قلبية إلى قلوب الناس، فالتعليم طاقة كامنة وراء كل ما تقومون به.

ومن الضروري تشجيع الطلاب على كل المستويات لسلوك هذا السبيل، وتحفيزهم على التعليم؛ وليس لكلامي هذا مفهوم مخالفة، فمثل التعليم العنايةُ بجميع المهن التي تنهض بالمجتمع وتُنعشه، فلا يجوز إفساح المجال لوقوع أي ثغرة أو قصور في مناحي الحياة المختلفة، ولكن لا ننسى أنّ للتعليم مكانةً خاصة في إحياء المجتمع.

كسبُ قلوب تدعو لنا طوال العمر

أما مسألة مشاكسات الطلاب وعدم مبالاتهم بالتعلُّم فلنعترف بدايةً أنَّ مثل ذلك قد يصدر عن أي طالب، فالجانب الأهم في التعليم هو الاعتراف بمثل هذه المشكلات وتحمّلها والصبر عليها، ها أنتم ترون النَّحّاتَ يبذل جهدًا كبيرًا حتى يصنع من الحجر القاسي الصلد تمثالًا، ويتصبب عرقًا ويتعب ليجعل هذا الحجر في قالبٍ ما بعد نحته وتشكيله؛ وليست مهمة المعلِّم بأيسر من ذلك، فهو يحاول أن يعالج هذا الإنسان الخام، ويحتّ كل أطرافه المدببة ويشكّله حتى يصل به إلى أن يكون إنسانا حقيقيًّا، أو قل: إنه كالصائغ يعالج الجواهر المكنونة لدى الإنسان ويعمل على إقامة صرح روحه؛ أجل، إنه مثل الفنان يعيد صياغة الإنسان من جديد.

ورغم هذا كله قد يوجد طلابٌ يختلقون المشكلات ويُخلّون بالنظام العام، فيلزم عندئذ مقابلة أولياء الأمور وتطبيق برامج بديلة للتوجيه والإرشاد؛ وذلك للحيلولة دون إضرارهم بمن حولهم، وللحفاظ عليهم ما أمكن، مثال ذلك استدعاء أولياء الأمور إلى المدرسة ليشاهدوا أبناءهم عن بعد، ثم نعمل معًا لإيجاد سبلٍ شتّى للعلاج بالتشاور بين المعلِّم وولي الأمر.

لقد أخرج الرسولُ الأكرمُ محمد ﷺ معلِّمينَ للحضارة الإنسانية من بين أشدِّ الناس همجية وبداوة وتعصبًا لعاداتهم واختلافًا لأعذار يسفكون بها الدماء؛ وبذلك أصبح ﷺ حبيبًا للقلوب، حتى إن منهم مَن دخل على سيدنا رسول الله ﷺ وهو بين صحابته، وصاح قائلًا: "أيُّكم ابنُ عبد المطلب؟"، ثم جاء اليوم الذي لان فيه قلبه وجلس في حضرته ﷺ يستمع إليه وكأن على رأسه الطير.

هذا هو أعظم تعليم وإرشاد؛ أجل، إن الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام قد جعلوا من أشدِّ الناس همجية وبداوة أناسًا صدِّيقين وتيجانًا فوق رؤوسنا؛ فمن الممكن أن يقع مثل هذا في كل وقت وحين؛ وعلى ذلك فمن المفترض أن يكابد المعلِّم ويعاني ويتكدّر، ولكنه في النهاية سيكسب أناسًا يدعون له طوال العمر، وسيُكتب له في سجل حسناته مثل حسناتهم، فالظفر بنتيجة كهذه تستحق منا مزيدًا من التحمل أيًّا كان قدره.

وقد لا يستطيع المعلِّم أن يصل بطلابه إلى المستوى المنشود، وقد لا يفوز بجميع الطلاب الذين مدّ لهم يد العون، فكم من الناس انفضّ عن أعظم المرشدين الممتازين فخابوا وخسروا، فما على المعلِّم إلا أن يبذل ما في وسعه في هذا السبيل، ثم يفوّض الأمر إلى الله بارئ الثمرة، وليُعلَمْ أنّ المعلِّم لو عدّ هذه المهمةَ أولى أولوياته، ثم انشغل بهذه الوظيفة وتجرّع الآلام كي يوفيها حقها، فلا جرم أن الله تعالى لن يخيّب سعيه أبدًا، وسيتغمده بفضله وإحسانه، ويلهمه سبل الحل والرّشاد.

ما مِن معضلة إلا ويحلّها لسانُ الحال

مسألة مهمة لا ينبغي أن نغفلها في التعليم، ألا وهي أثر الأسوة الحسنة ولسان الحال في إرشاد الطلاب وتوجيههم، فإن الإنسان ينزع إلى الشر، ويجنح إلى الشهوات وسيئ الأخلاق مِن غضب وحقد وعداوة

واعتداء على الحقوق، فمن المفترض أن ينحدر إلى أسفل سافلين إن أسلمناه لأهوائه؛ ولا يتأتى قمع أهوائه وتنمية ميوله الطيبة إلا على يد مرشد يُقتدى به في سلوكياته وأفعاله.

وأخيرًا أريد أن أبوح ببعض مشاعري، وأرجو ألا يُعد هذا تفاخرًا: أنا ابن الرابعة والسبعين لو عُهِد إليّ بوظيفة في كوخي الخشبي الصغير في "كستانه بازاري"[٢١] لهرولت لأدائها، ولعلها في نظر بعضكم أمر صغير يسير، لكنني لا ولن أعدها كذلك ألبتة، حتى إن بعض الناس قد يعد مطالعتي مع الإخوة هنا وانشغالي بالطلاب أمرًا يسيرًا صغيرًا، بيد أنه عندي أعظم الوظائف التي تأخذ بيد الإنسان وتبلغ به أعلى الدرجات.

وحُمادَى القول أن على الإنسان أن يقدر التعليم قدره ويجلّه، ويدرك أنه مهمة الأنبياء، فالحقيقة أنه من المتعذّر أن نجد بين مَن يخدمون الأمة إنسانًا يَعدِل المعلِّم؛ لأن خدمة الناس واستثمارهم أعلى من كل شيء، فلا شيء يعدل إرشاد بضعة أشخاص وتوجيهَهم حتى وإن كنتَ بستانيًّا لكل حدائق العالم وبساتينه، والسلطنة أيضا لا تعدل الرقيّ بالناس إلى مستوى الإنسانية، ألم يتربَّ الحُكّامُ العظام على أيدي معلِّمين عظام؟

وهكذا فبعد أن نضع هذا الأمر نصب أعيننا نقول: إنَّ أقربَ الناس إلى الله ﷻ هم المعلِّمون الذين نذروا حياتهم لنفعِ غيرهم؛ لأن هؤلاء هم مَن يُعيدون صياغة الإنسان، ويبنون المجتمع، ويشيدون الواقع، ويصنعون المستقبل.

(٢١) لما عمل المؤلف مديرًا ومدرِّسًا في "كَشتانَه بازاري" -معهد لإعداد طلاب العلوم الشرعية- أقام في كوخ خشبي صغير جدًّا بجانب المعهد.

التعفُّف والاستغناء طوال العمر

سـؤال: يُقال: إن التعفُّف والاسـتغناء من أهمِّ مقومـات روح التفاني، فـما الأمور التي تجب رعايتها ليتمكّن المرء من المحافظة على خُلق التعفف والاستغناء في مراحل حياته كلها؟

الجـواب: أنـوّه بدايةً أنّ الغنى في الاسـتغناء بالحقِّ عـن الخَلق، بل إن من اسـتغنى بوسـعه أن يتحدّى الخَلق جميعًا بهذا الخُلُقِ؛ فمن يحلّق بروح الاستغناء يضـع بينه وبين الأهواء والتشوفات المادية والمعنوية كافّة حجابًا ويغلِق الأبواب ويوصدها، فلا تذلّه المنّة، ولا يشعر بالامتنان لأحد سوى الله تعالى.

الذل والخنوع من أجل المنصب

علينا ألا ننسى أن الاستغناء ليس سلوكًا مقصورًا على موقفنا من المال والملـك والثروة الحقيـرة، بل هو أيضًا الثبات والصمـود في وجه المقام والمنصـب والتقديـر والتهليل وشـتى أنـواع الرغبات والأهواء النفسـية؛ فلـو عـزم عليـك الناس بإصرار أن تتقلّـد منصبًا أو رتبـة كأن تكون مديرًا أو مستشارًا أو نائبًا في مجلس الشعب، فحاسب نفسك وقل لها: "يا تُرى هل يمكنني أن أحافظ على روح الاستغناء وأنا في هذا المنصب؟!".

أي حاسبها قائلًا: "ما الدافع للحصول على هذا المنصب، أهو الهوى أم السعي في خدمة الأمة لنيل رضا المولى ﷻ؟"؛ فإن تحكمت النفسانية بالنفس فعليك أن تقاوم ذلك الهوى.

ورُبَّ قائل: "لو تعين علينا جميعًا الاستغناء عن بعض الوظائف والمناصب فستظلّ شاغرة؟!"

وجوابه أنه لو وُجد كفء لهذا المنصب وقدَّمتَ نفسَك فهذا يثير الضغائن والحسد، ويفضي إلى النزاع والشقاق، فلو اجتمع عشرة أئمة أَكْفَاء في مسجد، ثم تقدمتَهم إلى المحراب، فهذا ضررُه أكبر من نفعه؛ لأنه لا بد أن أحدهم سيؤمّ الجماعة.

وأمرٌ آخر ذكره بديع الزمان سعيد النُّورسي: "على المرء أن يؤثر التبعية على المتبوعية التي تنذر بالخطر وتقتضي تحمّل المسؤولية". أجل، إن الإمامة أمرُها جلَل؛ فالإمام يتحمل تبعة المأمومين جميعًا، فإذا أخطأ تحمّل تَبِعة الجماعة كلها، ومثل هذا لو أنّ محافِظًا قصّر لَتحمّل وِزر أبناء المحافظة جميعًا، وكذا لو أن الرئيس ارتكب خطأ يضرّ بالشعب، فسيرحل إلى الآخرة وهو محمَّلٌ بأوزار الشعب كلّه.

إذًا على المرء أن يُؤْثِر دور الناخب لا المنتخَب؛ لأن الخطأ ديدن كلِّ من يحرصون على الفوز بالانتخابات، أما من لم تهمّه نفسُه وسعى ليتقلّد الأكفأ أيًّا كان فقلّما يُخطِئ.

أَصعبُ الاستغناء

ذروة الاستغناء في هجر المرء لمدح النفس، وتذمُّره إذا مدحه الناس؛ أجل، على المؤمن الكامل أن تستشعر أعماقه أنّ المدح قدح وإن راق لنفسه الأمّارة، بل عليه أن يسأل نفسه قائلًا: "إنما أبتغي الجزاء في الآخرة،

فلماذا يقدّمه الناس إليّ الآن، يا ترى هل أنا مَن دفعهم إلى ذلك؟"، ثم يؤثر سبيل العجز والفقر، فيقول: "اللهم أَنْسِني نفسي، وكرِّه إليّ الحديث عنها".

قد يستغني الإنسان عن المال والملك، بل قد يُعرِض عما يُعرَض عليه من مناصب كأن يكون واليًا أو محافظًا أو نائبًا في مجلس الشعب أو مستشارًا، ولكن الاستغناء عن التقدير والتبجيل أصعب من هذا كلّه؛ فمن الأهمية بمكان أن يبدأ الإنسان فيتخذ موقفا حازمًا من كلّ ما يُوجّه إليه من تقدير وحفاوة، وألا يواري الباب لهذا الضرب من الآمال والتشوفات، وأن يحثو التراب في أفواه المدّاحين والحامدين حتى يغلق المنافذ دون هذا السبيل.

تربويّون مجهولون تواروا وراء خشبة المسرح

إنني أعدّ أصدقاءنا التربويين الذين يعملون في مجال التعليم والتربية في كثير من الدول من أعظم الناس تضحيةً في عصرنا؛ لأنهم انفتحوا على العالم في ظروف صعبة، ورَبّوا طلابًا سيخدمون للحبّ والإنسانية؛ ثم آثروا البقاء وراء خشبة المسرح في حفلات يُعرض فيها شيء من ثمرة جهودهم، واكتفوا بتصفيق الملايين وتهليلهم لطلابٍ أشرفوا على تربيتهم وتعليمهم؛ اللهم لا تخيّب ظنّنا فيهم، فإنّا لنرجو أن يواظبوا على أداء أعمالهم بصدق وإخلاص كما عهِدناهم.

ورأى بعض الفضلاء العارفين بالجميل تكريمَهم وشكرهم إذ إنّهم مصدر هذا الأمر ومهندسوه، بيد أنهم آثروا الخفاء والتواري وراء خشبة المسرح؛ والحقُّ أن هذا هو السلوك الأمثل الذي كان عليهم القيام به.

أجـل، علـى مَن ينثر البذور في التـراب أن يرحل إلى الآخرة مجهولًا متواريًا، ولا يشـغلن نفسـه بمن يحصد سنابلها ولا بمَن يدرسها، ولا بمَن يأتي بالغلال إلى الجَرِين، بل ينبغي ألا يتعلّق قلبه برؤية الثمرة.

أجل، إنّ أسمى أمانينا -نحن المؤمنين- أن تعلو كلمة الله ﷻ وترفرف خفّاقةً في أنحاءِ العالم كافّة، وأن تصبح حقيقةُ "لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله" هي صدى القلوب المؤمنة وأنفاسَها في كلّ مكان؛ ولو كانت لنا ألف روح لَمـا تأخرنـا في التضحية بها في سـبيل تحقيق هـذه الغاية؛ حتى إني -أنـا الفقيـر البائس- أيضًا لَأعد هذه الغاية أعظـم أمنية ورغبة في الحياة، وأحيانًا تفيض عيناي بالدموع وأنا أقول: ليت صدى "لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله" يتردّد في كلّ مكان.

ورغم هذا الشـوق والحماس فإنك إن أسهمتَ في تحقيق هذه الغاية المثلـى ولو بقدر ضئيـل، ولحقتَ بهذه القافلة المباركـة، فأرى أن عليك أن تقول: "وا شـوقاه إلى مجيء ذلـك اليوم، يومِ نموّ ثمرات هذه الجهود وظهورها، وبُعدًا ثم بُعدًا للتصفيق والتهليل والتقدير والتبجيل من مدّاحين يقولون: "كانت لهذا الرجل يدٌ في هذا الأمر، حسـبي أن أشـاهد -وأنا في العالَم الآخر- هذه الغاية السامية عاليةً خفّاقة في أنحاء العالم كافّة".

بل على المرء أن يتمثل شـعور الاسـتغناء الحقيقي، وأن يسـعى إلى إدراك أفقه، فيقول: "قد تفرز مشـاركتي في هذا الأمر مشـكلات وعثرات، فالأفضـل أن أخرج من هذه الدنيا وأتوارى تحت التراب، وأشـاهد -وأنا في العالم الآخر- تصريف الأمور الربانيّة".

الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله

أهمّ وسـيلة للحفاظ على روح الاسـتغناء هي التخلّق بخلق "الإيثار"؛

فعلى إخواننا في حركة المتطوعين أن يتحلّوا بهذا الخلق، حتى إن عليهم أن لا يكتفوا بالتضحيات الماديّة كالإطعام والسُقيا والتبرع بالراتب، بل وعليهم أن يؤثروا الآخرين بالفيوضات المعنوية؛ أجل، عليهم أن يروا غيرهم أجدر منهم بالمقامات المعنوية، وأليق منهم بالكرامات؛ وعليهم ألّا يتوجَّهوا إلا إلى ربِّهم ويؤثروا رضاه على كل شيء، ويقولوا دائمًا: "حسبُنا الله ونعم الوكيل".

هذا هو روح الإيثار وخلق الاستغناء بمعناه الحقيقيّ، وإننا لَأَحوجُ ما نكون إلى هذا الخلق في أيامنا هذه.

والحاصل أن على هؤلاء أن يُعرضوا عن المكاسب الدنيوية من مقام ومنصب وتقدير وتبجيل وتهليل، بل وعليهم أن يُعرضوا في هذا السبيل عن المقامات الأخروية -من وجه- وألّا يتشوفوا إليها، وأن ينتظروا النعم الأخروية من فضل الله وكرمه وسعة رحمته؛ إذ إنه لا سبيل للحصول على أي قيمة إلا بفضل من الله وإحسانٍ منه ﷻ، فلن يدخل أحدٌ الجنة أو ينجو من النار بنفسه؛ إن ذلك محض فضل وإحسان ورحمة من الله ﷻ، فإن أعرض الإنسانُ عن كل شيء سواه فتح الله له الأبواب جميعها؛ نعم، أَوصِدوا الأبوابَ دون الدنيا تجدوا أن الله ﷻ قد أبدلكم ألف بابٍ بالباب الذي أوصدتموه، لأنه سبحانه بيده مفاتيح كلّ شيء.

أجل، لو أردتم أن تتفتّح أبواب الإحسان والرضا والمدد الرباني فأوصدوا الأبواب دون كلّ الآمال الدنيوية.

لزوم الاستقامة وترك الركون إلى الظَّلَمة

سؤال: يأمر الله تبارك وتعالى في سورة هود بالاستقامة، ثم ينهى عن الركون ولو قِيدَ أنملة إلى الظَّلمة، فما الإشارات التي يمكن أن نستلهمها من هذه الآيات المباركة؟

الجواب: يقول الحقّ تبارك وتعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢).

هذا أمر للمسلمين بالاستقامة موجه إلى شخص رسول الله ﷺ، فلنعدّه موجهًا إلينا أيضًا، وكأنّ الله تعالى يقول: "فاستقيموا أيها المؤمنون كما أُمرتم".

سرُّ توجيه الأمر للمفرد المخاطب ثم النهي للجمع

في هذه الآية تبجيلٌ وتكريمٌ للنبي ﷺ، وكأنّ الله تعالى يُشيد بخُلُقه العظيم ويخاطبه بقوله: **﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾** (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢)؛ وهذا -ولله المثل الأعلى- كما يعجَب الأبُ بحسن أخلاق ولده الصغير واستقامته ويقول له: "ثابِرْ على هذا الدرب ما حييتَ"؛ ومن الخطأ جزمًا أنْ نفهم من الأمرِ التعريضَ بأنَّ سيد السادات صلوات ربي وسلامه عليه قد انحرف عن الجادّة -حاشا وكلّا- فجاءت هذه الآية تأمره بالاستقامة؛ فالآية

لا تدلُّ على هذا المعنى لا منطوقًا ولا مفهومًا؛ فالاستقامة دأبه الدائم ﷺ في أقواله وأفعاله ومشاعره وخواطره؛ فمعنى الآية: "على هذا النهج الحسن دُمْ دائمًا"، وإلى هذا يشير النهي الوارد بصيغة الجمع بعد الأمر بصيغة المفرد: ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، والمتأمل لهذه الآية وأمثالها يجد أنّ القرآن الكريم إذا دعا إلى البرّ خاطب النبي ﷺ مباشرة بصيغة المفرد كقوله ﴿فَاسْتَقِمْ﴾، وأما النهي فيورده بصيغة الجمع كقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾؛ ويُستنبط من هذا أن المقصود بالخِطاب هو الأمة المحمدية، أما سرّ توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ فذاك لأنّ لنا فيه أسوة حسنة.

وللنهي عن الطغيان بعد الأمر بالاستقامة مباشرة مغزًى عميق، وهو أنّ كلّ مَن ينحرف عن الاستقامة ينزلق رويدًا رويدًا في الضلال والطغيان؛ فلزم تحذير أهل دار الابتلاء من الطغيان إبّان دعوتهم إلى لزوم الاستقامة.

حذار حذار من الظلم بأنواعه كافة

أشار السؤال إلى الآية التالية:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٣).

وهذا نهيٌ عن الركون ولو قليلا إلى الذين ظلموا، وتحذير من القعود معهم؛ لأن مَن يركن إلى الظلم ويميل ولو قدر أنملة إلى الظالمين قد يتردّى شيئًا فشيئًا دون وعي في مثل هذا الغيّ، أي سينحرف بشكلٍ ما عن خطّ الاستقامة.

وأفاض القرآن الكريم في حديثه عن الظلم، فذكر ما يكون من الكفرة والمنافقين من ظلم وطغيان، وما يقترفه بعض المسلمين من آثام، يقول

تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٨٢/٦).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَنَزَلَتْ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ١٣/٣١)[٢٢]؛ سَرَّتْ هذه الآية عن المسلمين وأخبرتهم أن المقصود من الظلم المذكور في الآية هو الشرك بالله.

فمن الظلم انتهاك حرمات الله، والاستخفاف بأوامره، وصدّ الناس عن أداء التكاليف الشرعية، والتسبب في الفتنة والفساد، ومثل ذلك تجاهُل الحقّ والحقيقة، والتضييق على المسلمين واستهدافهم حسدًا وغيظًا، والحديث عن الحق والعدل دون السعي إلى إحقاقهما، والاعتداء على حقوق الخلق، واختلاس أموال الناس، واستغلال الرؤساء -أيًّا كانت مناصبهم- للمرؤوسين في مصالحهم الشخصية، ناهيك عن عدِّهم هذا الأمر حقًّا لهم عليهم.

ففي الآية أمر بتجنّب أنواع الظلم كافة، بل نهي عن الميل إلى الذين ظلموا.

ولا يفوتنا أن نذكر نكتة لطيفة في هذا المقام:

الظلم لا يعني الجور والطغيان فحسب، بل مِن الظلم أيضا محاباة أي مسؤول في أي موقع لأقاربه وأنصاره ومن كان على نهجه، وأكل أموال الناس ولو شروى نقير.

ودلت الآية الكريمة أنّ الميل إلى الظالم -أيًّا كان مستوى الميل-

(٢٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٤١.

يوجب النار؛ فدخل في عموم النهي ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ مجالسة الظالمين وتجاهل ظلمهم وغبطتهم وتمني المرء أن لو كان مكانهم؛ كيف والحق تعالى يقول:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/٦٨).

فهذا أمر بالانصراف عن مجالس الظالمين ممن تلوك ألسنتهم بذيءَ الكلام ازدراءً لقيم جديرة بالتبجيل والتقدير.

أجل، بينما الحقّ ﷻ يرشد المسلمين إلى الاستقامة وينهاهم عن الطغيان، حذّرهم من الميل إلى الحيف والظلم.

إنّ مَن اتخذ الاستقامة أساسًا لنيته وحياته وكلامه وتصرفاته وأفعاله سيثور على الظلم والبغي؛ وفي كتاب الله آية تتحدث عن ثواب مَن يتجنبون الظلم بأنواعه كلّها وهم على خطّ الاستقامة ماضون، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٤١/٣٠).

سؤال: لماذا يميل المرء إلى الظالمين؟

الجواب: لعلّ للركون إلى الظلم والذين ظلموا أسبابًا عدّة؛ فقد يتغاضى المرء عن الظلم ويصفقّ للظالمين، والتاريخ شاهد على أناسٍ تعساء صفقوا للظلم واستحسنوا عمل الظالمين خوفًا على مقاماتهم ومناصبهم؛ وسيأتي قوم يكيلون الثناء للظالمين كيلًا حرصًا على مناصبهم

وما فيها من رفاهٍ؛ أجل، إنّ حبّ المنصب جرثومة فتّاكة تُخضِع المرء للظلمة.

ومن أسباب ميل الإنسان إلى الظالمين حبّ التمجيد والمديح، والشغفُ بالرفاهية، والولع برغد العيش، والتعلّق المفرط بالأهل والبنين؛ نعم، لن ينفكّ عن الترحاب بالظالمين أبدًا مَن همّه ذووه وبنوه وأحفاده وذريته، ومنتهى همته قصرٌ في أعالي الجبال أو شواطئ البحار، والتمتع بهذا المكان شتاءً وبذاك صيفًا، وقد يحسب مثلُ هذا أنه على طريق الحقّ ماضٍ وهو يسير على مزلاج سرعان ما ينزلق منه ويخسر حيث تُرجى النجاة.

وما أكثر الأسباب والجراثيم في هذا الصدد! وكلٌّ منها نافذة مفتوحة على الظلم، فمَن واربَ بابًا منها ألفى نفسه في مستنقع الظلم؛ فليباعد المرء بينه وبين الظلم وسبله أميالًا؛ فـ"سدُّ الذرائع" المعروف لدى الأصوليين واجب ههنا، فليُغلِق الإنسانُ بل فليُوصِد منافذ الضعف التي تسوقه إلى الظلم كالخوف وحبّ المنصب والشغف بالتهليل والمديح؛ إذًا علينا أن نتجنّب بدايةً الجراثيم الفتّاكة الباعثة على الميل للظلم والظالمين كما نتصدّى للأمراض فنتقي الجراثيم المعدية بالتَّماس، وهذا هو الطريق الأسلم، وكل سبيل سواه قد يفضي بالإنسان إلى الحيف والظلم من حيث لا يدري، وهذا يعرّضه لمزيد من الحرمان؛ ففي فاصلة الآية الكريمة أنّ من يميلون إلى الظلم ما لهم من دون الله من أولياء ثم لا يُنصرون؛ وذلك لانقطاع صلتهم بربهم ﷻ.

وأريد أن أذكر في النهاية مسألة أخرى: يقول الله تعالى عقب هذه الآية الكريمة التي تنهى عن الركون إلى الذين ظلموا:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٤).

وللأمر في هذه الآية مغزًى عميق: إن التناسب بين هذه الآيات يُظهر أنه طالما استطاع الإنسان أن يتخلى عن الإسلام الصُّوري وأن يقيم الصلاة بأركانها الظاهرة والباطنة، فقد أَمِنَ من الركون إلى الذين ظلموا ومن استحسان أفعالهم.

إنّ الورد مَنبتُه الترابُ

سؤال: يَستعمل اللهُ تعالى أحيانًا بعضَ الناس في أعمال ومناصب متنوعة، ثم إذا بهم يحسبون أنفسهم أفضل وأعلى من غيرهم، فما الأمور اللازمة في موقف كهذا؟

الجواب: على من خلقه الله من ماء مهين أن يجيش قلبه بمشاعر الشكر والمنّة والتواضع والمحو والفناء عندما تهطل عليه نعمُ الله تعالى غَدَقًا، وعليه أن يرى نفسه أدنى من الآخرين أيًّا كانت مكانته، وأن يقولَ كما قال "إمام ألوار":

كلُّ عبدٍ هو قَمْحٌ وَحَسَن

وَوَحْدِي أَنَا التِّبْنُ وَوَحْدِيَ الْقَبِيحُ

وإن شئتم فأطلقوا على هذه الرؤية تواضعًا أو محوًا أو نكرانًا للذات، فالحقيقة أن الوجود كفسيلةٍ تتمدد وتنمو في ثنايا هذه الرؤية.

كان من الممكن أن يسقط نَيزَكٌ

ما أجمل قول الشاعر:

والبذرُ في التُرْب إنْ لم يُدفنا أنَّى يكونُ لفيض ربّك مَظهرا

والمرء إن كان لربّك مُخْبِتا فبرحمة الرحمن فضلًا قد سَما

أي إن البـذرة إن لـم تُدفن في التراب، وتستسـلم للعفـن والفناء فلن تُنبِت السنابل؛ فهي لن تُنبِت إلا إن انسحقت تحت التراب، فصارت ترابًا وفنيت عن ذاتها.

أجـل، لا بدّ أن تفنـى البذرة لتنبعث من العدم وتصبـح خلقًا جديدًا؛ وهكذا فليعدَّ كلُّ امرئ نفسه أيًّا كان موقعه في الحياة الاجتماعية؛ ومَن لم يفكّر إلا في هذا السـبيل فلن يخسـر بمشيئة الله حتى في أشدّ الابتلاءات؛ لأنه وطَّنَ نفسـه علـى هضم النفس، لا يطرب بالانتصارات ولا يستسـلم للتضييق والهجوم والإهانات؛ نعم، إنّ مَن يرى نفسه كالبذرة تحت التراب لا يأبه بمن يسير فوقه، لكن من يرى لنفسه منزلة بأي وجهٍ قد يضيق ذرعًا حتـى مـن أجل أتفه الأمور، ويسـتوحي أمـورًا يقرؤها في نظـرات الناس وإيحاءاتهم وتجهُّم وجوههم بل في ابتساماتهم أيضًا، ويعدّها استخفافًا به وتفريطًا في تقديره تقديرًا يليق به.

أجـل، إنَّ مَـن يضـع نفسَـه فـي منزلةٍ مـا، إن لم يَلْق مـن الآخرين ما يتوقعـه مـن المعاملـة فقد يسـتنبط تأويلات سـلبية من أي شـيء، أمَّا مَن تحصن بحصن المحو وتخلَّق بالتواضـع ووضَـع نفسَـه تحت الأقدام فلن يؤذيه ما يوجَّه إليه من إهانات وتضييق وضغط؛ فهو لا يضيق ذرعًا بذلك بل إنه ليرى نفسه من أهل هذه السلبيّات، ويستغل هذا الموقف لمحاسبة جديدة لنفسـه، فمثلًا لو سـقطت جوزة على رأسه لقال: "كان من الممكن أن يسـقط نَيزَكٌ بسـبب وضعي الحالي"، ويؤمن بأنّ وراء كل حادثة كثيرًا مـن الحِكَـم والمصالـح؛ لأن الله تعالى له في كل شـأن حكمةٌ، ولا يفعل شيئًا عبثًا.

هـذا وقد أصبح للتواضـع والمحو والحيـاء أهميةٌ عظمى في الدعوة إلى الله خاصة في هذا العصر الذي طغت فيه الأنانية.

تأملوا الوردة تجدوها تَنبت في التراب، ولا تنبت في الزمرّد أو المرجان أو الياقوت أو الذهب أو الفضة، رغم القيمة الثمينة لهذه الجواهر التي تُخلق بمشيئة الله في باطن الأرض وقاع البحار، بل إن ورد الورود صلوات ربي وسلامه عليه قد نبت في التراب؛ أجل، إن أمه الطاهرة وأباه وأجداده أيضًا من تراب، فلنكن كالتراب إذا ما شئنا أن نكون منبتًا للورد.

التخلص من الأنانية

إنّ اتباع نهج السنة المطهّرة في علاقتنا بالناس له بالغ الأهمية لئلّا نرى أنفسنا متميزين عن غيرنا، ولتغدو خصلة المحو والتواضع والشعور بها خصلة رئيسة في طبيعتنا الإنسانية؛ فمثلًا يقول مفخرة الإنسانية محمد ﷺ:

"**أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا** (وفي رواية: **مُؤْمِنًا**)"(٢٣).

إذًا مَن رقّت مشاعره واتّسع فكره ووجدانه حتى أحبّ للآخرين ما يحبّ لنفسه فإنه مسلم ومؤمن حقًّا؛ ونقيضه لو أن إنسانًا لم يحبّ لغيره ما أحبّه لنفسه، ويريد لغيره ما لا يريده لنفسه فقد خرج عن البيئة الوقائية للإيمان الحقيقي، ومشى على أرضٍ زَلجة قد ينزلق عنها ويتدحرج في أي آن.

هذا وعلينا في الوقت نفسه أن نحمل أفعال الآخرين بل وحتى تصرفاتهم التي لا نستسيغها على محمل حسن، ونقولَ في أنفسنا: "لعل ثمة مصلحة لا أعرفها بنى عليها هذا الإنسان تصرفه، ولعل لديه فكرة انطلق منها ولم أستطع أن أدركها، ورُبَّ حكمة دعته للقيام بهذا التصرف الذي لا يروق لي"؛ أي علينا أن نُحسن الظن بتصرفات الناس ما استطعنا، تلك التصرفات التي تبدو خاطئة في الظاهر، إلا أنّها تحتمل تأويلًا

(٢٣) سنن الترمذي، الزهد، ٢.

معقولًا، وقابلة للتفسير والتأويل؛ وهذه النظرة تجنّبنا سوء الظن بالناس وتحملنا على حسن الظن بهم؛ هذا فضلًا عن أنها تحفظنا من أن تتحكم أنانيتنا في كلّ شيء.

عندما يغدو التواضع فطرة

لن تغدوَ هذه الخصال أمورًا فطرية إلا إذا أدركنا أنّا بحاجة إلى إعادة تأهيل حسّاسة، فلنلجأ أولًا إلى اسم الله "الرب" لنقضي حياتنا في كنفه ورعايته، وليكن لدينا عزم وإقدام على أن نصبح ممّن يشملهم سبحانه وتعالى بتربيته ورعايته، بل علينا أن نحاسب أنفسنا كل يوم عدة مرات لنرى أين نحن من مبادئ الدين.

وهذه المسألة تقتضي المداومة والثبات، يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

"أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ"(٢٤).

ومعلوم أنّ تتابع قطرات الماء يؤثر حتى في الصخر ويثقبه؛ أجل، ليست قوة الماء هي التي تؤثر في الصخر بل ديمومة القطرات، فالمواظبة على إعادة التأهيل والتربية وحضور مجالس ذكر الله ﷻ من أهم ما ينبغي أن نراعيه في هذه المسألة.

ومن قبلُ كانت التكايا والمدارس تشمل كلّ الحياة، فقامتا بهذه المهمة معًا في تساند وتعاضد في فترة ما، وكان روّادهما الذين أسلموا أنفسهم إليهما يبلغون مستوى الإنسانية الحقّة بالمجاهدة وتربية النفس وتطوير قابلياتهم العقلية والقلبية والروحية.

(٢٤) صحيح البخاري، الرقاق، ١٨؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٨.

أجل، إن هذه الأماكن المباركة كانت تهدي روادها إلى سبل السير في آفاق القلب والروح والسرّ، بله فتح العقول لتعلّم المسائل العلمية؛ نعم، لو دُرسَت هذه المسائل في دائرة العقل فحسب لقبعت في قوالب ضيقة من مفاهيم العقليين والمعتزلة، وقد يتعذر القول بأن من ساروا اليوم على هذا الخط -رغم سعة الإمكانيات- قد جرّوا أي نفع للناس، أما من يناجون قلوبَ الناس حقًّا فأولئك هم الذين يواصلون معراجهم في أفق القلب والروح.

بكاء القلوب الحزينة

سؤال: يُقال: قد يتغمد الله تعالى العالَم كله برحمته ببكاء قلبٍ حزين؛ فلِمَ لا تشعر قلوبنا بما ينبغي أن تشعر به من همٍّ وحزن؟

الجـواب: الإنسـان هـو مصدر كل مشـكلة يمر بها الفرد أو الأسـرة أو المجتمـع مـن لدن آدم عليه السلام إلـى يومنا هذا؛ وهو أيضًا عنصر أسـاس في الأزمات والفتن والظلم والفوضى اليوم، ولما كان الإنسان مصدر كل مشـكلة فلا يمكن حل المشـكلات إلا بإعادة صياغة الإنسـان من جديد بأسـلوبٍ مِـدادُه الوحـي والوجدان، فـإن لم نفعل ذلك تعـذر منـع البغي والضلال والسفه والبؤس على وجه البسيطة.

أن يدرك الإنسان أنه في قاع البئر

يُعَـدُّ إهمـالُ الإنسـان أعظمَ مشـكلات البشـرية اليـوم، لكن مَـن منَّا يا تُرى يشـعر بهذه المشـكلة في أعماقه ويغتّم لها ويتكدّر؟ إننا بكلّ أسفٍ لا نستطيـع أن ندرك حجم هذا السفه والبؤس ومقدارهما، وذاك السقوط والانحـراف الـذي يخـرّب كل البسـيطة؛ لأن معظمنـا يعيش الجو نفسـه والبيئة عينها.

وإليكم مثالًا يبين المراد: أقمتُ مدة في المدينة ثم زرتُ أخوالي في القرية، وما إن دلَفت إلى الباب حتى شممت رائحة الروث المحروق، فقلتُ: ما أخبثها من رائحة! فأخذ أحفادُ خالي يضحكون؛ لأنني أقمت في طفولتي ما يقرب من شهر في هذا البيت، ولم أشعر فيه إذ ذاك بأيِّ ضيق أو إزعاج.

وجاء في كتاب المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي أنَّ رجلًا عمِلَ عند دبّاغٍ، فألِفَ رائحةَ الجلود المستقذرة واعتادها، فلما زار سوق العطارين وتنسّم الروائح الزكية سقط مغشيًّا عليه.

يصف مولانا جلال الدين الرومي بهذه الحادثة حال الطبائع الفاسدة؛ أجل، أصبحنا نرى مناظر تُخجِل الإنسانَ من إنسانيته ولا نشعر بأي خجل أو ألم، ويكأننا نرى كل السلبيات من الأمور العادية؛ وما ذلك إلا لأننا نشأنا في هذه البيئة وألفناها وانسجمنا معها، كما قال الشاعر:

إذا ما شبعتُ حسبتُ الناس شَبْعَى

وذو عَوَزٍ يخالُ الكونَ قَفْرًا

فإذا لم نشعر بالآلام ونحس بها فإن قلوبنا لن تنكرها ولن تبحث عن سبل الخلاص منها؛ لأن الإنسان يصطبغ بظروفه وبيئته، فتتأثر حواسه جميعًا بتلك الصبغة، بل تؤثِّر على دماغه أيضًا؛ فيكون إحساسه بكلّ شيء وتقييمه له مرهونًا بحالته هذه، وليس بمقدوره الخروج عنها قِيْد شعرة، فيتعذر عليه أن يُدْرِك أن هناك مقامًا ربّانيًّا قد تخلّف عنه وكان عليه أن يَبْلُغَهُ، ويظنّ أنه يَجُولُ في مناخٍ مفعم بالفرح والسرور والحالُ أنه في قاع البئر؛ لذا لا يحاول أن يخرج منها.

أجل، إنَّ الإنسان بمقتضَى فطرته يتآلف مع بيئته بعد مدة معينة؛ فلو أن إنسانًا عاش في مكانٍ صاخب فلا ريب أن أذنه ستألف هذه الأصوات بعد مدة؛ ثم يتعذر عليها أن تشعر بذبذبات كان ينبغي أن تسمعها؛ وعلى هذه الشاكلة نحن، فمنذ أن تفتحت عيوننا على الدنيا كنا نرى أناسًا يلهثون وراء لذّاتهم ومتعهم ولا يكترثون لشيء وهم سعداء بذلك؛ ولذا لم نستطع ألبتة أن ندرك حالنا البائس المؤسِف.

إن الهمّ مصدرٌ مهم للإلهام؛ فهو يوحي للإنسان بكثير من الطرق والسبل المتنوعة للخلاص من الحال الخانق الذي يعيشه، فمثلًا لو سقط إنسان في بئرٍ، وأدرك أنه في القاع، فاغتمّ وتكدر لذلك، وبحث عن مخرج من هذه البئر، فسيجد بفضل الله وعنايته مخرجًا، وسيخرج؛ حتى وإن لم تكن في يده مجرفة أو معول فسيتخذ من يديه مخلبًا ليحاول الخروج، ويظل يكابد ويقاسي حتى يشقّ تجويفين في ناحيتي البئر يضع عليهما قدميه، فإذا استقلّ على قدميه شقّ تجويفين آخرين؛ وبمثل هذا السعي والتخطيط سينجح ويخرج من قاع البئر؛ لكن مَن لا يُدرك أنه في القاع، ويرضى عن حاله، فلا شك أنه لن يسعى إلى الخلاص مما هو فيه ألبتة.

حالة الاستضعاف تستنزل الرحمات

ولو أنَّ الإنسان استشعر الهمَّ والقلق تُجَاه التردي والانحراف الذي يعيشه وتوجَّهَ كليةً إلى ربّه ﷻ لتجلّى له -كما قال الأستاذ النورسي رحمه الله في كتابه "اللمعات"- سرُّ الأحدية من خلال نور التوحيد الخالص إذا ما انقطعت الأسباب بالكلية.

ومعلوم أن سيدنا يونس بن متى عليه السلام لما ابتعله الحوت اجتمعت عليه ظلمةُ بطن الحوت وظلمةُ أعماق البحار وظلمةُ الليل الحالك، فتوالت

عليه الظلمات وأحاطت به من كلّ مكان، فتضرع هذا النبي الكريم إلى ربه ﷻ قائلًا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)، فاستمطر بذلك الرحمة الإلهية، ونجا من بطن الحوت؛ رغم أنّه كان يكابد ظلماتٍ ثلاثًا بعضُها فوق بعض؛ يقول إبراهيم حقي[٢٥] ﷺ في هذا المقام:

تَرى كلَّ حجاب ينكشف بغتةً إذا تَقَطَّعت بك السبل

ولكلِّ آلامنا لدى المولى دواء أفعالَه فلْنرتقب فما أجمل كل ما فَعَل

والآن انظروا إلى حالنا البائس اليوم، وقولوا لي بربكم: ألسنا في حالة أشدّ من تلك التي كان عليها سيدنا يونس بن متى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عندما كان في بطن الحوت؟

يصف الأستاذ النورسي هذه الحالة فيقول: "إن نفسنا هي حوتنا"، أي إن أنفسنا هي التي تبتلعنا اليوم، فها نحن نلهث وراء الدنيا وأصبحنا أسرى لهوى النفس، والأنكى من ذلك أننا لا نعي أنَّا قد تردينا إلى تلك الحالة؛ لذا نبدو كأننا بلا حسّ ولا قلب ولا ضمير تُجاه ما يقع في مختلف أرجاء العالم اليوم من ظلم وجور وبغي؛ فلا بدّ إذًا أن نسأل أنفسنا: "أين كنّا، وأين أصبحنا؟"، ثم نحاول أن نعقد صلة بين عصرنا وعصر السعادة، فنقارن بين هذين العهدين؛ بل ينبغي أن تمتد أنظارنا إلى عصر الأيوبيين والزنكيين والسلاجقة والعثمانيين، تلك العصور التي اقتبست نورها من عصر السعادة، لنتعرف على أصحاب هذه العصور الأقوياء ذوي الإرادة والعزيمة أمثال: صلاح الدين الأيوبي، ونور الدين زنكي، وآلب أرسلان، والملك شاه، وقليج أرسلان، والسلطان محمد الفاتح، ثم نفكر كيف ردّ

(٢٥) **إبراهيم حقي** (؟ – ١١٩٤هـ/١٧٨٠م): عالمٌ تركي جليل وزاهدٌ متصوف، عاش في القرن الثاني عشر الهجري، له عدة مؤلفات أشهرها "مَعْرِفَتْنَامَه".

وقاوم هؤلاء عدوانَ هذا العالم الوحشي عديم الرحمة، وما الوصفات التي وضعوها لمشكلات كادت عقولهم تنفجر من كثرة التفكير فيها؟

أجل، علينا أن نقارن بين عصرنا وهذه العصور الزاهرة لنتأمل حجم حالتنا البائسة وشناعتها؛ وأظنُّ أن تفكيرًا كهذا سيقودنا إلى طرْق باب رحمة الله ﷻ حتى نستشعر الألم ونجد الدواء، ويدلنا ﷻ على سبل النجاة والخروج من حالة الشؤم هذه؛ أما من رأى هذه الحالة الشنيعة أمرًا مألوفًا فلا سبيل له للوصول إلى سبلٍ بديلة أو طرق جديدة للخلاص.

بذور الهموم التي تنتشر في القلوب

لا يمكن للإنسان أن يكون محمَّلًا بالهموم والمكابدة إلا بعد أن يتعرفَ العصورَ الذهبية التي كان يُطبَّق فيها الإسلام على أحسنِ وجهٍ، ويُدركَ ما مُنِيَ به المسلمون اليومَ من ذُلٍّ ومسكنة.

وفي مثل هذا المشهد يُعرِب الأستاذ النورسي عن همّه وقلقه بما معناه: "ليس عندي وقت أضيّعه في التفكير فيما يعرِض لي من تعب ومشاق؛ ليته حلّ بي ألف ضِعف من هذا العناء ويسلمَ مستقبلُ قلعة الإيمان"؛ وذكر ﷺ أنه راضٍ بالتقلّب ولو في نار جهنم إذا ما كان إيمان الأمة في أمن وسلام؛ وهذه المبادئ هي من مقتضى كونك إنسانًا حقًّا؛ فلو أنَّك إنسانٌ حقًّا ورأيت البشرية تسلك طريقًا إلى جهنم، فلا بدّ أن تصيبك الرعشة والرِّعدة أمام هذا المشهد؛ والحقيقة أنّه قد لا يستشعر كل الناس هذه المسائل بهذا القدر من سموّ الضمير.

وقد لا يكون من المناسب أن يتعرف الجميع على كل مشكلة وكل قضية؛ لأن منهم من لا يتحمل فيروس نزلة برد خفيفة ويموت به، أما ذوو الجهاز المناعي القويّ فإنهم إذا ما هاجمتهم الجراثيم نفسها لم يهتزوا لها

إلا لِمامًا، وليس لكل من يسعى في الخدمة الإيمانية والقرآنية جهاز مناعةٍ على نفس المستوى؛ لذا فلو أنكم حدثتموهم عن الآلام والمشكلات كلها فلربما حطّم ذلك قواهم المعنوية؛ أجل، قد يقع هؤلاء في اليأس والقنوط إذا حدثتموهم عن شيء من المشكلات الخطيرة.

دعوني أَبوح لكم بمشاعري: لو أن آبائي وأجدادي أحياء وماتوا فجأة معًا، فوالله إن ألمي من أجلهم لا يبلغ ما أشعر به في نصف يوم من همّ وألم من أجل مستقبل الإسلام؛ حتى إنني أخرج أحيانًا من غرفتي ليلًا وقد قصم ظهري القلق والهم، فأغدو وأروح في الممرات كالمجنون، ورغم هذا أتحاشى في أحاديثي ذِكر ذوي المقاصد الخبيثة ممن يكيدون ويسعون بالدسائس والمؤامرات وغدَوا كالبعبع يخوَّف الناس بهم في كل مكان؛ لأن مثل هذا الأمر قد يوقع الناس في اليأس ويضعف عزيمتهم؛ لذا أحاول أن أُخفيَ عن الناس ما بي من غمٍّ وكدرٍ، وهمومٍ وأحزانٍ.

ولو أني أعلم أنهم قادرون على تحمّل الآلام والمشكلات لأوقدتُ الجمرات ونثرتُ بذور الهموم في قلوب كل مَن تبلغهم كلماتي ليتألموا بآلام البشرية، فيجافي النوم عيونهم ويأخذوا في التجوال هنا وهناك كالمجانين حتى يجدوا الدواء الناجع؛ وقد قيل: "لا يكمل إيمان أحدكم حتى يقال إنه لمجنون"؛ أي إنه لا بدّ عندما ينظر الآخرون إلى حالكم أن يقولوا: لماذا يُشغَل هؤلاء بهذه الأعمال وكان بوسعهم أن ينعموا بكل ما في هذه الدنيا الفاتنة من بساتين وحدائق وزهور مونقة وجو ماتع بديع؛ إن مثل هذا الجنون لهو -كما يقول يونس أمره[٢٦]- تعبيرٌ عن بذل العبد كلّ ما يملكه في سبيل الله.

(٢٦) **يونس أَمْرَه** (؟ – ٧٢٠هـ/١٣٢٠م): شاعر تركي شعبي وزاهد وصوفي، ترك أثرًا كبيرًا في الأدب التركي منذ وقته إلى عصرنا هذا.

وهـل يصـح أن نقـول: إن من لم يكن هكذا فقد خاب وخسـر؟ معاذ الله، فقد أخبرنا صاحب الشريعة ﷺ أن "**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّـةَ**"(٢٧)؛ فليـس أحد منّا نائبًا عامًّا، وليس لأحـد أن يصادر على دخول أحـد الجنة، فهذه مسـألة أخـرى، أما ما نحن بصدده فهو مسـألة احتضان البشرية بأسلوبٍ نبوي، والاغتمام والتكدر من أجل ما تعانيه الإنسانية من مشكلات والتفكير في إيجاد الحلول لها.

(٢٧) صحيح البخاري، العلم، ٤٩؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٥٢.

الاتزان والاعتدال

سـؤال: عصرنا هذا فيه انحرافات فكرية خطيرة في كل سـاحات الحياة تقريبًا، وتقع فيها ألوان من المغالاة، فما الذي ينبغي مراعاته حتى لا يقع منا إفراط أو تفريط في هذا الصدد؟

الجـواب: إن الاتزان والحفاظ على الاعتدال أمر مهم للغاية لنتمكن مـن أن نجعل الدين حياةً لحياتنـا، ونطبقه كما يريد الله؛ ذلك أن الانزلاق إلى الإفراط أو التفريط إنما يكون حين يُفتقد الاتزان، وعندئذ تتكون دائرة فاسـدة؛ إذ إن الإفراط يولّد التفريـط، والتفريط يولّد الإفراط؛ والواقـع أن السبيل إلى السلامة من الإفراط والتفريط هو اتباع سنة مفخرة الإنسانية ﷺ الهادي إلى الصراط المستقيم، فهو من كان يوصي أمّته دائمًا بالاعتدال.

الصراط المستقيم

يُعرَّف الصراطُ المسـتقيم في منظومة الفكر الإسلامي بأنه اعتدالُ كلٍّ مـن "القـوة الشـهوية"، و"القوة الغضبيـة"، و"القوة العقليـة"، فاعتدال هذه القوى جميعًا يعبّر عنه بـ"الصراط المسـتقيم"؛ وثمة أمور أخرى كثيرة مثل المنافسـة والتنافـس والنيـة والنظر وغيرهـا يمكن وزنها بهـذا الميزان، أو فلنقـل: إنّ لـكلّ ما جُبل عليه الإنسـان من طباع -حسـنة كانت أم سـيئة- صراطًا مستقيمًا.

مثال ذلك "النظر"، ومعناه قراءة الأشياء والحوادث وتقييمها، فالناظر المتفائل يمثل الإفراط، والمتشائم يمثل التفريط، أمّا الناظر إلى حقيقة الأمور فهو وسط بينهما؛ ومعلومٌ أن المتفائل هو من يتغاضى عن الشرور والشناعات ويتناول كل شيء من منظور حسن جميل فحسب، أما المتشائم فهو من يرى كل شيء سيِّئًا حالكَ السواد، وأما الناظر إلى الحقيقة أو الناظر بالهُدى فإنه يسعى ويجهد كي يرى كل شيء على حقيقته؛ والواقع أن "مَنْ حسُنت رؤيتُه حَسُنتْ رويّتُه وجمُل فكرُه؛ ومن جمُل فكرُه تمتَّع بالحياة وعاش حياة طيبة" كما ذكر الأستاذ بديع الزمان في "نوى الحقائق".

هذا ويلزم -حتى في الأشياء المستقبحة- العناية بالأفكار الطيبة، والتقييمات الجميلة طالما أمكن التأويل، لكن هذا لا يعني تجاهل الواقع، والعيش في عالم الخيال والأحلام؛ إذًا ما ينبغي فعله هو رؤية كل شيء كما هو دون هروب من الحقائق ولا تجاهلٍ لها، ودون الوقوع في تشاؤم أو يأس، وهذا هو الاتزان في "النظر".

والواقع أنّ النفس المستقرّة في ماهية الإنسان، التي تبدو كأنها شرٌّ في الظاهر تصبح خيرًا له إن استقام على الصراط المستقيم؛ بل إن الشيطان الذي يُضِلّ الناس ويفتنهم بوسوسته وتزيينه، إن وَعَيْنا الحكمة من خلقه فربما يكون ذلك دافعًا للمرء لأن يتوجه إلى الحق تعالى دائمًا ويلجأَ إليه؛ أمَّا إذا ما نُظر إليه -والعياذ بالله- كأنه قوة مستقلة، فمعنى ذلك أنه قد نُسبت إليه قوة وسلطة وهْمية كتلك التي يتوهّمها قومٌ في النور والظلمة -وهذا هو الضلال-؛ فهم يدّعون أن كلًّا منهما مصدرُ قوة قائم بذاته، وأنّ النور لا ضرر منه، وأنه يتعين إسعاد من يمثلون الظلام؛ فهم من أجل إثبات هذا الفهم المعوجّ يحملون أوزارًا لا يبلغها عقل ولا خيال؛ وقد عمَد

عبدة الشيطان أبناء الفلسفة نفسها إلى استرضاء الشيطان ليتقوا شرّه كما يزعمون؛ نعم، من الإفراط أن ننسب لمخلوقٍ عاجزٍ -لا سلاح له ولا سلطان علينا إلا الوسوسة والتزيين- قوى وقدرات لا تكون إلا للخالق، ومن التفريط أن نتغافل عن همزه ولمزه، ونستهين بوسوسته وتزيينه، بل إن في هذا تجاهلًا لهدي الكتاب والسنة وإعراضًا عنهما؛ وذلك أنَّ الشيطان عدوّ مبين للإنسان، فإن ظل الإنسان غافلًا ولم يُعطِ إرادَته حقَّها فقد يخسر سعادته الأبدية على يد ذلك المخلوق الغدّار المكّار.

ضحايا النجاح

كما أنَّ التوازن مهمٌّ للغاية في توقّي ما هو شرّ مُهلك هو مهمٌّ كذلك في توخّي الحذر إزاء ما يُساق إليك من خيرٍ، أي كما ينبغي التوازن في استغلال المشاعر الجانحة إلى الشر وتوجيهها نحو طريق الخير، ينبغي أيضًا لزومُ الصراط المستقيم وتجنب الإفراط والتفريط في أعمال البدن والروح في الإيمان والعبادة والأخلاق؛ فمثلًا لا بدّ للمرء أن يتحرّى الدقة والكمال في كلّ ما يقوم به من عبادات وأعمال من صلاة وزكاة وصوم ودعاء وكذا التفكّر والذكر والتدبّر؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه الحكيم: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة التَّوْبة: ١٠٥/٩)، فهذا أمرٌ بأداءِ الأعمال على الوجه الأكمل أداءَ من يعلم أن أعماله معروضة بين يدي الله ورسوله والمؤمنين أرباب البصيرة.

والخلاصة أن على المرء وهو يؤدّي أي عبادة أن يكون شغله الشاغل "يا ترى! هل أدّيتها كما ينبغي؟"، وأن يسعى دائمًا إلى الكمال، وينبغي أن لا ينسب النتيجةَ إلى نفسه أبدًا ولو أدّى عباداتِه على أكمل وجه، وألا يغترّ ويسيء الأدب بين يدي ربّه بأن ينسب الفوز والنجاح إلى نفسه؛ لأن الله تعالى هو خالق النتيجة.

وهكـذا فـإن كان من التفريـط التقصيرُ في أداء العبـادات والتكاليف، وأداؤها في غفلة وفتور بلا عناية أو اهتمام؛ فمن الإفراط اغترارُ المرء بما بذله من جهد فيما قام به، وتجاهُلُه لتوفيق الله له بنسبته النتيجة إلى نفسه، فهو بذلك يسـيء الأدبَ بين يدي الله تعالى؛ فُيرجف إيمانه ويُودي بنفسـه في أودية الشـرك والنفاق؛ فهو وإن بذل بادئ الأمر جهدًا عظيمًا وتحرى الدقّة والكمال في عمله، إلا أنه اسـتغلّ في النهاية ما حققه من نجاح في الشهرة والسّمعة.

وحقيـقٌ بمـن نجـح وتفـوَّق في عمـل عمله في سـبيل الله أن يتّسـم بالتواضـع والمحو والحياء، وأن يردّد كما يقول محمد لطفي أفندي:

هُوَ أَمْرٌ فَوْقَ حَدِّي وَأَنَا عَبْـدٌ ضَعِيفٌ لَسْتُ أَهْلًا للكَرَمْ!
فَلِمَاذَا كُلُّ هَذَا اللُّطْفِ وَالإِحْسَانِ؟

أجـل، على الإنسـان أن يؤدي ما يقوم بـه على أكمل وجه، وأن يحقّر نفسـه ويذلّها كما يضرب الدبّاغ الجلد بالأرض يهذّبه ويحسّنه؛ وعليه ألا ينسـى أبدًا أن ما أحرزه من فوز ونجاح قد يكون ابتلاءً واسـتدراجًا، وأن يخشى دائمًا الضلالَ والهلاكَ.

انظـروا، لقـد ظهر مَن يدّعي النبوة أمثال الأسـود العَنْسِـيّ ومسـيلمة الكذاب في عصر أضاء فيه النور الحقيقي كلَّ مكان، وأفَلَت دونه الشموسُ والأقمـار، فهـؤلاء البؤسـاء كانـوا ضحايا لقـدرات ومهارات اكتشـفوها في أنفسهم، فانسحقوا وهلكوا تحت براثن الكبر والأنانية.

دعاوى المهديّة في عصر الأنانية

لا جـرم أن هـذا الضرب مـن الزيـغ والضلال لا يختـص بعصر دون آخر، فقد وقـع على شاكلتها كثيرٌ في كلّ عصر ومصر؛ وفي عصرنا أناس

مفوَّهـون إلـى حـدٍّ ما، تراهم يدبّجون شـيئًا في سـطر أو سـطرين، وربما قطعوا مسـافةً يسيرةً في المجاهدة، ثم إذا بهم يضيّعون التوازن ويحاولون أن يجعلوا من أنفسـهم قِبْلة وبوصلـة، ويقومون ويقعدون بـ"الأنا" و"حبّ الذات"؛ ولما رأوا السُّذَّج من الناس يتحلّقون حولهم رغم ضآلة ما قاموا به ظنوا أنفسهم أقمارًا تهدي السالكين، وكأنّ هذا هو السبب في كثرة من يدّعـون المهديـة في زماننا، أعرف منهم خمسـة أو سـتة في تركيا، ومنهم ثلاثة أرادوا أن يلتقوا بي.

جاءني منذ فترة يسـيرة شـابٌّ في الثانية والعشـرين من العمر، وقال: "أسـتاذي، كنتُ أحسب نفسي حُسينيًّا فقط، ثم ثبت بالدراسة والتمحيص الدقيق أنني حَسَنِيٌّ أيضًا"؛ فتحدثتُ إليه عن المحو والتواضـع، وأنّ التكبّرُ وحـبّ الظهـور أمارة الصِّغار، أمـا العظام فأمارتهم الانحنـاء تواضعًا كما العصا.

وبعدما ذكرتُ له ما ذكرتُ انصرفَ وأنا أحسب أنه قد اقتنـع، لكنه لما خرج قال: "حسنًا يا أستاذي، لكن ماذا عسى المرء أن يفعل إن كان مكلَّفًا لا خيار له في هذا الأمر؟".

ليس هناك مقام سـوى النبوة يجب على صاحبه إعلانُه والإبلاغ عنه، حتى وإن كان هذا الشـخص أبا حنيفة أو الشافعيَّ فليس من وظائفه إبلاغ الناس عن كونه أبا حنيفة أو الشـافعيَّ، والمهديةُ كذلك؛ لكن يتعذر إقناع من حبسـوا عقولهم في تصوّرٍ كهذا؛ نسـأل الله أن يهدي كل مغرور أنانيّ إلى الصراط المستقيم.

وأذكِّـرُ أخيـرًا إلـى احتمـال وجود مثل هـؤلاء المدَّعيـن ضمن دائرة صالحـة مركزُها المحو والتواضـع والإخـلاص ونكران الذات، وإقناعُهم

أصعب لأنهم يشتقون أنانيتهم الذاتية من أنانية الجماعة، فيقول أحدهم: "كنتُ إلى الآن تلميذًا، وكان لفلان ألف من الملائكة والأرواح، ثم إن تسعمائة منهم فارقوه وأتوني".

وهناك أمثلة كثيرة مختلفة في كل عصر على مثل هؤلاء الذين قد يتعرضون للإغواء والخداع، ويصبحون أسرى للنفس والشيطان.

فلا يغيبنَّ عن خَلَدِ أحدكم أن انتشار الأشواك حتى في وقت نبات البذور وازديان البساتين بالورود أمر محتمل، فالحذر واليقظة والبصيرة وإن كنت تسير في بستانٍ كهذا.

أجل، ظهورُ الضالّين المُضِلّين وارد في كلّ وقت، فيتبعهم السذّجُ من الناس؛ وكما تنمو الأشواك مع الورود فقد يصخب العقعق عندما تغرّد البلابل، وربما تعجب العقعقةُ أناسًا لم يسمعوا شدو البلبل الرائع ولم تألفه آذانهم.

إنّ سدّ الباب لئلا ينخدع أحد بادعاءات هؤلاء يقتضي أن نتحرك بحذر ويقظة دائمة، وأن ننظر إلى الحوادث ونرصدها ألف ألف مرة بفِراسةٍ كتلك التي عند سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ.

المبالغة في المدح وأضرارُها

سـؤال: قد يقوم إنسـانٌ بعملٍ خَيِّرٍ يسـتحق عليه التبجيـل والتقدير، فنتوجَّـه إليه بكل الاحترام والتقدير لعل ذلك يحضّه ويشـجعه على المزيد، لكـن ذلك قد يدفعه إلى الغرور والفخر؛ فـما الأمور التي لا بدّ من مراعاتها في هذا الصدد؟

الجـواب: قـد يتخلـل الثنـاءَ والتقديرَ والتبجيـلَ على النجاح شـيءٌ مـن المغـالاة وتفريطٌ فـي التوازن والاعتدال؛ ومن السـنن الإلهية: أنّ مَن يُطْرِ شـخصًا يعاقب بخلاف مقصده وغايته؛ حتى إنك إن بالغتَ في مدح شـخصٍ حُبُّـه واجـبٌ عليك وحـقٌّ له، فقد تُعرِّض نفسـك لمـا ينزله بك القدرُ الإلهي من عقاب؛ فهذا سلوكٌ يبغضه الله، فكُن متوازنًا في الحديث عـن حبّـك وإعجابك بمَـن تحب وتعجب لئلا تقـع فـي المغالاة بمدحه؛ فمـن أطـرَى امـرأً فأفرط وادعى أنـه يطير فـي الهواء ويمشـي على الماء ويطـوي الزمان والمكان، فقـد يقول الله له: "ليس عبدي هذا كما زعمتَ، فقد رفعتَه فوق قدره"، فيعاقبك سبحانه وتعالى بما يخالف مقصودك.

وهكذا جعلتَ الممدوح هدفًا للحُسّاد

من سلبيات الإطراء أنك حين ترفـع امرأً إلى عنان السماء تثير حفيظة الآخريـن عليـه، فيدفعهم هذا إلى محاولة الحطِّ من قدره؛ فأنت من أنشـأ جبهـاتٍ معادية لمـن كنت تُغدق عليه المدح والثنـاء، فحذار من الإفراط

فـي الحديـث عمّـن تحب، واعلم أن إطـراءك له أمام الآخريـن يثير فيهم الحسد والغيرة.

مثلًا قد يحب امرؤٌ عالمًا جليلًا لأنّه عرَّفه حقيقة الإسـلام والإيمان، ويتأثـر كثيـرًا عند ذكره، ويجيش قلبه جيشـانًا بمشـاعر المنّة والشـكر له، وينطلـق لسـانه قائلًا: "ما أكثـرَ الحقائقَ التي تعلّمْناها منك، واتّسَـعَتْ بها آفاقنـا! فبـك عرفنـا مفخـرة الإنسـانية محمدًا ﷺ حـقَّ المعرفـة!"؛ ولكن لا ينبغي ألبتة أن تسوقه هذه المشاعر إلى المغالاة في مدحه كوصفه بالنبيّ والرسول، أو الدخول في مغالطاتٍ كرفعه إلى مقامات ومراتب لم تخطر قـطّ ببـال هذا الرجل العظيم ولم تـرد على خاطره مطلقًا؛ ثم إنّ نعت هذا الشـخص المبارك بهذه الصفات والدرجات السـامية بين يدي أتباع رجل عظيـم آخر قد يثير لديهم مشـاعر الغيرة والحسـد، فيصـدر عنهم ردّ فعل سلبي تجاهكم وتجاه مَن تحبّون وتوقّرون.

على المرء أن يكون يقِظًا حذرًا حتّى عند حديثه عن مفخرة الإنسانية محمـد ﷺ -بأبـي هـو وأمّـي-؛ نعـم، هو سـفينة نجاتنا وسـبيل سـعادتنا فـي الدارين، وهو من أزال الغشـاوة عن وجه الوجود، وكشَـف الأسـرار المكنونـة فـي روح الأشـياء، وجعل من هـذا العالم الغـارق في الفوضى والاضطـراب جسـرًا إلـى جنّاتِ النعيـم، وها نحن في جوّ إيماني سـاحر نتنسّـم بفضله هو عَبَقَ السـكينة والطمأنينة على حسـب عُمْقِ إيماننا، لكن كله لا يسوّغ أن نسند إليه -معاذ الله- صفةً من صفات الألوهية ألبتة.

الحمد لله وحده

أمّـا مسـألة تبجيـل الذات الإلهيـة وتعظيمهـا فقل فيها ما تشـاء؛ لأنه لمـا اسـتحال أن يكـون لله تعالـى شـريكٌ أي لا ضـدّ له ولا نـدّ، لم يكن لأحدٍ أن يقول: "لِمَ تمدح سيدَك فحسب"؛ فسيدُك هو هو سيده، وهو هو

سـيد السـادات، وهو هو سيّدُ سـيّدِ البشر ﷺ، يقول ﷺ: "**السَّـيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**"(٢٨)، فهو سـيّد العالمين، فامدحـوه وعظِّموه ما بدا لكم؛ بل كونوا أمام شـمس الشـموس كيَراعة خَبَا نُورها بطلوع الشـمس، وإلا استحالت معرفتـه حـقّ المعرفة؛ لأن رؤيته ومعرفته بعظمتـه وجلاله رهن بأن يدرك الانسانُ أنه عدمٌ، وما أحسنَ قول من قال:

أنى تتجلى لعبدٍ يقول ها أنا ذا

فلن أراك ظاهرًا حتى أكون غائبا

لا يمكـن أن يُعرَض شـيئان معًا على سـتارة واحدة، فـلا بدّ أن تغدو عَدَمًا حتى يتأتّى إدراكُكَ للموجود الحق وشهودُه ومعرفتُه.

علـى الإنسـان أن يقـرّ بأن وجوده مـا هو إلا ظلٌّ حتـى يرى الأصل؛ وثمّة كثير من عباد الله كالأنبياء العظام والأصفياء الفِخام والأولياء الكرام اجتهـدوا وسـعوا ليتحقق فيهـم هذا المعنى، أما نحن فَوَراءهم، بل شـتان شـتان... ومَن يدري فلعلّ مَن يُظِلُّهم الله في ظِلّه يومَ القيامة هم من كانوا في الدنيا كالظلال، فيقول الله لهم: "كنتم كالظلّ في الدنيا، فتعالوا أُظِلّكم في ظلّي يومَ لا ظلّ إلا ظِلّي".

أجـل، لنـا أن نقـول مثـل هذا في الله ﷻ، أما من سـواه تعالـى فلنَلزم الدقة والحذر في تقديرنا وتبجيلنا لهم، فالحقّ أنه ما من حمدٍ أو ثناءٍ على المخلـوق إلا وهـو حـقٌّ له ﷻ؛ فمِمّـن صدر ما تدبّجـه الكلمات من ثناء ولِمَن وكيف ومتى وأيًّا كانت الظروف فهو حقّ خالصٌ لله تعالى.

أليـس في قراءتنا للآية الكريمة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ نحو أربعين مـرّة في اليـوم تعبير عن هذا المعنى؟ ولما كانت الـلامُ في كلمة "الحمد"

(٢٨) سنن أبي داود، الأدب، ٩.

للاستغراق دلّ أن كلّ حمدٍ من أيّ حامد لأي محمود هو حمدٌ لله تعالى؛ فكلّ حمدٍ وثناءٍ على من نحبّ إنّما هو في الواقع لله تعالى الذي خَلقَنا نحن ومَن نحبّ.

ظَلومٌ أشبَهَ المظلومَ

والخلاصة أن علينا أن نكون على وعي وحذر بالغ في حديثنا حتى عن شخصيات عظيمة أهلٍ للتبجيل والتعظيم، وأن نتجنبَ الحديثَ عن معتقدنا وآرائنا فيهم أمام أناسٍ قد يصدر عنهم ردّ فعل لا تُحمد عقباه؛ لأن في استثارة مشاعر الحسد والغيرة في نفوس الآخرين تكثيرًا لعدد جبهات العداء لنا، وزجًّا للأبرياء في الذنب؛ فالحسد يدفع الحاسد إلى الذنب ويحبط أعماله؛ قال بعض الحكماء: "ما رأيتُ ظالمًا أَشبهَ بمظلوم من الحاسد"؛ أي إن الحاسد ظالم، إلا أنه بحالته هذه قد تردّى إلى حالة تستدعي الشفقة عليه؛ فلا ينبغي أن نُلجئ أحدًا إلى مثل هذا الحال.

ويبعُد أن يراعِي الجميعُ مثلَ هذه الدقة في مسألة دقيقة كهذه، لكن لا بدّ أن تكون سَمْتًا لمَن لهم مكانة خاصة بين الناس.

أعداء العش السعيد

سـؤال: رُوِيَ في الصحيح أنّ مِن أحبّ الأعمال إلى الشـيطان التفرقةَ بين الزوجين وهدم عش الزوجية، فما نصيحتكم للأزواج لكيلا يقعوا في مثل هذا الفخ، ولئلا تؤول الحياة الزوجية إلى الطلاق أبغضِ الحلال إلى الله؟

الجـواب: إن الشـيطان هو الداعي إلى كلّ شـر، المدمِّـر لكل ما هو جميل، قال الله تعالى:

﴿**فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ٦٣/١٦).

وقال: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٢٠/٧).

دلَّت هاتان الآيتان وأمثالهما على أن سيئ الأعمال من شأن الشيطان.

العدو الخفي اللدود

وفـي آيـة أخرى ينعـت القرآن الكريـم الشـيطانَ بوصـف "الغَرُور"، فيقول: ﴿**وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ**﴾ (سُورَةُ لُقْمَانَ: ٣٣/٣١).

لفظة "الغَرور" صيغة مبالغة؛ أي "كثير الغَرر"؛ وهذا يدل أن للشـيطان حيـلًا فظيعـة تَحار دونها العقول والألباب، فهو يدسّ سـمومه ودسائسـه وحيلـه فـي عقل ابـن آدم وصدره، وأفـكاره وأمانيه، ويجتهـد في تضليله والتغرير به.

وفي آيةٍ أخرى وُصف الشيطان بـ"الخَنَّاس"؛ لأنه عدو خفي يكرّ ويفرّ؛ أي يتراجع ويتقهقر، فإن وجد الفرصة مواتية انقضّ على الإنسان، فيأتيه باسم الخير ويتدثر بالحقّ، ويزيّن له كلّ ما هو سيئ وقبيح، ويسعى إلى إضلاله في كلّ حين، ونجد الإنسان أحيانًا يقع تحت إِسَار الشيطان وينساق بوسوسته، ورغم هذا يعد نفسه مخطط كل شيء وصانعه، فيقول: "أنا مَن فكر وقرر وقدر وفعل"، وكأنه فعل كل هذا وحده، فمِن أخطر الدسائس الشيطانية ما يجعل الإنسانَ ينكر وجود الشيطان كما يقول الأستاذ بديع الزمان.

وتقوم النفس المتجذرة في ماهية الإنسان بوظيفة مركز الاتصالات للشيطان، ففي القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ (سُورَةُ يُوسُفَ: ٥٣/١٢)، فإن النفس الأمارة تلازم الإنسان وتأمره بالشر على الدوام، ولمزيد البيان إليكم هذا التمثيل: كأن الشيطان يرسل إشارات وشفرات متتالية إلى الإنسان كشفرة مورس، فتحلّ النفسُ هذه الشفرات وتُمليها على الإنسان، فيتلقى الإنسان هذه الإشارات الواردة من الشيطان أو النفس الأمارة ويتحرك وفقًا لها، أي ينساق لها ويرتكب كثيرًا من الآثام، ومن أعظمها هدمُ عشّ الزوجية وتشرُّدُ الأطفال ووقوعُهم في حالة يرثى لها ماديًّا ومعنويًّا.

حجمُ الإفساد

لاحظنا في السؤال أن الشيطان لا يفرح بشيء فرحَه بالطلاق وهدم عش الزوجية، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ**

كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ"(٢٩).

"**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ**"، في هذا إشارة إلى أماكن تكثر الشياطين فيها ويكثر إغواؤهم وإضلالهم لأهلها، أي أكثر الأماكن التي لا يبرحها الشيطان هي الشواطئ، وهي مَظَانُّ شتى أنواع الشرور والمفاسد.

"**ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ**"، فبعض هؤلاء الأعوان يحمل الإنسان على أكل الربا، ومنهم من يزيّن للعين لتنظر إلى الحرام، فيثير شهواته البهيمية، ويجعله يجري وراء غرائزه، ومنهم من يزيّن لِلّسان الكذبَ فيكذب، أو الغيبةَ والافتراء فيفعل، وربما يقوم كل منهم بإغواء الناس وإضلالهم في مجال استعداده ومهارته الخاصة.

"**فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا**"، هو يُسرّ في الواقع بكل تلك الذنوب والآثام؛ لأن المعاصي بريد الكفر، إذ ينكت الذنب في القلب نكتة سوداء، ويباعد بين العبد وربه خطوة، بيد أنَّ ما ينتظره الشيطان من أعوانه أكثر وأكثر.

"**ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**"، وفي هذا إشارة إلى مصيبة كبرى وحادثة اجتماعية فظيعة انتشرت اليوم.

ومعنى هذا أن هدم عش الزوجية له أهمية عظمى عند الشيطان حتى إنه لا يعبأ معه بأعوانه الذين ساقوا الناس إلى الشرور والآثام، ويخص من فرَّق بين المرء وزوجِه بالثناء، ومن يدري لعله يكافئه على ما فعل!.

(٢٩) صحيح مسلم، صفات المنافقين، ٦٧.

ولكن لِمَ يحظى هذا الأمر بكلّ تلك الأهمية عند الشيطان؟

ذلك لأنّ الضرر لا يمس الزوجين فقط، بل يمتد إلى أطفالهما وأصولهما وأقاربهما وأحبابهما، بل يمكن القول بأن الضرر يمس المجتمع بأسره بمعنىً ما؛ فإن الأُسَر عندما تتفكك -وهي جُزَيئاتُ المجتمع- تتوالى التصدعات والتشققات في المجتمع، ويغدو عرضة لتشوهات خطيرة، ثم إن فرقة الزوجين ستغدو نموذجًا سيئًا، فتسري عدوى هذه الجرثومة في أوصال البيوت الأخرى، ويظهر من هذا كله أن ما يقوم به الشيطان قد يبدو صغيرًا في الظاهر، والحق أنه يهدم الكثير بهذا العمل.

علينا ألا ننسى أن الشيطان سيفعل كلّ ما بوسعه للإيقاع بين الزوجين، ولن يضيّع لحظة ليحوِّل عشًّا سعيدًا مؤهلًا لأن يكون روضة من رياض الجنة إلى حفرة من حُفر جهنم، وسيحاول في سبيل ذلك هو ومن تحكم بهم ووجّههم كما شاء من أبالسة الإنس للإضرار بمؤسسة الأسرة.

ولا جرم أن أكثر المتضررين في هذا العش الذي يقع فريسة للتعارض والتساقط هم الأطفال؛ لأن الأسرة التي يخيم عليها النزاع والجدال والشقاق والنفاق ليست بيئة ملائمة لتنشئة أطفالٍ ذوي قوام روحي سليم.

أجل، إنّ فحش القول بين الوالدين في بيت ملؤه النزاع والشقاق سَيَقَرّ في عقل الطفل ويقصم ظهره ويخيب أمله في والديه، وينزع عنهما لباس الهيبة والتقدير، وشيئًا فشيئًا يخسر الوالدان احترام الطفل وتقديره لهما جذريًّا، وهذا مشهد أدعى لفرح الشيطان عدونا اللدود!

آخر الدواء: الطلاق

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: **"أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ"**(٣٠).

يشير هذا الحديث إلى أن فرقة الزوجين ممقوتة مطلقًا عند الله تبارك وتعالى، لذا يتعين أن يتزود الزوجان في البداية بالمعلومات اللازمة حول النكاح حذرًا من هذا المآل العسير.

ولو أن لي من الأمر شيئًا لَما أذنت بالزواج لأحدٍ دون أن يُلمّ ببعض الكتب ويشارك في بعض الدورات حول هذه المسألة، ولألزمته بدورة تدريبية شهرًا أو شهرين على الأقل ليتعلم أهمية الحياة الزوجية، ومَهامّها وحقوقها وواجباتها، وماهية العلاقة بين الزوجين، وتربية الأطفال؛ لأنه يتعذر بناء عش زوجي صحّي دون معرفة الزوج بمسؤوليات الرجل، ودون معرفة الأنثى بمقام ربّة المنزل.

وينبغي أن تُبنى مسألة الزواج في البداية على أساس العقل والمنطق لكيلا يسلك الزوجان طريقًا يؤدي بهما إلى الطلاق والعياذ بالله؛ لأن الزواج أمر لا يقبل العاطفية أبدًا، بل لا بدّ مع المشاعر من إعمال المنطق إلى أقصى حدّ.

أجل، من الصعوبة بمكان أن يستمر الزواج بأمان إن قام على الجمال فقط، فإنه ما إن تزول هذه الصفة حتى تتدمر الحياة الزوجية؛ فرغم أن المشاعر لها قدْرها إلا أنه لا يجوز ألبتة أن نُغْفِلَ دور العقل والمنطق والتعقل، وأن نمعن النظر قبل الزواج، بل لا ينبغي أن يكتفي الخاطبُ

(٣٠) سنن أبي داود، الطلاق، ٣.

بأفكاره، بل عليه أن يطّلع على آراء من حوله من أصحاب الفكر والرأي.

ولا ينبغي إغفال فترة الخِطْبة، فهي ذات مكانة في عاداتنا، وهي فترة مهمة جدًّا لمعرفة مدى التواؤم والتوافق بينهما، على أن يكون ذلك في حدود الشرع.

وبعد الزواج لا بدّ من التمسك بأحكام الدين الحنيف للحفاظ على منظومة الأسرة، ولا بد من العناية الكبيرة بحماية أسرارها وخصوصياتها، فإن ذلك يحول دون أعوان الشيطان وشياطين الإنس من ولوج هذا العُش وتدميره، هذا في الإعدادات المادية والمعنوية الواقية الحافظة، ثم إنه من الأهمية بمكان اللجوء دائمًا إلى العناية الإلهية بحصن معنوي من الأدعية حتى يمكن لهذا العش السعيد أن يستمر.

وقد يستحيل العيشُ بين الزوجين ويظهر الخلاف والشقاق بينهما رغم الحيطة والإعداد التام والحيلولة دون أي فراغ عقلي ومنطقي؛ فيستغل الشيطان وأعوانُه من الجن والإنس هذا الوضعَ، ويسلكون مسالكهم للإيقاع بين الزوجين، فيقتنعان باستحالة استمرار الزواج في هذه الظروف، ويجدان الطلاق حلًّا أخيرًا لزواجٍ لا طمأنينة فيه ولا أمل فيه للتعايش، وقد فصّل القرآن الكريم المسألة في عشرات الآيات وهو يتحدث عن مآل الزوجين إذا آل بهما الأمر إلى هذه العاقبة الوخيمة، بل في القرآن سورة اسمها سورة الطلاق؛ وجاء مفخرة الإنسانية محمد ﷺ ليفسّر ويبيّن في سنته السنية هذه الأحكام، ثم اجتهد الصحابة الكرام والفقهاء العظام من بعدهم، فكانت لهم استنباطات شتى في المسألة.

دلّ ذلك أن عنايةً بهذا القدر بمسألة الطلاق تفيد أنها مسألة خطيرة، ولكن ثمة ظروف تستوجب الطلاق بوصفه حلًّا أخيرًا إذا تعقد الأمر،

فإن سُدت كل الطرق أمام هذا الزواج بعد أن جرِّبت شتى أنواع الحلول، ولا أمـل فـي دوام هذا العش، جاز التفكير في الطـلاق بمنأى عن دوافـع العاطفة والنفس، وذلك في ضوء الحق والشرع، وبإشراف العقل والمنطق والضمير.

المحاسبة والاستغفار

سـؤال: ما المعايير التي ينبغي أن يلتزم بها المؤمـن عند التعرّض للبلايا والمصائب حتى يمكنه اجتيازها بشكل يتلاءم مع سلوكه الإيماني؟

الجـواب: يقـول الله تعالـى في كتابه الكريـم: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَـنَةٍ فَمِـنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَـيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِـكَ**﴾ (سُـورَةُ النِّسَـاءِ: ٤/٧٩)، فكلّ مَن يصدِّق بهذا البيان عليه أن يعزوَ أولًا كلَّ مصيبة وبليّة ألمّت به إلى أخطائه وذنوبـه، فمثلًا لو سـقط ما في يدِك مـن طبقٍ أو كوبٍ على الأرض فاعلم أن هذا من نفسك، واحمله على انحرافٍ في تعقلك أو تصورك أو تخيّلك في تلك اللحظة، ثم اسأل نفسك: "هل فعلت ما لا يليق بالحضرة الإلهية حتـى أُصبـت بمثـل هـذا؟"، لأنه لا تقـع أي حادثـة في الكـون عبثًا؛ فلو نظرنا في الحياة بإمعان فسـندرك أنّ أية مصيبة ولو صغيرة جدًّا تعد إنذارًا أو تحذيـرًا، وفـي كل حادثـة عبـرة، فـإنْ فهمها الإنسـان وتوجّـه إلى الله وعمـل من الخير ما يكون كفارة لهذا البلاء، فقد يكون هذا وسـيلةً لدفـع ما هو أعظم من الحوادث والبلايا بفضل الله وعنايته؛ أجل، إنّ كل مصيبة من هذا النوع بمنزلة تنبيه وكفارة في الوقت ذاته، فالكوبُ المكسـور مثلًا قد يحطِّم سلسـلةً من البلايا والمصائب، ويطهّر الإنسـان من بعض ذنوبه، كما جاء في الحديث الشريف: "**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**"[٣١].

(٣١) صحيح البخاري، المرضى، ١؛ صحيح مسلم، البر والصلة، ٤٩.

البحث عن المجرم الحقيقيّ

والواقع أننا لا نستطيع أن ندرك دائمًا بشكل جليّ صريح ما وراء الحوادث من أسباب، لكن على القلب المؤمن أن يفتِّش عن أخطائه وعيوبه أولًا حتى في الحوادث الغامضة التي نزلت به، فمَن يتهم نفسه يكون قد خطا خطوة مهمة في البحث عن المجرم الحقيقي، أمَّا إن برّأ نفسه وراح يبحث عن المجرم في الخارج فلن يجده وإن قضى عمره كلّه في البحث عنه، وبذلك ينفق عمره في اتهام الآخرين.

وفي هذا يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "والآن عرفتُ السبب الحقيقي في قيامهم بظلمي وتعذيبي، أقول وكلي أسف: إن ذنبي هو اتخاذي خدماتي القرآنية وسيلة للترقي المعنوي والكمالات الروحية"(٣٢).

إنّ ما ذكره هذا الإنسان الكامل لَيكشف لنا عن مدى عمق محاسبته لنفسه، ومعنى كلامه أنه لا ينبغي أن نتّخذ من خدمة الإيمان والقرآن سبيلًا إلى الألطاف والعطايا الإلهية أو طريقًا لبلوغ مرتبة الولاية أو حتى للوصول إلى غايات سامية كالفوز بالجنة والنجاة من النار، فمَن جعل هذه الأمور منتهى غاياته في خدمته الإيمانية والقرآنية أفسد الأمر؛ لذا لا بدّ أن تكون غايتنا الأمُّ هي تحقيق الإخلاص ونيل الرضا الإلهي، ولا ينبغي أن تتغلب الرغبة في دخول الجنة والخوفُ من النار على تحقيق العبودية الحقيقية، ولا جرم أن الله تعالى سيجزينا بالثواب الجزيل على ما قمنا به من أعمالٍ مزدانة بالإخلاص، هذا وإنّ عباداتنا قاصرة محدودة أما نعم الله تعالى فهي كثيرةٌ لا تُعَدّ ولا تُحصى، هب أنك ملِك العالم ولديك تريليونات، فلا بدّ أن يعتريك الخوف عندما تنفق منها لأن الإنفاق ينقص

(٣٢) سعيد النورسي: السيرة الذاتية، ص ٤٧٥.

ما في يدك، أمّا نعم الله تعالى فهي كثيرة حتى لو حاول العادّ إحصاءها لما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فما تسألونه ليس شيئًا مقارنة بما سيؤتيكم الله تعالى من فضله.

لا بدّ من تجنب أي نوع من الشكوى

إن مَن لا يستطيع إدراك الأسباب الحقيقية وراء البلايا والمصائب التي يتعرض لها تبدر منه كلمات تنمّ عن شكوى الله تعالى إلى الناس؛ إن للإنسان أن يشكو مَن ظلمه إلى المسؤولين والأوساط العامة إحقاقًا للحق، أي مَن لحق به الظلم له أن يشكو مَن ظلمه إلى الحقّ والخلق، ثم ينتظر حكم الحقّ تعالى وما يجريه على ألسنة الناس، لكن الإنسان ليس له ألبتة أن يشكو الله ﷻ إلى خلقه، وناهيك عن القول الصريح فإن التأفف والتضجر من المصائب والبلايا يُعَدّ أيضًا شكوى، فليتجنّب العبد أي كلمة أو سلوك يوحي بالشكوى من الله ﷻ صراحةً أو ضمنًا.

أما عدّ الإنسان هذا البلاء أو تلك المصيبة من نفسه فأمر مرهونٌ بمحاسبته لنفسه محاسبة شديدة، والمحاسبة رهنٌ بإيمانٍ بالله والآخرة راسخٍ في القلوب.

وفي الأثر عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: "**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**"(٣٣).

وفي هذا دلالة على أنّ محاسبة النفس ذات علاقة وثيقة بالإيمان بالحساب في الآخرة.

ولو تأملنا أوراد الأئمة العظام وأذكارهم لرأينا أنهم قد أنفقوا حياتهم في محاسبة شديدة للنفس: محاسبةٍ نابعة من خشية الحساب في المحكمة

(٣٣) عبد الله بن المبارك: **الزهد**، ص ١٠٣؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٩٦/٧.

الإلهية الكبرى، وربما لم نحاسب أنفسنا ونزجرها عن غيّها طول عمرنا كما كان يحاسبها الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ في وردٍ واحد من أوراده.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي أيضًا يزجر نفسه زجرًا عنيفًا، ثم لا يغلق باب الرجاء، فيتوجّه إلى الله طالبًا العفو والمغفرة بما معناه: "كم عبدٍ لجأ إليك وما عاد خالي الوفاض"، ومن ذلك قوله:

"يا ذا الجلال والإكرام، يا محيطًا بالليالي والأيام، أشكو إليك من غمّ الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب، وإن ذلك لواقعٌ ما له من دافعٍ إن لم ترحمني، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولقد شكا إليك يعقوب فخلَّصتَه من حزنه، ورددتَ عليه ما ذهب من بصره، وجمعتَ بينه وبين أولاده... ولقد ناداك نوحٌ من قبل فنجَّيتَه من كربه... ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفتَ ما به من ضُرّه... ولقد ناداك يونس فنجّيتَه من غَمّه... ولقد ناداك زكريا فوهبتَ له ولدًا من صلبه بعد إياس أهله وكبر سنه... ولقد علمتَ ما نزل بإبراهيم خليلك فأنقذتَه من نار عدوه... وأنجيتَ لوطًا وأهلَه من العذاب النازل بقومه... فها أنا ذا عبدُك، إن تعذبني بجميع ما علمتُ من عذابك فأنا حقيقٌ به، وإن ترحمني كما رحمتَهم مع عظيم إجرامي فأنت أولى بذلك وأَحَقُّ مَن أكرمَ به، فليس كرمُك مخصوصًا بمن أطاعك وأقبل عليك، بل هو مبذولٌ بالسَّبق لمن شئتَ من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك"[٣٤].

وأذكّر هنا بوِرْد مهمّ جاء في "القلوب الضارعة"[٣٥]، ينبغي الأخذ به

(٣٤) **القلوب الضارعة**، ص ٣١١.

(٣٥) **القلوب الضارعة**: هو كتاب يجمع بين دفتيه مختاراتٍ من أدعية سيد المرسلين ﷺ وإخوانه من النبيين والصحابة الكرام وكبار الأولياء والصالحين. أشرف على جمعها الأستاذ محمد فتح الله كولن ومعظم هذه الأدعية التي جاءت بهذا الكتاب مقتبسةٌ من كتاب "مجموعة الأحزاب" للشيخ ضياء الدين الكومشخانوي من علماء العهد الأخير للدولة العثمانية.

في هذا الباب، وهو "حِزب الاستغفار الأسبوعي" للإمام الحسن البصري رحمه الله[٣٦]، فقد أفردت هذه الشخصيةُ العظيمة استغفارًا خاصًّا لكل يوم في الأسبوع، وقد بالغ في ذكر عيوبه وهوّل من أمر ذنوبه، والحسن البصري كما هو معروف علَمٌ من أكابر التابعين، نهل من نبع الصحابة، وتصدى للفِرَق الباطلة المختلفة في البصرة حتى دحرَها، ويمكن أن يقال عنه: إنه غلَّق أبوابَه عن الذنوب والآثام حتى في رؤاه وأحلامه، وممن نهل من علم هذا البطل الإمامُ الأعظم أبو حنيفة النعمان عظيم الشأن؛ ومع تلك الخصائص كلها نراه يهوّل من أمر ذنوبه وعيوبه حتى إنك لتحسب أنه أعتى مجرم اقترف ذنبًا في الدنيا، فتراه يتوجّه إلى الله بلسانِ المفلس وحالِهِ وكأنه من ذوي الإصرار على اقتراف الذنوب، وهكذا يمضي في محاسبة نفسه كل يوم.

المحاسبة تفضي إلى الاستغفار

محاسبة النفس على الأخطاء والعيوب تحمل على التوبة والاستغفار، ففي سورة الفرقان أورد الحقُّ ﷻ ضروبًا من الذنوب، وأوعد مرتكبيها بالعذاب في الآخرة، ثم إنه -رغم ما ارتكبوا من الموبقات- بَشَّرهم بما سيحظَون به في الآخرة إن هم أنابوا إلى ربهم وثابوا إليه مرة أخرى:

﴿**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٠).

دلت هذه الآية أنّ مَن تشوّهت روحه بما ارتكب من الذنوب إن تاب واستغفر من فوره، وعقد العزم على التطهر الحقيقي، وجدّد إيمانه، ولازَم العمل الصالح، بدّل الله تعالى سيئاته حسنات؛ أجل،

(٣٦) القلوب الضارعة، ص ١٤٢.

سيمحو الله ﷻ ذنوب هذا العبد أيًّا كانت، سواء اقترفتها يداه وقدماه أم عيناه وأذناه، أو كانت امتعاضًا في وجهه أو إيماءً، فإنه سبحانه يمحوها جميعًا ويبدّلها حسنات.

وأشار الأستاذ بديع الزمان إلى معنى تحتمله هذه الآية: يبدّل الله قابليات الشر لدى الإنسان إلى قابليات للخير[٣٧]؛ وهذا يعني أن التوجه إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة والأوبة يترتب عليه أن تتبدل ميول الشر في طبيعة الإنسان إلى ميول للخير والحسنات.

الاستغفار: ماء الحياة للبعث من جديد

عن الزبير بن العوام ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ، فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ**"[٣٨].

وقد بلغ سيد الأنام عليه أفضل التحيات وأكمل التسليمات ذرى هذا الأفق، يقول: "**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً** (وفي رواية: **مِائَةَ مَرَّةٍ**)"[٣٩].

وتفسير هذا الأمر برقيّه الدائم في أفق معرفته ممكن، وكذا تفسيره بأنه أسوة رائد لأمته، فكلّ راعٍ في جماعة أو لجنة تغدو سلوكياته وتصرفاته الطيبة والقبيحة قدوة لمن خلفه؛ فلو أن مدير المؤسسة أرسى مبادئ نفعية يتحرى بها منافعه الشخصية، فسيجرّ الناس من ورائه إلى السرقة، وإن تحرّى الخير والبرّ على الدوام كان عاملًا مؤثرًا في توجيههم إلى الخير؛ وبهذه النظرة يمكننا أن نقول: إن رسول الله ﷺ كان يستغفر الله مائة مرة

(٣٧) سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٣٥٨.

(٣٨) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٢٥٦/١؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ١٥٢/٢.

(٣٩) **صحيح البخاري**، الدعوات، ٣؛ **صحيح مسلم**، الذكر والدعاء، ٤١.

في اليوم، فوجَّه أتباعه بسنّته هذه إلى العروج بأجنحة الاستغفار نحو آفاق تحلّق فيها الملائكة.

نعم إنّ المرء إذا ما أمعن النظر في نفسه ومسيرته وجد -أيًّا كان مستواه- كثيرًا من الأخطاء والعيوب تستوجب الاستغفار؛ فقد تكون عينه زلّت بنظرة أثناء سيره من مكان إلى آخر، أو ربما أُثني على أحدٍ أمامه فهمّ بالتهكم عليه والسخرية منه، وقد يكون سقط في مستنقع الغيبة وهو لا يعي... فالاستغفار الاستغفار، فإنّ أي ذنب من هذه الذنوب قد يُهلك صاحبه، فلنضع هذا نصب أعيننا.

وأشار الأستاذ النورسي إلى أن الذنوب وإن كانت صغيرة قد تُوبِق الإنسانَ، فقال: "احذر! انتبِه إلى موضع قدمك، وخَفْ من الهلاك، فلا تهلك في أَكلةٍ، أو كلمة، أو طَرْفة، أو شارة، أو بقلة، أو قبلة... فتَهلِكَ معك لطائفُك العظيمة"(٤٠).

والناس في الدنيا يُخضعون كل شيء لحساب دقيق حتى أعمالهم الدنيوية، فيقومون بدراسات واسعة حول مشروع ما، ويستثمرون أموالهم في ضوئها، ثم يقوّمون الوارد والمصروف في آخر كلّ شهر، ويقررون هل هذا العمل مربحٌ أم لا؛ فإذا كنّا نقوم بهذه الحساب والتقويم في أمور الدنيا الفانية أليس حريًّا بنا أن نجعل لحياتنا الأبدية حسابًا أكبر وأعظم؟.

ومن المفيد هنا أن أنوه بأمر آخر في هذا الباب، يقول الأستاذ بديع الزمان ﵀ رحمة واسعة: "إن الدعاء والتوكل يمدّان ميلان الخير بقوة عظيمة، كما أن الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشر ويحدّان من تجاوزه"(٤١)؛ أي إن التوبة والاستغفار يحولان دون ميلان الإنسان

(٤٠) سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، المذكّرة الرابعة عشرة، ص ١٨٧.

(٤١) سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٦.

إلى الشر، فهما مطرقة تشدخ رأس الذنوب والمعاصي وتقطع دابرها، والدعاء والتوكل يعززان ميول الإنسان إلى الخير؛ فمَن استمسك بجناحَي التوبة والاستغفار والدعاء والتوكل ارتقى مباشرة إلى أوج الكمالات الإنسانية، بل قد يجد نفسه خلف مفخرة الإنسانية محمد ﷺ؛ وأستدرك فأقول: ألا ليت الإنسان يقيم سدودًا تحول دون تخريب حياته القلبية والروحية ابتداء، فهذا أفضل من أن يشتغل بالترميم، لأن ترميم الشيء الخرِب وإعمارَه صعب جدًّا.

وأذكر أنني عندما ذهبت إلى مدينة "أَدِرْنَه" رأيتهم قد بدؤوا في ترميم مسجد "السليمية"، وقضيت هناك ست أو سبع سنوات ولم ينته الترميم، بينما تمّ بناء هذا المسجد في عهد السلطان سليم الثاني في ست سنوات؛ نعم، إن ترميم الشيء الخرب ليعود كما كان أصعب كثيرًا من إعادة بنائه؛ فليس من السهل إذًا إعادة صياغة مَنْ تشوّهَت رُوحه بذنوبه، فليحيَ المرء حياة تحول بينه وبين الدمار والخراب ابتداءً، ثم يمضي في حياته يقظًا حذرًا من الذنوب والآثام.

مفاهيم مفتاحية في تفسير الوجود

سؤال: يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﷺ وهو في العقد الرابع من عمره: "إني حصَّلتُ في أربعين سنة في رحلة العمر وثلاثين سنة في طلب العلم أربعَ كلمات وأربعَ جُمل"، ثم يذكر هذه الكلمات: "المعنى الاِسْمي، والمعنى الحَرْفيّ، والنيّة، والنَّظَر"[٤٢]؛ فما الذي يقصده بـ"النظر"؟ وكيف ينبغي أن يكون النظر الإيماني؟

الجواب: أشار الأستاذ النورسي في كتابه المسمّى "المثنوي العربي النوري" إلى أهمية هذه الكلمات؛ وبين هذه الكلمات علاقةٌ؛ فالأولى الوقوف عند الكلمات الثلاث الأول باختصار قبل الانتقال إلى مسألة "النظر".

المعنى الاسميّ والمعنى الحَرفيّ

المعنى الاسمي والمعنى الحرفي مأخوذان من الاصطلاح النحوي، فالاسم لفظ يدل على معنى في نفسه، أي متى ذُكِر أدرك السامع معناه؛ أما الحرف فلا يدل على معنى في نفسه؛ لأنه ليس له معنى قائم به، فمثلًا حروف الجر كـ"الباء" و"مِن" و"إلى" و"في"، لا يُفهم منها أيّ معنى عند سماعها وحدها، فلزم أن تُتبَع باسم ليُفهم معناها.

(٤٢) سعيد النورسي: **المثنوي العربي النوريّ**، الرسالة الرابعة (قطرة من بحر التوحيد)، ص ١١٧.

كما استخدم الأستاذ مصطلح علم المنطق "الكل والجزء" في معان مختلفة، كذلك فَعَل في اصطلاح النحويين "الاسم والحرف"، فأضفى عليهما معاني مختلفة، وجعل منهما مفاهيم مفتاحية لتفسير الوجود.

يرى الأستاذ النورسي أنه من الخطأ النظر إلى الكائنات بالمعنى الاسمي أي بحساب الأسباب، بل ينبغي أن يُنظر إليها بالمعنى الحرفي؛ فحين تنظر إلى النعمة يجب أن يرد بخاطرك المنعمُ، وإذا نظرت إلى المخلوق يجول بخاطرك الخالقُ، وإن نظرت إلى الأسباب تذكرتَ المؤثّر الحقيقي.

النية تغير ماهية الأعمال

أما النية فقد ذكر الأستاذ أنها إكسيرٌ يحيل العادات والحركات العادية إلى عبادات، ورُوحٌ تحيي الأحوال الميتة وتحوّلها إلى عبادات حيوية، وتغيّر النيّةُ ماهيات الأشياء أيضًا، فتقلب السيئاتِ حسناتٍ والحسناتِ سيئاتٍ، الرياء مثلًا يغيّر العبادة فيحيلها سيئةً؛ ناهيك أن الإنسان قد يُثاب بالنية وإن أخطأ، فالنبي ﷺ قال: "**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**"[٤٣]، فلعل النية الخالصة هي سبب إثابة المجتهد إذا أخطأ، فإنه لما كان الاجتهاد استخراجَ حكم تركه الشارع لظروف الأحوال والأزمان على أسس ومبادئ تتناسبُ ومقاصدَ الشريعة، أُثيب المجتهدُ -وإن أخطأ- على بَذْل الجهد والوسع لبلوغ ذاك الغرض، أي أثيب على نيته.

وقد يُعاقَب المرءُ ولا يُثاب وهو يحسب أنّه يحسن صنعًا، وذلك إذا لم يبتغ وجه الله تعالى وكانت نيته الشهرة أو المباهاة بالكرم أو العلم.

(٤٣) صحيح البخاري، الاعتصام، ٢١؛ صحيح مسلم، الأقضية، ١٥.

يدل على هذا الحديثُ الشـريف: **"إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْـهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: "فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟" قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْـهِدْتُ، قَالَ: "كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ"، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ؛ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُـرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: "فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟" قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُـهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَـالَ: "كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْـمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَـرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَـالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ"، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ؛ وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: "فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟" قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْـتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: "كَذَبْـتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ"، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"**[٤٤].

أجـل، لـو أنَّ مَنْ يؤلِّف ويعظ الناس ويضفـي على ما يكتب أو يقول لَمَسـات أدبيـة، إلا أنه أَعرضَ عن طلب الرضـا الإلهي وَبَنَى جهوده على فكرة سـاذجة مسـتهجنة كالذِّكر الحسَـن مثلًا، فهذا معناه أنـه طلب أجرًا تافهًـا، مَثلـه مثل الذي يبيـع الجواهر في سـوق الحدادين، ولو أنه طلب أجـرًا لا منتهـى له مثل رضـا الله تعالى لَأَثمرَ جهدُه وسـعيه ثمارًا مختلفة جذريًّا.

النظر أو أن تَرى حين تَنظر

أما مسألة النظر فعلى الإنسان أن يعرف طرق الرؤية، فمعلوم أن النظر شـيء والرؤية شـيء آخـر، وأنّه لا يمكن للإنسـان أن يميـز المَرْئيات إن لم ينظر إليها بقصد الرؤية والاسـتبصار ولو كان مفتوح العينين، فمثلا إذا

(٤٤) صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٢.

لم ينظر الإنسان إلى هذه المكتبة بقصد الرؤية فمن المتعذر عليه أن يميز ما فيها من كتب وخطوط وألوان وزخارف... إلخ؛ أجل، الرؤية تختلف عن النظر، إنها تعيين الأشياء المنظور إليها وتحديدها وتشخيصها.

إلامَ يُنظَر وكيف؟

مثلًا لو نظر الإنسان إلى كل شيء وفقًا لمعايير المكان ثلاثيّ الأبعاد في العالم الماديّ فكثير من الأشياء لا يمكن أن يراها أو يحس أو يشعر بها؛ وذات يوم تداولت وسائل الإعلام مقولة رائد الفضاء السوفيتي يوري جاجارين: "طوفت بالكرة الأرضية كلها ورجعت ولم أر الله"، تعالى الله عما يقول؛ فعلّق الأستاذ "نجيب فاضل"(٤٥) على هذه المقولة في بعض محاضراته بنبرته الخاصة معبرًا عن انحراف فكر هذا الفلكي بقوله: "يا لك من أحمق! من أخبرك أن الله نفاخة معلقة في الفضاء؟".

أجل، إنه ﷻ خالق كل شيء من العدم مبرأ ومنزه عن الزمان والمكان، ولو توهمه الإنسان جسمًا في السماء وحاول أن يراه -تعالى الله عن ذلك- لما استطاع ألبتة رؤية الحقيقة، ولَمَا سلم من الوقوع في مثل هذه الانحرافات.

كل شيء يشهد على وجود الله تعالى ووحدانيته من كلّ وجه، إلا أن عجز الإنسان عن تقويم رؤيته يحول بينه وبين الإيمان، كما كان الكبر والظلم وتقليد الآباء والأجداد يحول دون الإيمان.

وقد قيل في هذه الحقيقة بإيحازٍ يسترعي الانتباه:

تأمَّلْ سطور الكائنات فإنها مِن الملأ الأعلى إليك رسائلُ

(٤٥) **نجيب فاضل قِيصه كُورَكْ** (١٣٢١هـ/١٩٠٤م - ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م): من أشهر المفكرين والشعراء والكُتّاب الأتراك في القرن العشرين، لُقب بـ"سلطان الشعراء" لطول باعِه في الشعر.

لكن عندما نظرنا إلى الكون بوجهة نظر مادية أو طبيعية أو وضعية لن نستطيع سماع صوت الكائنات التي تعرِّف بالله تعالى بآلاف بل بملايين الألسنة، ورغم أن أمثال هؤلاء يدققون النظر في الكون إلا أنهم ينسبون كل شيء إلى الطبيعة لعجزهم عن الرؤية مع أنهم ينظرون، أو لعدم قدرتهم على القفز إلى ما وراء ما يرونه، وبعبارة أخرى: إنهم لن يستطيعوا تقييم الأشياء والأحداث التي شغلوا بها تقييمًا يدلهم على الذات الإلهية، لأنهم لا يعرفون كيف ينظرون وإلامَ ينظرون.

وللأستاذ النورسي وجهة نظر مهمة في هذا كشف عنها في الكلمة الخامسة عشرة من كتاب "الكلمات"، أشار فيها إلى ضرورة أن ينظر الإنسان إلى القرآن -حين ينظر فيه- بوصفه كلام الله؛ لأننا لو فرضنا أن القرآن قول البشر لقطعنا صلته بالسماء وأنزلناه إلى مستوى البشر.

والحق أن القرآن قد نزل مراعيًا العقل البشري، إلا أن على الإنسان أن ينظر إليه نظرة صحيحة ليشعر بعمق وانشراح حقيقي بهذا الكلام الإلهي المنزل من وراء الماوراء.

النظر الكليّ

وفي مسألة النظر أمر آخر ينبغي الوقوف عنده، وهو النظر الكليّ إلى الأحداث والأشياء، وإن شئتم فأطلقوا عليه النظر الكامل.

وأنوّه هنا أنّه ليس من السهل تحقيق ذلك النظر الكليّ عندما ننظر إلى الآفاق خاصة؛ ولا يتيسر هذا الأمر لكلِّ إنسان، لذا وضع الأستاذ النورسي لهذا الموضوع مقياسًا ومنوالًا ننسج عليه: "التأمّل في الأنفس، والنظرة الإجمالية إلى الآفاق"؛ فمثلًا عندما ينظر الإنسان إلى بنيته ووظائف أعضائه في ضوء علم الطبّ قد يتعرف بيسر على وجوده ثم

يتعمق أكثر من سائر الموجودات، فلو تتبّع الأنظمة العاملة في بنيته بنظرة شعورية لأدرك القدرة المطلقة والعلم المطلق في ذلك التناغم المذهل والنظام البديع؛ ولو نظر إلى أبعادِ عالمِه الداخليِّ محورِ بنيته المعنويةِ مثل القلب والروح والسر والخفيِّ والأخفى، لَسمع صوت قلبه وفهم أحاسيسه وأدرك معنى الشعور واكتشف إرادته؛ وهكذا يمكن للإنسان أن يصل إلى أبعاد وأعماق كثيرة من خلال التأمل والتدبّر والتذكر والتفكر في ظاهره وباطنه، وفي مادته ومعناه.

أما في الآفاق أي الكون بأكمله فعلى المرء أن ينظر إليها نظرة إجمالية، يقول الأستاذ النورسي ﵀: "إن المعلومات الآفاقية لا تخلو عن الأوهام والوساوس، وأما إذا استندت إلى الأنفس واتصلت بالوجدانيات الشاعرة بالذات، فقد تَصفَّتْ عن الاحتمالات المزعجة، فانظر من المركز إلى المحيط، ولا تعكس فتنتكس"(٤٦).

أجل، على الإنسان أن ينظر إلى الكون عبر الأنفس، أي أن يجعل الأنفس منظارًا ينظر منه إلى الكون؛ لأننا نستطيع أن نرى في الآفاق ما يجري في الأنفس من قوانين، وعندما يستطيع الإنسان تتبّعَ هذه السلسلة يمكنه أن يتعمق في الأنفس أولًا، وأن يعلم أن كل القوانين والأنظمة التي في الأنفس إنما تستند إلى قدرة الله المطلقة، ثم يرى نفس القوانين والأنظمة في كتاب الكون أي في الآفاق؛ فيقدر على أن يقرأ الكون بمنظار النظر الكليّ.

(٤٦) سعيد النورسي: **المثنوي العربي النوري**، الرسالة السادسة (حَبّة)، ص ٢٢٩.

أفق العرفان

سـؤال: وجّه الشاعر التركي "نيازي المصري"[٤٧] الأنظار إلى مسألة العرفان قائلًا:

إن تشأ أيها الزاهد أن تبلـغ الكمال فعليك بالعرفان فهو مُبتغاك

وليس في صومٍ وزكاة وحجٍّ وصلاةٍ منتهاك

فما الوسائل التي على العبد أن يتخذها مع أداء التكاليف الشرعية حتى يبلغ درجة العرفان ويكون عارفًا بالله؟

الجواب: الصـلاة والصوم والزكاة والحجّ أسـاس العبادات، وكلمة التوحيد هي المفتاح السريّ لمدخل التعرف على أركان الإيمان والعبادات والطاعات، فكلمة الشـهادة جملةٌ مباركة تجمـع بين المبدأ والمنتهى، أي هي النقطة الأولى والأخيرة، فلا معنى للإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليـوم الآخـر والقدَر إن لم تكـن، وكذا العبادات لا قيمـة ومعنى لها إلا بالولـوج من هذا المدخل الذي فتحتـه هذه الكلمة، فكما جاء في حديث جبريل: الإيمان أولًا ثم الإسـلام ومنهما إلى الإحسان، أي إن مبدأ الدين وأساسه الإيمان، أما منتهاه وثمرته فهو الإحسان.

(٤٧) **نيازي المصري** (١٠٢٧هـ/١٦١٨م – ١١٠٥هـ/١٦٩٤م): شاعرٌ تركي صوفي ولد بولاية "مَلَاطْيَا" شرقي تركيا، وأكمل دراسته في الأزهر الشريف؛ فلُقّب بـ"المصري". له ديوان شعر ومؤلفات منها: رسالة الحسنيين، موائد العرفان، وعوائد الإحسان، وهداية الإخوان.

عبادات تُتوَّج بالوعي

والإحسان يشمل العرفان، فمَن أراد أن يصل إلى أفق العرفان فليكن إيمانه راسخًا بدايةً، وليعمل عملًا صالحًا، حتى يغدو هذا ثقافةً وجدانيةً له؛ أجل، إن أقصر الطرق لبلوغ العرفان أداء العبادات بخشوع ودقة ووعي، فإن خلت العبادات من الخشوع والوعي فلا طريق إلى العرفان، ومن لم يبلغ رتبة العرفان فلن يتأتى له بلوغ محبة الله ورسوله ﷺ.

وليُعلَم أن هذه الأمور بنيان واحد لن تبلغ أعلاه إلا بعد المرور بأدناه، والمسألة بهذا المنظور تدلّ على أن ما قاله الشاعر نيازي المصري حقّ.

إن عبادات المحروم من شعور الإحسان ونور العرفان ما هي إلا عادات وتقاليد ما زالت تُؤدَّى منذ قديم الزمان، فهو يصوم لأن من حوله يصوم، ويصلي لأنه رأى أبويه يصليان، ويحجّ لأن الآخرين يحجّون... ومن ثمّ فلا معنى ولا روح في عبادات كهذه لأنها صورة لا غير، ألم يقل سيدنا رسول الله ﷺ في هذا المقام:

"رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ"(٤٨).

نعم، إنّ قدر العبادات وخصائصها رهنٌ تحققُها باقترانها بالعرفان.

فالصلاة مثلًا عندما تؤدَّى في أفق العرفان بشعور الإحسان قد يرى هذا المصلي نفسه عندئذ في ديوان الله المقدس، فإذا حرّك يديه وقدميه شعر كأنه يلامس حجب العرش؛ نعم، يشعر بذلك ويرتعش خوفًا من أن

(٤٨) سنن ابن ماجه، الصيام، ٢١.

يصدر عن جوارحه ما لا يليق بالحضرة الإلهية، ولما تحدَّث الحقُّ ﷻ عن حال النبي ﷺ في الصلاة قال: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٢١٨/٢٦-٢١٩).

فينبغي لمن لم يستطع أن يبلغ هذا المستوى أن يعلم على الأقل أنّ الله تعالى يراه، وأن يؤدي أركان صلاته كلها بهذا الوعي ما أمكن؛ فأمارة انعكاس شعور الإحسان على سلوك الإنسان وتصرفاتِه: أن يتبع السنة في كل حركاته وسكناته، وأن لا يدور بخلده إلا ما يعلم أنه يليق بهذا المُقام.

أجل، من أجل بلوغ العرفان لا بدّ أن تُتوَّج العبادات بالوعي، فعلى المصلي أن يؤدي صلاته وهو على وعي بها من التكبير إلى التسليم، ومن الخطأ جعل النية لفظًا يُقال في افتتاح الصلاة، فالنية هي قصد القلب، فليمحُ العبد كلّ ما سوى الله تعالى من روحه ومشاعره كلِّها، وليستشعر بعمق أنه يقف بعبودية تامة واستعداد كامل أمام عظمة كبريائه ﷻ، بل عليه أن ينسى نفسه ويفنى جذريًّا، وأن ينسى أنه تفانى، ويجتهد في الحفاظ على هذا الشعور من افتتاح الصلاة إلى اختتامها؛ فإن داهمتك بعض الهواجس فاجتهد في التغلب عليها بالمداومة على منح الإرادة حقها.

وعلى المصلي أيضًا أن يفهم جيدًا معاني الأدعية والآيات التي يقرؤها في الصلاة، وأن يفطن إلى ما تكشفه للقلب من حقائق، وأن يستحضر كل هذه الأمور بوعي حتى السلام.

إن كلَّ جهدٍ وسعيٍ يبذله العبد لأداء الصلاة بوعي تامّ هو من المَعالم الصحيحة المهمة في طريق العرفان.

الاستقامة وكرامة الديمومة

ينبغي أن تكون صلة العبد بخالقه ﷻ متينة راسخة واعية، وأن يواظب على هذا، فالمداومة أمر مهم جدًّا لبلوغ أفق العرفان؛ إنّ معاملة الله تعالى لنا تكون على حسب صلتنا به سبحانه وتعالى ومداومتنا عليها، يقول من كان في ذروة أفق العرفان ﷺ: **"إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ"**[٤٩]؛ نعم، فقطرات الماء ليست هي التي تؤثر في الحَجر بل المؤثر هو دوامها؛ أجل، فرغم أن الماء مادة هينة لطيفة فإن دوامه يؤثر حتى في المرمر، فمن الأهمية بمكان أن يلزم العبد الصبر على الطاعة والمداومة عليها مع العزم والثبات والرسوخ حتى يُفتح له في العرفان.

من أجل ذلك يستهويني كثيرًا رأي الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في ليلة القدر، إنه يرى أن على المسلمين أن يتحروها في ليالي السنة كلها، فكما أخفى الله تعالى أشياء في أشياء ربما أخفى ليلة القدر في العام كلِّه، ولا جرم أنّ قيام بعض ليالي رمضان أو ليلة السابع والعشرين منه وإحياءها أمرٌ ذو قدر وفضل، غير أن الأصل أن يعد العبد كلَّ ليلة ليلةَ القدر، وعليه أن يقوم كل ليلة بهذه النية، وأن يعلن عن ولائه لربه ﷻ بالوقوف أمامه بعبودية تامة واستعداد كامل، عسى أن ينير حياته البرزخية بركعتي تهجد على الأقل، فأين هناءة المضاجع من ضيافة الرحمن؟ وما أجمل قول إبراهيم حقي رحمه الله في هذا:

يا عينُ ساهري الليل ولا تهجعي
وفي هاتيكِ الليالي مع الكواكب اسبحي

(٤٩) صحيح البخاري، اللباس، ٤٣؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٥.

وآياتٌ على صفحة سمائنا ارتسمت فتأملي

وابحثي عن خالقها وعليه ضيفًا فانزلي

التواضع كلمة السر لشتى أنواع الخير

إنّ نهج العجز والفقر والشوق والشكر الذي وضعه الأستاذ بديع الزمان طريقٌ مهمّ في بلوغ أفق العرفان، ومفاد هذا المنهج أن المرء قد يهيم شوقًا إلى ربه ويرقى في شدّ معنوي حقيقي إن أيقن أنه لا طاقة له بشيء دون إرادة الله وعنايته، وأن ما تحت يده ملك للغني المطلق ﷻ، فعاش في الدنيا كأنه سلطان وإن كان صِفر اليدين.

ومن الوسائل المهمة للغاية في بلوغ العرفان تلاوة القرآن بتدبّرٍ وإمعانٍ، فبالإبحار في سفينة العلامة المفسر "حمدي يازِرْ"[٥٠]، والبيضاوي، وأبي السعود، والآلوسي إلى أعماق القرآن وخصائصه يشعر العبد بأن القرآن ينزل الآن غضًّا طريًّا، هذا الإبحار يبلغ بالإنسان أفق العرفان، ويجعله دائمًا في شدّ معنوي.

ومن معالم هذا الطريق أن يقضي المرء حياته في تواضع وفناء وحياء لتنكشف له آفاق معرفة الله في وجدانه؛ ذكر العارف "يوسف بن الحسين الرازي"[٥١] أنّ التواضع هو المفتاح السري لكل خير، والكبر والأنانية هما مفتاح كلّ شر، فالمغرور أو الأناني حتى لو سجد وما رفع رأسه طوال عمره لما استطاع أن يبلغ الهدف، يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي الجليل:

(٥٠) **محمد حمدي يازِر** (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م - ١٣٦١هـ/١٩٤٢م): من أهم علماء الدين الذين عاشوا في أواخر الدولة العثمانية، أهم كتاباته تفسيره للقرآن الكريم باللغة التركية.

(٥١) **يوسف بن الحسين الرازي** (؟ - ٣٠٤هـ/٩١٦م): أبو يعقوب الرازي يوسف بن الحسين بن علي، زاهد صوفي، من العلماء الأدباء، كان شيخ الري في وقته، وهو من أقران ذي النون المصري.

"الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ"(٥٢).

وثمة وسائل أخرى تبلغ بالعبد أفق العرفان؛ لأن الطرق الموصلة إلى الله بعدد أنفاس المخلوقات.

(٥٢) **صحيح مسلم**، البر والصلة، ١٣٦؛ **سنن أبي داود**، اللباس، ٢٦ (واللفظ لأبي داود).

مخلَّفون رضُوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها

سـؤال: يقول الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُـونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُـولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٨١)**. إلامَ ترشد هذه الآية رجالَ خدمة الإيمان اليوم؟**

الجواب: قال المفسرون: نزلت هذه الآية في المنافقين، ذمًّا لأفعالهم وتصرفاتهـم حيال الجهاد في سـبيل الله؛ ومـع ذلك فإن الآية قد تضمنت دروسًـا وتوجيهـات مهمة جـدًّا لكل مؤمـنٍ يتقاعس عن إعـلاء كلمة الله ويخلـد إلـى الدعة والراحة؛ فالصحابـة الكرام وكثيرٌ مـن عظماء التابعين وتابعي التابعين وعلى رأسـهم السـيدة عائشة وسـيدنا أبو ذر وسيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ كانوا يعدون أنفسهم معنيّين من وجهٍ ما بكل آية نزلت فـي المنافقين، وذلك ما جعلهم يسـتنبطون منها كثيـرًا من العبر والعظات لأنفسهم.

ولا جرم أنه من الخطأ أن يتهم المؤمن نفسـه بالنفاق الاعتقادي؛ لأنَّ معنـاه الكفر، ويسـتحيل أن يرضى مؤمن لنفسـه الكفر-معـاذ الله-؛ فعلى المؤمـن أن يقـول دائمًا: "الحمد لله على كل حال سـوى الكفر والضلال" كما يقول الأسـتاذ النورسـي؛ أجل، إن من ارتضى الكفـر وقـع فيه؛ فليفرّ المسلم من الكفر والنفاق فراره من الثعبان والعقرب.

ابن آدم: مَن لديه قابلية لأن يكون كل شيء

لكن الإنسان لديه نقاط ضعف بشرية، ولمّا نظر الشيطان إلى سيدنا آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام رأى في بنيته -لا في فطرته وماهيته- وجوهًا كثيرة من القصور والضعف مثل: اتباع الهوى، وحب الشهرة والمنزلة، والشغف بالتصفيق والتهليل، وحب الخلود إلى الراحة، والخوف مما سوى الله، واختلاس مال الغير... فقال كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٦-١٧)، فهذه النقاط في الإنسان ملعب يصول فيه الشيطان ويجول، فالإنسان إذًا عرضة للضلال والنفاق والكفر.

وبتعبير آخر: لا يخلو كل المؤمنين عن صفات الكفر والنفاق والضلالة؛ لكن لا يصح ألبتة -بناء على هذا- أن ندعي أن من فيه هذه الصفات ضالٌّ ولا أن نحكم عليه بالكفر والنفاق؛ غير أن على الفرد أن يراقب سريرته دائمًا ليكتشف: أعنده هذه الصفات أم لا، فإن وجدها حاول أن يتنزه عنها فورًا.

تعساء يفرحون بخسارتهم

وبالرجوع إلى موضوعنا نقول: صدر الآية الواردة في السؤال يعبّر عن مدى فرح المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾

ومن يدري فلعلهم كانوا يعتقدون أنهم قد تصرفوا بعقلانية، وربما كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء يحاربون إمبراطورية الروم العظمى،

فسيكتوون بحرّ الصيف وسيواجهون قوة عظيمة، وسرعان ما يرتدون منهزمين؛ كانوا يطعنون في المجاهدين بسهام كلامهم هذا، ويستخفّون بهم، وهم سعداء بالخوض في مثل هذه المسائل.

تعلمون أن غزوة تبوك وقعت في شدة الحر، حتى إن درجة الحرارة في الصحراء حينها كانت تبلغ ٥٠-٦٠ درجة، وقد أثمرت الأشجار فرقَّت ظلالُها حتى راق للنفس الأمارة الركون إليها؛ وليس أشق على النفس من خوضِ حربٍ وتركِ ينابيع المياه العذبة والظلال والثمار اليانعة في شدة الحر، لا سيما أن الأعداء هم الروم الذين بلغوا الأردن.

وكان سلطان الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه يستهدف من غزوه للرومان في فترة عصيبة كهذه أن يعلن للجميع عن وجود قوة ذات سيادة في المدينة، وأن يبسط الأمن والأمان في الصحراء.

وأخيرًا رغم هذه الظروف القاسية خرج رسول الله ﷺ والصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين للقاء الرومان، فاستطاعوا بحول الله وقوته أن يدحروا العدو ويردّوه على أعقابه.

نعم، في جوٍّ قاسٍ كهذا كَره بضعُ مئات من المنافقين الخروجَ ورضوا بالقعود في بيوتهم متعللين بشتى المعاذير، وكان ثلاثة من المؤمنين لم ينفروا مع سيدنا رسول الله ﷺ؛ ومن يدري فلعلّهم اجتهدوا وأخطؤوا، ظانّين أن الخروج لمثل هذه الغزوة فرض كفاية؛ لكنهم -أيًّا كان السبب- تخلفوا عن رسول الله ﷺ، والتخلفُ في مثل هذا الموقف صفة من صفات النفاق، فعوقبوا فترة مؤقتة، إلا أن هؤلاء الأبطال ثبتوا في الامتحان فنجحوا نجاحًا باهرًا، وحظوا في النهاية بعفو الله تعالى.

وقد أشار الحق ﷻ بقوله: ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إلى أن ما كان من المنافقين وقع مخالفًا لأمر رسول الله ﷺ، ودلّ هذا أن الخروج

عن سبيل رسول الله ﷺ خطأ فادح قد يؤدي بالإنسان إلى الهلاك؛ فلا بدّ من امتثال أوامره ﷺ أيًّا كانت الظروف والأحوال.

نشرُ المرض

هؤلاء المنافقون كما تخلّفوا عن الإنفاق في سبيل الله ونأوا بأنفسهم عن تحمل المشاق والصعاب، قد شرعوا ينثرون بذور الفساد والفتنة فيمن حولهم ويؤثّرون فيهم بقولهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

نعم، ثمة أناس كنانتُهم ممتلئة بالفتنة والفساد على الدوام، الإفساد أقواسُهم والفتنةُ سهامُهم، يُشرعون أقواسهم ويطلقون سهام الفتنة دائمًا، يضخّمون الأمور ويهوّلون الأشياء التافهة ويحاولون الصد عن سبيل الخير.

فكان أمثال هؤلاء يترددون بين المهاجرين والأنصار يحاولون أن يثنوهم عن الحرب ضد الرومان بقولهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

ولفظ "يفقهون" معناه سبر المسألة وتناولها في إطار العلاقة بين السبب والنتيجة والسياق والسباق، فلدى النظر يتبين أن هذا اللفظ أولى هنا من لفظة "يعقلون" أو "يعلمون" اللتين تُستخدمان فيما يسهل فهمه واستيعابه، ولعل سرّ هذا الاختيار التعريض بأنه ليت لهم شيئًا من الفقه وآفاقه، وليتهم استوعبوا هذه العلاقة بين السبب والنتيجة، ولكن هيهات! فقد عجزوا عن إدراك أيّ من هذه الحقائق رغم كل هذه التوجيهات.

لو اعتَبر الناسُ بحوادث التاريخ لَمَا تكررت

لو قارنّا أحداث اليوم بالأمس لَما وجدنا فرقًا كبيرًا بينهما، لم يستطع منافقو الأمس استيعاب هذا، واليوم لم يقدر قوم على إدراك ضرورة

العمل في سبيل الله وأهميته؛ وما حدث بالأمس يتكرر اليوم، فنجد قومًا يستخفّون بالهجرة، ويحطون من شأن الجهاد في سبيل الله، ولا يُعنَون بتحليق الروح المحمدية في أرجاء العالم كافة، والمكانُ الذي لا تحلّق فوقه هذه الحقيقة لا فرق بينه وبين السجن؛ فلا بدّ من "الفقه" لنعزم على مجابهة شتى أنواع الصعاب في سبيل الوصول بهؤلاء السجناء إلى أجواء تبعث فيهم الفرح والسرور، لأن هذه المسألة لا تُدرَك بالنظرة السطحية.

والخلاصة أنه لا بدّ من تحمل شتى أنواع المشاق والصعاب مرة أخرى في سبيل إعلاء كلمة الله ليتجدد اتصال القلوب بالله، وذلك بإزالة كل عائق يحول بين الله وبين القلوب، فلْنسعَ دائمًا بأقصى سرعة دون توانٍ أو فتور لنغمر القلوب بإلهامات أرواحنا، ولنبلغ الآخرين بموروث سماوي أربى على ألف عام؛ وليُعلم أن سبيل النجاة من نار جهنم في الآخرة مرهون بتحمل الحرّ هنا؛ أجل، إن المعاناة هنا سبيل إلى الراحة هناك، والمشقة هنا طريق إلى اليسر هناك.

القرآن والاكتشافات العلمية

سـؤال: كلما ذُكر اكتشاف أو اختراع علمي قيل: في القرآن الكريم إشارة إليـه، فما المنهـج الذي على الباحثين أن يسـلكوه عندما يبحثـون الحقائق العلمية في القرآن الكريم؟ وما الرسـائل التي يحملها هذا القسم من الآيات للباحثين خاصة في العلوم الطبيعية؟

الجـواب: لله تبارك وتعالـى كتابان اثنان: القرآن والكون، فيسـتحيل تَعارُضهما.

أجـل، فالقـرآن المعجـز البيان مصـدره صفـة الله "الـكلام"، وكتاب الكـون الكبيرُ مصدره صفة الله "القـدرة والإرادة"، والقرآن الكريم ترجمةٌ أزلية وقولٌ شـارح وبرهانٌ واضح لكتاب الكون، إن القرآن يشـرح كتاب الكون فيستضيء الكون بنوره، وبتعبيرٍ آخر: القرآنُ يفسّر الأوامرَ التكوينية والأسرار الإلهية والأفعال الربانية.

ولما كان الفرقان العظيم الشأن يفسِّر الكون ويشرحه، تضمن إشارات لبعـض العلـوم والفنـون التي تبحث في حـوادث الكون؛ فبَحَـث العلماء منـذ قديـم الزمان فـي الآيات التي تشـير إلـى الحقائق العلميـة كما التي في المسـائل الإيمانية والتعبدية والأخلاقية، وكانت لهم آرء في تفسـيرها وتأويلها.

إليكم مثلًا الإمام ابن جرير الطبري ﷺ (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): جاءت آراؤه قريبة من نتائج الأبحاث العلمية في زماننا؛ أجل، قام هذا المفسِّر العظيم منذ أكثر من ألف سنة بتفسيرات وتأويلات تفوق المستوى العلمي في عصره، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ٢٢/١٥) ذكر تلقيح الرياح للأشجار، والأغرب أنه عرض لتلقيح الرياح السحابَ لينزل المطر، رغم أنه عاش في عصر لم تكن له دراية بعدُ بأن في السحاب شحنات موجبة وسالبة.

وليس ابن جرير فحسب، بل هناك مفسِّرون آخرون أتحفونا بآراء متميزة في تفسير آيات الأوامر التكوينية، غير أن هذه المسألة لم تُفرد بالدراسة في فرع علمي متخصص مستقل إلا في القرنين الأخيرين، بدأ العلماء في زماننا يبحثون المسائل العلمية في القرآن الكريم لكن في ظل العلم الوضعي في هذا العصر.

وممن عرض لتفسير بعض الآيات في الحقائق العلمية: الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) وأنجبُ طلابه الشيخ رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م)، إلا أنهما قد خالفا في بعض آرائهما ما ذهب إليه المفسرون.

وقام العالم المصري طنطاوي جوهري (ت ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م) بتفسير الآيات العلمية في القرآن الكريم في ضوء التطورات الحديثة في العلم والفن، وسمى كتابه "الجواهر في تفسير القرآن الكريم"، لا نستطيع القول بأن هذا الكتاب على المستوى المطلوب في في كل موضع، لكنه محاولة لتفسير كثير من الآيات في ضوء نتائج العلم الحديث، وعدّه بعض العلماء موسوعة أكثر منه تفسيرًا.

وكان لعلماء آخرين جهدٌ في هذا الأمر أيضًا.

وحمادى القول أن جهود كثير من العلماء في الآونة الأخيرة فَتحت آفاقًا جديدة في التفسير العلمي للقرآن الكريم، وقامت حوله دراسات كثيرة في العالم الإسلامي، وممن قاموا بدراسات مهمة في هذا المجال الأستاذ الدكتور "زغلول النجار"، فقد تابعتُ برامجه على التلفاز زمنًا طويلًا؛ إن هذا العالم الكبير قامة عظيمة ذات مستوى علمي فائق، سبَرَ أغوار القرآن الكريم، ولم يجد صعوبة في الحديث عن هذا المجال، وعبّر عن المسائل التي يتناولها بدقة تامة.

أما الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي فلم يفصّل كثيرًا في هذا الموضوع، واكتفى بشرح آيات دار حولها جدل في زمانه مثل: انبجاس الماء من الحجر بضربةٍ من عصا سيدنا موسى عليه السلام، وجلب "الذي عنده علمٌ من الكتاب" عرشَ بلقيس؛ لكنه أشار إلى أن الحقائق العلمية الواردة في معجزات الأنبياء هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه العلم والاختراع في الماضي والحاضر والمستقبل، وأن فيها تشجيعًا للناس على الدراسة والبحث، يقول: "إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء إنما يخطّ الحدود النهائية لأقصى ما يمكن أن يصل إليه البشر في مجال العلوم والصناعات، ويشير بها إلى أبعد نهاياتها وغايةِ ما يممكن أن تحقّقه البشرية من أهداف، فهو بهذا يعيّن أبعد الأهداف النهائية لها ويحددها، ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضّها على بلوغ تلك الغاية ويسوقها إليها، إذ كما أن الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه، فالمستقبل أيضًا حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله"(٥٣)؛ وفي رأيي أن وجهة النظر هذه لا بدّ من العناية بها كثيرًا.

(٥٣) سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة العشرون، المقام الثاني، ص ٢٧٨.

منزلة الاكتشافات العلمية في المقاصد العامة للقرآن الكريم

أما عن نسبة الاكتشافات والاختراعات العلمية المذكورة في القرآن الكريم، فقد ذُكرت بقدر منزلة هذه الاكتشافات في المقاصد العامة للقرآن الكريم؛ والنظرة الشاملة إلى القرآن المعجز البيان تكشف أن من أولوياته توجيهَ البشر إلى طريق السعادة الأخروية من خلال بيانه لأركان الإيمان والإسلام، وضمانَ سعادتهم الدنيوية بما شرع من أحكام ونُظُم للفرد والأسرة، أي إنه أعطى الأولوية للمسائل الحياتية التي تهيئ للإنسان سبل السعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة.

والنظر إلى المسألة في ضوء هذه المعايير يبين أن مسائل الاكتشافات والاختراعات العلمية جاءت في القرآن في درجة تالية للموضوعات الأساسية الكفيلة بسعادة الدارين، ثم إن القرآن الكريم كتاب يخاطب الناس جميعًا لا أرباب العلوم فحسب، وكما أن موضوعاته عامة للناس جميعًا فكذلك أسلوبه يفهمه غالب الناس، ولو أن القرآن راعى أفق أرباب العلوم فحسب -وهم ٥٪ لا أكثر- وأورد موضوعاته وفقًا لمستواهم، لَما استفاد منه ٩٥٪ من البشر.

عُقدة الدُّونية والتأويلات المتكلفة

إن من المنهج المستهجَن الواجب تجنبه نسبةَ أشياء غير لائقة بالقرآن الكريم إليه، والتكلفَ في تفسير آيات الحقائق العلمية، والسعيَ وراء التميز فيها، أمّا تقويم حقائق القرآن الكريم في ضوء نتائج العلوم الوضعية فهو سوء أدب مع كلام الله تعالى؛ أجل، إن السعي وراء تطويع تفسير القرآن الكريم للقضايا العلمية والطبيعية -وكأن تلك العلوم واختراعاتها

هي الأصل- والاستعانةَ بها لإثبات صحة قضايا القرآن الكريم منهج لا يتناسب مع كلام الله ألبتة.

أمر آخر: إن للقرآن الكريم أسلوبًا خاصًّا به في عرض القضايا العلمية، وهذا الأسلوب مناسب لمستوى كلّ من المخاطبين في الماضي ومن قطعوا مسافات هائلة في العلوم والفنون اليوم، أي ليس هناك أيّ تضاد أو تعارض بين ذكره لحقائق علمية تُكتشف اليوم وكونه آيات بيّنات راعت مستوى فهم الناس في ذلك العصر، فالقرآن الكريم تحدّث مثلًا عن المراحل التي يمرّ بها الجنين في بطن أمه في سورة الحج والمؤمنون وغافر وغيرها، فقرأها الأولون وفهموها واستفادوا منها وَفْقًا لأفق إدراكهم، وأخذت أطباءَ النساء والتوليد في عصرنا الدهشةُ والإعجابُ أمام هذه الحقائق التي بيّنها القرآن الكريم إجمالًا بأسلوبه الخاصّ.

مسألة أخرى لا بدّ من مراعاتها عند تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في ظل التطورات العلمية: ينبغي أن يُذكر أنّ في المسألة احتمالات ممكنة وأنه لا قطع فيها، أي قد تتضمن هذه الآيات والأحاديث معاني أخرى، لا سيما أننا لو أجرينا دراسة في مجال جديدٍ وقطعنا بتفسير الآيات فيها قبل أن تتضح ماهيةُ المسائل العلمية التي نتناولها فإن وقوعنا في أخطاء فادحة وارد.

ولا بدّ أيضًا من الرجوع إلى الدراسات السابقة في التفسير، للوقوف على ما ذكرته المراجع الرئيسية حتى الآن في الموضوع.

ومن المفيد هنا التطرق إلى المسألة التالية: ينبغي لمن سيعمل في التفسير العلمي أن يكون بدايةً على دراية كبيرة بالعلوم الشرعية: يتقن اللغة العربية ويعرف دقائقها وقواعدها، ويكون على دراية بعلم التفسير والحديث والفقه وأصوله وأصول الدين... إلخ، وأن يتزود بمعلومات في العلوم الطبيعية

بقدر يؤهله لفهم موضوعات هذه العلوم؛ وكذلك يجب على الباحث في العلوم الوضعية أن يتزود بمعارف موسوعية في العلوم الدينية، كما يجب عليه أن يسبر أغوار تخصصه كي يتمكن من الوصول إلى الحقيقة.

والمؤسف أن هذين العِلْمين يسيران الآن في اتجاهين مختلفين، فترى متخصصًا في العلوم الطبيعية يغذّ السير في مجاله ولا يعرف عن الدين إلا قليلًا، ومعنى "لا يعرف" أن التزود بالمعلومات الأولية ليس معناه العلم بالدين، بل إنْ كان يحفظ القرآن كله ويحفظ صحيح البخاري أيضًا فلا يعني هذا أنه على علم تام بدينه، لأنه لا بد من معرفة الأصول حتى يتسنى للمرء الفهم الصحيح لمقاصد الشريعة.

قلوب مؤمنة عاشقة للاكتشافات

إن الغرب اليوم ينقّب ويدرس الحوادث والموجودات بما يجريه من دراسات في مجال العلوم الطبيعية، وليس لنا إلا أن نحتار ونعجب من إقدامهم وجهودهم في هذه الدراسات، لكنهم لا يعرفون الله ورسوله ﷺ، فصاغوا كلَّ شيء في قالب ضيق في إطار الحدود المادية للأشياء، فجاءت الأنظمة التي وضعوها أقرب إلى المادية أو الوضعية أو الطبيعية، أي إن أفق الباحث الغربي محدود بما تسمح به هذه الأنظمةُ التي ترى المادة كلّ شيء.

يؤكد الباحثون في تاريخ العلم والفلسفة أن العلماء المسلمين قاموا بدراسات مذهلة في العلوم والفنون حتى القرن الخامس الهجري، وهذه الفترة هي عصر نهضتنا؛ أجل، لقد أجرى العلماء المسلمون دراسات خطيرة في الطب والهندسة والفلك يوم لم يكن للغرب أي تصور عن مثل هذه المسائل، وابتكروا اختراعات هائلة، لكن منذ عشرة قرون أي بعد القرن الخامس الهجري نأسف أنا أهملنا هذا الأمر وتركناه حيث هو، فاستلم الغرب الراية وتقدموا نحو الأمام كثيرًا، وبهذا تسنى لهم

وضع الحجر الأساس للنظام الحالي للعلوم الطبيعية، فأسَّسوا الأمر على أفكارهم، وقيّموا الأشياء والأحداث وفقًا لآرائهم.

إن للعقل المجرد حدًّا ينتهي إليه في إدراك الحقائق، فهو إنما يدرك قسمًا منها فقط، وله حد معلوم في توضيحه للمسائل محل البحث، لكن هناك مسائل لا تُفهم إلا بالوحي، والقولُ الفصلُ فيها للوحي وحده.

إذًا لا بدّ من إعادة بناء النظام العلمي والبحثي على توازن صحيح يراعي الروح والميتافيزيقا إلى جانب المادة، وعندئذ يمكنكم أن تقيّموا بدقة الأشياءَ التي دققتموها بالتلسكوب والميكرسكوب وأشعة إكس.

ولا يعني هذا أننا نقول: إنّ كلّ ما اكتشفه الغرب خطأ؛ لأن لوجود العقل حكمة، فكم مِن حقائق ما اكتُشفت إلا اعتمادًا على العقل، فوجوده له حكمة، لكن لا بدّ من إعادة دراسة جميع النظريات المكتشفة حديثًا استنادًا إلى المادة فقط، وتقويمها بالتحليل والنقد والتمييز بين صحيحها وسقيمها، وهذا منوط بإعادة بحث العلوم الوضعية في مدار القرآن الكريم وفي إطار عقيدتنا، ولا ينجح في هذا إلا من يفهم القرآن الكريم فهمًا صحيحًا.

ويتحدث البعض في هذه المرحلة عن استيراد العلوم و"أَسْلَمَتِها"، وهي محاولة قاصرة لا تُنتج، فهي كالثوب المستعار؛ والواجب هو تناول المسائل بأصولها، وتقويمها بالتحليل والنقد في ضوء القاسم المشترك بين العقل السليم والحس السليم والخبر المتواتر؛ وبهذا نصل إلى نتائج سليمة، وهذا مرهون بتربية عُشّاق الحقيقة والعلم والاختراع.

فإن رغب المسلمون في تأليف كتاب تفسير للقرآن الكريم يخاطب مستوى إنسان العصر فلا بدّ أولًا من تشكيل لجنة من المتخصصين لهم باعٌ واسع في كافة العلوم، فتتدارس المسائل فيما بينها أولًا، وتميز

الصحيح من السقيم في ضوء معايير علم الأصول وعلم أصول الدين، ولا تثبت أي تفسير أو تأويل إلا بعد اتفاق الوعي الجماعي.

فإن شُكلت لجنة كهذه من المتخصصين في العلوم الإسلامية والعلوم الوضعية فلن يشوب هذا العمل -بعون الله وفضله- تهافت أو خيالات، ولن يكون عرضة للتأويلات المتكلفة.

أملنا ورجاؤنا أن يقدِّم علماءُ عصرنا الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان كلَّ جهودهم في هذا، ويقولوا ما ينبغي قولُه في التفسير المنشود استنادًا إلى كلّ تجاربهم؛ وهذا بعضُ ما للكتاب العزيز القرآن الكريم علينا -نحن مسلمي اليوم- من واجب الوفاء والولاء له.

من المعرفة إلى السلوك

سـؤال: كان الصحابة الكرام ﷺ إذا ما نزلت آيةٌ أو سـورةٌ من القرآن الكريم سـارعوا إلى تطبيقها في حياتهم، أما نحن فلا نسـتطيع أن ننهج هذا النهج فيما نعلَمه، فما السـبب يا تُرى في عجزنـا عن تحويل العلم إلى عمل وسلوك؟ وكيف يتأتى لنا هذا؟

الجـواب: حتـى يتسـنى لنـا تحويـل المعرفة إلى سـلوك لا بـدّ أولًا مـن أن تتجـاوز هذه المعرفـة كونَها معلومات سـطحية بحتـة بأن تتحول إلـى "علـم"؛ والعلـم يعنـي إدراك جوهـر المسـألة وماهيتَهـا واسـتيعابَها بوعـي وفكرٍ منظم؛ أمّا إن ظلت معارفنا معلومات سـطحية ليس إلّا فإنها لن تثير فينا أيَّ حركة أو نشاط؛ لأنها لا تنفذ إلى القلب؛ وعلى ذلك فأول ما يجب القيام به لتحويل المعرفة إلى سـلوك هو السـعي إلى بلوغ العلم الحقيقي بشـوق ونهَم لا يعرف الشبع، ثم إلى بلوغ اليقين؛ قال الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٢٠/١١٤).

علـى كلِّ واحـد مِنّا أن يسـعى لطلب العلم، ويسـير علـى درب "هل مـن مزيد؟" بشـوقٍ كشـوق الأنبيـاء، وألا يقنـع بما حصّله مـن علم ألبتة، وأن يتسـاءل: يـا تُرى هل هناك شـيء آخـر وراء هذا؟، وأن يسـعى دائمًا إلى الأعماق.

مثـلًا أُمرنـا بقـراءة القرآن الكريم أمـرًا مطلقًا، فإذا لم نسـعَ إلى فهم القـرآن الكريـم وقراءتـه بتدبـر وإمعان فلا جـرم أن خزائنه سـتُغلق علينا ولـو كنّـا من حفّاظه، وسـيتعذر علينا الاسـتفادة من هـذا المنهل النوراني الـذي يضيء العوالم كلها؛ لأنّ القـراءة بحضورٍ وإمعان تفيض على قلب الإنسان معاني لا يمكن تحصيلها بطريق آخر.

أداء شكر العلم

بعـد المرحلة الأولى أي مرحلةِ تحويلِ المعلومات إلى معرفة، ينبغي ملاحظة ما يلي:

قـد يبلـغ الإنسـان عمقًا علميًّا ممتازًا، ثم يبلـغ درجة علم اليقين، بل حتى أفق عين اليقين، لكنه إن لم يحوّل علمه إلى عمل بعد بلوغ هذا الأفق فإنـه لـن يتمكن من إدراك حقيقة الألوهية بأسـمائها وصفاتها وشـؤوناتها على الوجه الأكمل، ولن يسـتطيع أن يكون عبدًا صادقًا لمولاه ﷻ؛ رُوِيَ عـن رسـول الله ﷺ أنه قال: "**مَنْ عَمِـلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ الله مَا لَـمْ يَعْلَمْ**"(٥٤)؛ فسبيل الحصول على ميراث العلوم التي بشّر بها هذا القول المبارك هو أن يعمـل المـرء بما يعلم، إذًا على من بلَّغه الحقُّ تعالى مبلغًا في العلم وميّزَه علـى غيـره أن يعطي هذه الميزة حقهـا دون أن يرى نفسـه متميزًا، وذلك بأن يسعى ليشكر ما أُوتي من العلم، فلو كان غيرُه يصلي في اليوم أربعين ركعة، فليسـأل نفسـه: "ما لي لا أصلّي ثمانين ركعة شكرًا لهذه النعم التي أغدقها الله علي؟"، ولْيُبْحِرْ في عالم الإحسان.

وإليكم هذه الحادثة على سـبيل الاسـتطراد: ذات يـوم قالت لي أمي رحمهـا الله: "يـا حاجّ، "حزبُ أنوار الحقائق النورية"(٥٥) وِردي اليوميّ، فيا

(٥٤) أبو نعيم: **حلية الأولياء**، ١٥/١٠.

(٥٥) **حزب أنوار الحقائق النورية**: كتاب أدعية فيها سور من القرآن وبعض الأدعية والأوراد، أكثر من مائة صفحة.

ترى هل هناك شيء آخر توصيني بقراءته؟"

إنها أصداء وأنفَاس أفق "هل من مزيد؟".

أجـل، على من حظي بلطف الله وإحسـانه أن يتوجـه إليه تعالى بقدر هذا اللطف والإحسان، تتحدث السيدة عائشة ﵂ عن عبادة سيدنا رسول الله ﷺ فتقـول: "إن نبـي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه"، وفي هذا تذكّروا إن شئتم قول الإمام البوصيري ﵀:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنِ اشْتَكَتْ قَدَماهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

وأمام هذا المشـهد سـألته أم المؤمنين السـيدة عائشة ﵂: "لِمَ تصنـع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟"، فقال:

"**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**"(٥٦)

وهذا القول فيه إشارة مهمة للشعور بالعبودية: على كلّ عبدٍ أن يحمد الله ويشـكره، كُلٌّ علـى قـدر ما أفاض عليـه من ألطاف وإحسـان؛ فينبغي أن يكون عمل الإنسان على وفق مكتسباته العلمية.

العقل العملي

ولكم أن تتذكروا في هذا الصدد فكرة الفيلسـوف الألماني "إيمانويل كانـط" فـي مؤلَّفه "نقدُ العقل المجرَّد": أنه لا سـبيل إلـى معرفة الله تعالى بالعقل المجرد، ولا يمكن الوصول إليها أي إلى آفاق معرفته إلا بالعمل، فإنْ تحقق هذا -أي تَحوَّل العلمُ إلى عمل- تكونت لدى الإنسـان معرفة إلهيـة عميقـة، ثـم محبـة إلهيـة واسـعة، حتى إنـه عندما يذكـر الله تجيش مشـاعره، فيتمنـى من صميم قلبه أن تأتي سـاعة لقاء مـولاه ﷻ ليتخلص فيها من وحشة الدنيا، فتراه يقول: اللهم لقاءَك، اللهم لقاءَك!

(٥٦) صحيح البخاري، التفسير، سورة الفتح، ٢؛ صحيح مسلم، صفات المنافقين، ٧٩.

يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "اعلمْ يقينًا أن أسمى غاية للخلق وأعظمَ نتيجة للفطرة الإنسانية هي "الإيمان بالله"، واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو "معرفة الله" التي في ذلك الإيمان، واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن وأحلى نعمة هي "محبة الله" النابعة من تلك المعرفة، واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه هو اللذة الروحية المترشحة من تلك المحبة"(٥٧).

لا تُطلب اللذة الروحية التي ذكرها الأستاذ بديع الزمان، بل يهبها الله تعالى لعبده فضلًا منه؛ فإن حصلت هذه اللذة الروحية فسيظهر الشوق لرؤية جمال الله، وما كلُّ الجماليات إلا ظلٌّ لِظلِّ ظلِّ تجلي جماله، سيظهر ذلك الشوق كأنه شلّال هادر في داخلنا، فإن لم نشعر بمثل هذا الشوق والاشتياق في أنفسنا فهذا يعني أننا ما زلنا في الطريق ولم نكمل بعدُ هذه المسيرة، ولا أرمي بكلامي هذا إلى إحباط الآمال أو التيئيس؛ لكن علينا أن نعرف أن هذا هو حقّ الطريق الذي نسير فيه؛ ولذا أقول مرة أخرى: تعمَّقوا في العلم المجرد كما تشاؤون، ولكن إن لم تحوّلوا هذا العلم إلى عمل فستظلون حيث أنتم، فإن فعلتم إلا أنكم لم تتعمقوا في هذا العمل لتصلوا منه إلى العرفان فستظلون كذلك حيث أنتم، ولن تتجاوزوا الصور والشكليات، حتى إن أداءكم للعبادات والطاعات سيكون من باب إسقاط الفرض فحسب؛ نعم، تقومون بحركات لكنكم لن تصلوا بها إلى معرفة الله، ولن تشعروا بمحبته، ولن تبلغوا اللذة الروحية.

ويشبّه القرآن الكريم من لم يعمل بما علِم بقوله: ﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ (سُورَةُ الْجُمُعَةِ: ٥/٦٢)؛ لذا لا بدّ أن يكون الإنسان متحمسًا وحذرًا في هذه المسألة كيلا يتردّى في هذا الدّرْك.

(٥٧) سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقدمة، ص ٢٦٩.

أجل، إن لم يعمل المرء بما يعلم، ولم يُفعِّل علمه في حياته الخاصة والاجتماعية فسيغدو علمُه كأنه حِملٌ لا يُطاق، وسيندرج تحت العلم غير النافع وغير المثمر؛ من أجل ذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من العلم المجرد قائلًا: **"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ"**(٥٨)، وفي هذا توجيه لنا إلى الاعتصام بالدعاء والاستفادة من طاقة التضرع إلى الله في تحويل المعرفة إلى سلوك.

آفاق تتفتح بالقراءة الجماعية

إن العمل الفردي من قراءة وتفكر وبحث وتدقيق في دراسة الحوادث والأشياء وتقويم علاقة الإنسان بالكون وبربّه أنشطةٌ ممتعة مفيدة، لكن الفضائل المستفادة من الكينونة في جو وبيئة مناسبة مع ثُلَّة من الأصفياء التقَوا على فكر ومنهج واحد تبدو متميزة أيمّا تميز، فهذا الجو وهذه المجموعة من يلج فيهما يغدو ذا صبغة جديدة تَفتح له آفاقًا جديدة؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ١٠/٤٨).

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ: **"يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ"**(٥٩).

فالآية والحديث يشيران إلى فضيلة الكينونة مع الجماعة، ويحذّر النبي ﷺ في حديث آخر من خطر البعد عن الجماعة، فيقول:

"عَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ"(٦٠).

(٥٨) صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٧٣.

(٥٩) سنن الترمذي، الفتن، ٧.

(٦٠) سنن أبي داود، الصلاة، ٤٦.

يبين النبي صلوات ربي وسلامه عليه أنّ الذئب لا يأكل إلا مَن يتحرك خِلاف الوعي الجماعي ويخرج من الحلقة، ولا يتحرك مع الجماعة ولا يتبع خطواتها؛ لذا ينبغي أن نجتهد في البقاء داخل إطار الجماعة، وأن نساند بعضنا، وأن نمتنع عن الحركة وحدنا.

أمر آخر لا بدّ منه هنا: لنجنّبْ مجالسنا اللغو واللهو، ولنستثمرها في التعمق بالعلم والمعرفة دون أن نضيّع ولو ثانية من وقتنا، ويؤلمني أنَّه لا يمكن القول بأنّا قد عُنينا بهذا الموضوع كما يجب، بل حتى اجتماعاتنا من أجل الدين والإيمان وخدمتهما قد نشغلها بمسائل تافهة لا فائدة منها في حياتنا الدنيوية والأخروية، وبتصرفاتٍ تخلو من الجدّ والوقار وتسوقنا إلى الغفلة؛ أرى أن على القلب المؤمن أن يوصد الباب أمام هذه الترّهات، وأن يقضي حياته على نسق نظام التكايا والزوايا؛ نرى في الصحاح أن النبي ﷺ لم يكن يضحك إلا نادرًا؛ نعم، كان وجهه المبارك دائم البشر والتبسم، لكن ذلك كان مع جد ووقار، كان في كلِ أحواله كأنه بين يدي ربه، ومن رأى أحواله وأفعاله بل ونظراته تذكّرَ اللهَ فورًا.

وحمادى القول أن علينا أن نستثمر مجالسنا جيدًا في بلوغ أفق القلب والروح، حتى نتزود بالعلم النافع ونجعلَ هذا العلم حياةً لحياتنا؛ أجل، يجب أن تكون أحاسيسنا وأفكارنا ومشاعرنا ومحاوراتنا ومذاكراتنا مستقيمة أتم ما يكون، وأن تتجه إلى تعميق أفق القلب والروح وإثرائهما لنهتدي إلى الطريق السوي المستقيم دون تخبطٍ أو انحرافٍ يمينًا ويسارًا أو تيهٍ أو انزلاقٍ إلى منعطفات جانبية.

حقُّ الجوار

سؤال: أُهملت في الأيام الراهنة كثيرٌ من الحقوق، ومنها حقُّ الجوار، فما أهمية رعاية هذا الحق في الإسلام؟ وما ثمار رعاية هذا الحق في بناء مجتمعٍ صحيٍّ سليم؟

الجـواب: إن رعاية حق الجوار من الأمـور التي تحدث عنها القرآن الكريـم والسـنة النبويـة المطهـرة بدقّـة بالغة، وفـي هذا يقول ربنـا تبارك وتعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَـيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَـاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٣٦).

جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في الآية الكريمة تلو الأمر بعبودية الله ﷻ وعدم الإشـراك به، والواقـع أن حقّ الله تعالى يعقبه حقُّ رسـوله ﷺ علميًّا، وهو حقٌّ تكون مراعاته بمحبته وتوقيره واتباعه والشوق إليه؛ لأننا إنما عرفنا ربنا تبارك وتعالى بفضله ﷻ، وبه استطعنا قراءة الكون وتفسيرَه علـى النحـو الصحيـح، وبمـا حمله من رسـالة أدركنـا أننا خُلقنـا وبُعثنا إلى الدنيا من أجل حياة أبدية، فمنه تعلمنا الحقيقة؛ فنحن مدينون له بكلّ مـا لدينا؛ وإنما ذكرت الآية الكريمة حـقّ الوالدين في المرتبة الثانية لأنها تتنـاول المسـألة من الناحية العملية؛ وما يشـير إلى هـذا هو أن صدر الآية كان في الأمر بالعبودية لله سبحانه لا في الإيمان به.

ثم أمرت الآية -على الترتيب- بالإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، وبعدها أوصت بمراعاة حق الجوار:

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.

أمرت الآية بالإحسان إلى الجيران أقارب كانوا أم أباعد، من القريبين أو من البعيدين، وهذا يشمل كل مَن قرب أو بعد، ومَن بجوارك عن يمينك ويسارك، ومَن هو أمامك أو خلفك ممن ينبغي الإحسان إليه.

مِن طُرُق الإيمان الكامل

في هذا الباب حديث صحيح ذو قدر أخرجه البخاري ومسلم، يتحدث عن أهمية مراعاة حق الجوار، يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

"مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"(٦١).

والورثة هم الأقارب كالأصول والفروع والأزواج، فدلّ قول سيدنا رسول الله ﷺ -وهو وحي غير متلوّ- على مدى عظم حق الجوار، ولا ندري ما وصايا جبريل عليه السلام لنبينا ﷺ فيها؛ لأن رسول الله ﷺ لم يفصّل في المسألة، لكن هذا الحديث يدل أن جبريل عليه السلام قد أكثر في هذا حتى إن رسول الله ﷺ أشار إلى عظم هذه الوصايا وأهميتها بقوله: **"حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"**.

وثمة حديث آخر يعظّم حقّ الجوار ويربطه بالإيمان:

"مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ"(٦٢)، يشير الحديث إلى أن الإحسان إلى الجيران من شروط الحصول على كمال الإيمان.

(٦١) صحيح البخاري، الأدب، ٢٨؛ صحيح مسلم، البر والصلة، ١٤١.

(٦٢) صحيح البخاري، الرقاق، ٢٣؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٧٧ (واللفظ لمسلم).

وثمة أمر آخر يستوقفنا في هذا الحديث الشريف: ذكرُ الإيمان بالله يتضمن أركان الإيمان الأخرى، ومنها الإيمان بالآخرة؛ فتخصيص الإيمان بالآخرة بالذكر لأنها دار الجزاء على ما يقدمه الإنسان من خير وبرّ في حياته، فكل إحسان هنا سيُضاعَف ويعود بالخير على صاحبه في الآخرة؛ فما خُصّ الإيمان بالآخرة إلا لأنها حوضٌ تجري إليه الحسنات، وتثمر فيها البذور التي زُرعت في الدنيا.

الجار الصالح بيده مفتاحُ السعادة الأبدية

في حديث آخر يقول سيدنا رسول الله ﷺ مُنذِرًا ومنبّهًا: **"مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ"**(٦٣).

وذات يوم قال ﷺ: **"وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ!"** قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **"الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"**(٦٤).

إن في كثرة الحديث عن حق الجوار في الكتاب والسنة دلالة على عظمه وأهميته؛ فعلى المسلم إذًا أن يحتضن بمروءته كل جيرانه الأقارب والأباعد.

أجل، إن القلب المؤمن يتقاسم مع جيرانه كل ما لديه من جماليات؛ وهذا ما تقتضيه أخلاق المسلم.

وعندما نذكر حق الجوار يتبادر إلى الذهن أولًا الإطعام والسقيا والكسوة، ومعلوم أن الزكاة لا تجوز إلا للمسلم، لكن ما عداها من التبرعات يجوز لغير المسلمين، فمن الممكن التصدق على الجيران الأقارب والأباعد ولو لم يكونوا من المسلمين؛ فبهذه الصدقات تُقضى

(٦٣) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٢٥٩/١؛ الحاكم: **المستدرك**، ١٥/٢.

(٦٤) **صحيح البخاري**، الأدب، ٢٩؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ٧٣.

الحاجات الأولية للإنسان، فلا ينبغي أن نستسيغ ألبتة ترك الجيران -أيًّا كانوا- يتلوَّون من الجوع، خاصة إن كانت البلاد تمرّ بفقر وضائقة، بل لا بد من مساعدتهم كلهم.

ومن طرق الإحسان المهمة جدًّا اصطحابُ الجيران وإرشادهم ومساعدتهم في فرصة عمل يكتسبون منها.

ونُخطئ إذا حصرنا حق الجوار في الصدقات، فلمعاملة الجيران آداب مهمة للغاية ينبغي مراعاتها، منها تحيتهم عند لقائهم، والاطمئنان على صحتهم والسؤال عن أحوالهم، وتهيئة جوٍّ للتعارف بأن ندعوهم ونزورهم، وشقّ سبل تؤدي إلى التّحاب، وبذل الجهد في تنقية أذهانهم من الأفكار السلبية إن وُجدت.

وأخُص هنا المؤمن المغترب في بلد غير إسلامي، فمن المهم جدًّا أن يقيم علاقات مع جيرانه جميعًا، ويغتنم شتى المناسبات لزيارتهم وإدخال السرور عليهم بالهدايا ونحوها؛ فبهذا تستطيع القلوب المؤمنة أن تفتح قلوب جيرانها وتزيل ما لديها من مشاعر سلبية ضد الإسلام والمسلمين؛ وأجزم أننا لو نظرنا إلى المسألة من هذا الوجه فسندرك بشكل أفضل أن علينا ألا نحصر المسألة في دائرة ضيقة كالمساعدات المادية فحسب.

بيئة الذنوب مناخ للآفات

سُئِل رسول الله ﷺ: أَيُّ الذنب عند الله أكبرُ؟ قَالَ: **"أَنْ تَجْعَلَ لِلهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"** قيل: ثم أيّ؟ قال: **"ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ"** قيل: ثم أيّ؟ قال: **"أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ"**(٦٥).

(٦٥) صحيح البخاري، التفسير، سورة الفرقان، ٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٤١.

نفهم من هذا الحديث أن الفحشاء التي حُرِّمت قطعيًّا يتضاعف إثمُها عندما تُرتكب بشكل يؤذي الجار، وهذا أمر آخر جديرٌ بأن نقف عنده.

معلوم أن المحرمات والمنكرات على دركَات، فَأَن يُسنَد إلى الذات الإلهية ما لا يليق أمرٌ منكرٌ أشار القرآن الكريم إلى عظم ذنبه، فقال:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (سُورَةُ مَرْيَمَ: ١٩/٨٨-٩٢).

ومثل ذلك منكرات أخرى تكاد السموات يتفطرن من اقترافها، منها زنا المحارم، وكذا الجيران كما دلّ الحديث، فإنه ذنب مضاعف أضعافًا كثيرة؛ لأن الشعور الذي لا بدّ أن يسود بين الأقارب والجيران هو الثقة والأمان، فأي خطيئة تقع من إنسان يُفترَض أنه أمين موثوق به ليست كغيرها، بل إنها تكبر وتتضاعف وتأخذ أبعادًا مختلفة.

جسور صداقة تُقام بسلطانية عاشوراء

المؤسف أن الحقيقة التي لا تُنْكَر هي حالة الانفصام الخطير في علاقاتنا بالجيران، فقِيَمُنا تشرذمت وتشتتت، حتى إن في العالم الإسلامي أناسًا محبوسين في عالمهم الخاص في بيوت كالعُلَب، لا يطرقون باب الجيران إلا للتحذير والإنذار أو للإعراب عن انزعاجهم من جلبة أو ضوضاء؛ فلنبذل قصارى جهدنا وكلّ إمكانياتنا للقضاء على هذه المشكلة، لقد غدت مرضًا مزمنًا في زماننا، ولكن لا ننسى أن تغيير المفاهيم والأفكار الراسخة لدى الناس ليس أمرًا سهلًا أو هيّنًا يمكن تحقيقه بسرعة وكأننا نخلع قميصًا ونرمي به جانبًا، فلنلحّ على هذا الأمر ولنبذل الجهد بلا ملل أو سأم، فلكم مثلًا أن تستغلوا يوم عاشوراء

لتهدوا جيرانكم سلطانيةً من حلوى العاشوراء، أو مناسبةً مهمة لجيرانكم كبعض أعيادهم لتتواصلوا معهم؛ وتعلمون أن الإنسان عبد الإحسان، وهو مخلوق كريم، فسيظهر صدى هذا الإحسان عاجلًا أو آجلًا؛ نعم، قد يختبرونكم فترة طويلة، لكن إذا أيقنوا أنكم لا تبتغون منهم أي منفعة فتحوا لكم أبوابهم رويدًا رويدًا، ثم تتزاورون.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: "قال رسول الله ﷺ: **"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" وَشَبَّكَ بين أصابعه"**(٦٦)؛ وتشكيل مجتمع كهذا يقتضي أن نأخذ بأوامر الآية المذكورة في صدر الجواب من برّ الوالدين، وتعزيز الأواصر بين ذوي القربى، وكفالة اليتيم، ورعاية حقوق الجوار.

وإذا ما مُنيت علاقات الجيران بالخراب والدمار في بيئة الحياة الحديثة فقد لا تجدي نفعًا في البداية تلك الجهود المبذولة لتحسينها، لكن الإصرار والعزم على دوام الإحسان ولو لتطييب الخاطر سيذيب جبال الجليد بين الناس، ويفعل فعله في القلوب، ثم يغدو رابطة قوية تتشكل منها سلاسل مجتمعية متينة لا انفصام لها، وهكذا يناصر الأفراد بعضهم دون انتظار مقابل أو أجر، فإن سقط أحدهم أغاثه الآخر وأخذ بيده، وكأنهم في تنافس إلى الإحسان، ومنهم يتكوّن مجتمعٌ مثاليّ لا مجال فيه للعراك والتصادم والصراع.

ويرى بديع الزمان سعيد النورسي ﷺ أنّه يصعب أن تنشأ مجموعة صِحية عن مجتمعٍ تتألف جزيئاته من الذنوب، لذا كان من الأهمية بمكان أن يتعاون الأفراد فيما بينهم للوقاية من الذنوب وتلاشي الأخطاء، يقول الحق تعالى آمرًا المؤمنين في حديثه عن مسؤولياتهم تجاه بعضهم:

(٦٦) صحيح البخاري، المظالم، ٥؛ صحيح مسلم، البر والصلة، ٦٥.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٢/٥).

إنّ العلاقة بين الجيران مسؤولية كبيرة ينبغي ألا نفرّط فيها، وفرصةٌ مهمة لا بدّ من اقتناصها لإرساء شعور التعاون والتضامن الذي أمر به القرآن الكريم.

مرضٌ اجتماعي يشلّ العقل السليم: التعصب

سؤال: ما معنى التعصب؟ وما الفرق بينه وبين الصلابة في الدين؟

الجواب: التعصب هو تقييم الإنسان كلَّ شيء وفقًا لفهمه وهواه فحسب، وإغفال مقدمات الأمر وخلفياته، والعنادُ والتمرد حتى فيما يخالف روح الدين والعقل.

وقد عبر سيدنا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر بـ"العصبية"، من ذلك قوله: **"لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ"**(٦٧)؛ إن التعصب مظهر سلوكي يسري في الدم والأوردة، ويستمد طاقته من الجسمانية والحيوانية، ولفظة "التعصب" من باب "التفعل"؛ أي فيها معنى التكلف؛ ومعناه من هذه الناحية: العناد الباطل إلى حدّ الإفراط في مسألةٍ ما، والإصرار عليها، وعزو كلّ شيء إلى هوى النفس، والتعامي عن العوالم المرئية والمسموعة وعدم الاكترات بها، واعتداد الإنسان بعلمه دون اعتبارٍ للآخرين.

نعم، التعصب سلوكٌ مجافٍ للعقل والمنطق، والإحساسِ والشعور؛ فالمتعصب لا يمكنه أن يتصرّف وفقًا للعقل والمنطق، ولا أن ينفتح على المشاعر.

---

(٦٧) سنن أبي داود، الأدب، ١١١.

عاملٌ يحول دون إيمان الإنسان

لقد دأب أهل الإنكار والإلحاد على التعصب ضد المؤمنين، ففي عصر السعادة مثلًا كشف الكفار والمنافقون عمّا في صدورهم من تعصب على الإسلام والمسلمين، وتظاهروا بالعمى والصمم في أمرِ مَن هَوَتْ له النحوم إجلالًا وتعظيمًا مفخرةِ الإنسانية محمدٍ ﷺ، ولو أنهم أحسنوا النظر إلى فريد الكون والمكان عليه ألف ألف صلاة وسلام لرأوا ما رآه كلّ مَن أحسن النظر، ولو أصغوا قليلًا إلى دُرر كلماته لسمعوا ما سمعه مَن أحسن الإصغاء.

أجل، لو تدبر المنكرون والملحدون وتأملوا قليلًا في الحقائق التي بلّغها ﷺ لرأوا الحقيقة وأدركوها وسلكوا الصراط المستقيم، لكن يا للأسف لقد أعمى كلٌّ من التعصب والضغينة والحقد والكره أبصارَهم عن الحقيقة، وطمس كلّ الجماليات، فتردَّوا في الإنكار والجحود.

إن التقليد الأعمى للآباء والأجداد دون تمييز بين الحق والباطل يحول دون الدخول في الإيمان أو الثبات في دائرته، كما كان الكبر والطغيان والخلل في النظر حائلًا دونه؛ والحق أن مثل هذا التقليد الأعمى مظهرٌ من مظاهر التعصب، ففي الجاهلية كفر أناس بالإسلام وتصدوا له بالحجج الباطلة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ولِفرط تعصُّبهم هذا صَدُّوا نبي الله ﷺ وأصحابه عن دخول مكة عام الحديبية لما خرجوا من المدينة معتمرين؛ وسمى القرآن الكريم موقفهم هذا: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٢٦/٤٨)؛ أجل، لقد سلكوا طريق التعصب وحالوا دون دخول المسلمين إلى مكة كيلا تُخرق عاداتُهم وتختلّ أعرافٌ ما زالوا يستمسكون بها، ويُجرح غرورهم وكبرياؤهم أمام القبائل العربية الأخرى.

وقد تقع مثل هذه الأحداث في عالمنا اليوم، فمثلًا إذا رغبتم في التعبير عن أنفسكم بخصائصكم التي فرضها الدين واقتضتها قيمُكم السماوية تجدون من يهبّ من فوره ويحاول منعكم في شدة وعنف لا يوصف، بل إن وضعتم خططًا ومشاريع للنهوض ببلادكم والوصول بها إلى مكانة تجعلها عنصرًا من عناصر التوازن الدولي أو إن أجهدتم أنفسكم لتجعلوا بلادكم من أعظم الدول سمعة ورفاهًا وقوةً عارَضكم بعضُ الناس وحاولوا منعكم متذرعين بأن هذا يمسّ عاداتهم وأعرافهم التي اعتادوا عليها، وقالوا للناس: "إنما يسعى هؤلاء للإضرار بقيمكم الذاتية؛ متذرعين بالسعي إلى الرفاه الاقتصادي ورفع مستوى الشعب إلى الذرى"؛ بل إنكم وإن لم تمسوا تابوهاتهم وأيديولوجياتهم فسيعتقدون أن أنشطتكم محاولة لمحوهم من ذاكرة الشعب واقتلاع القيم التي أرسَوها، ولسوف يرون في استحسان الناس لآرائكم وأفكاركم إعراضًا عنهم، والأدهى من ذلك أننا لو فرضنا المستحيل وقلنا إنكم عثرتم على مرقاةٍ تتخذون منها سبلًا إلى الجنة مباشرة لقال بعضهم أيضًا: "إن ما يقوم به هؤلاء محاولة للقضاء على أيديولوجيتنا"؛ ومردُّ كل هذه التصرفات والأفعال إلى تعصبٍ مقيت تغذيّه حمية الجاهلية.

مرضٌ مرعب يسري في كل مكان

كما يمكن أن تظهر هذه العادة الجاهلية في بلدنا قد تظهر في بلدان أخرى، ولك أن تقول: إن التعصب لا أرض له ولا وطن، فقد يُصاب كل الناس بهذه الصفة المذمومة على اختلاف أفكارهم ومناهجهم، بل قد يظهر أثر هذا التعصب على من يراه الناس متديّنًا أيضًا؛ إذ بعضهم قد لا يهمه إرضاء الله تعالى، بل يتناول كل أمر في ميزان مشربه ومسلكه

الضيق مستندًا إلى معلومات أولية لديه، فيتخذ في كثير من المسائل الفرعية موقفًا فيه شدّة وقسوة وتعصب.

وما العمليات الانتحارية التي ترتكب باسم الدين في وقتنا الراهن إلا نتيجة لمثل هذا التعصب الأعمى؛ هذا إن فعل المنتحرون ذلك بمحض إرادتهم ولم يتعاطوا دواء أو ينوَّموا مغناطيسيًّا، ولم يُتحكم بعقولهم، أو تشل إرادتهم، ولم يُعاملوا معاملة الإنسان الآلي.

أجل، إنه مرضٌ تضيع معه حياة الناس المعنوية دون وعي إعلاءً لأمرٍ يظنونه حقًّا؛ والحقّ أنّ ذوي الأحزمة الناسفة قَتَلَةَ الأبرياء دون فرق بين طفل أو شيخ أو امرأة يستحقون بعملهم هذا التردِّيَ في النيران لا التنعم في الجنان، فما أفجعها من عاقبة أن يتردَّى امرؤ في نار جهنم وكان بوسعه أن يسير في طريق الجنة ويرشد الآخرين إليه!

الثبات على الحق أو الصلابة في الدين

لا ينبغي للمؤمن أن يتعصّب؛ لأن المؤمن لا يحيد عن الحق، ورسالته هي إقامة الحق وإعلاؤه، فلا يمكن أن نتصور إنسانًا يعشق الحق، ومع ذلك يصدّ عن سبيله ويقاومه ويتجاهله؛ فإن فعل فقد أساء الأدب مع الحق، فالتعصب ليس من شأن المؤمن، بل الصلابة في الدين.

والصلابة هي الجدّ والحزم في الأمر، والثبات والتمكّن، والعزم على الاستقامة في الأقوال والأفعال والأحوال، أمّا العنف والقسوة والتعصب فليس من الصلابة في الدين في شيء.

الصلابة في الدين هي صدق وعزم جازم على تطبيق كلّ ما شرعه الدين الحنيف مهما تغيرت الظروف والأحوال، أي هي أن ينشد الإنسان رضا الله تعالى في تصرفاته وأفعاله كلّها حتى وإن انقلب العالم وتغيّر

النـاس بـأن أقبلوا علـى مباهج الدنيـا الفاتنة، وأن يعمد إلـى تطبيق أوامر الدين بلا تراخٍ، وأن يحافظ على الهوية أيًّا كانت الظروف والعوامل.

وبلـوغ مرتبـة الصلابـة فـي الديـن يقتضـي أن يَجِـدَّ المـرءُ ليخـرج من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي، وأن يسـعى دومًا إلى التعمق في الحقائق الإيمانية، وأن يعرض كل مسألة على العقل والمنطق ليؤسسها على قاعدة "العلم".

فليلزم طالب العرفان التوكُّل على الله في كل حادث ألمّ به، وليستمسك بالتقوى، وليرعَ الأسـباب، وليَخْطُ بحذر، فلا ينخدع، ولا تسُقه العواطف مطلقًا؛ لأن دائرة المعرفة الإلهية والمحبة الإلهية والعشق والاشتياق التي ارتسـمت في روحه لها مركز يهديه الطريق في كل أمر؛ لذا فإن المقلّدين فـي تصرفاتهـم وأفعالهم الذيـن تقوم حياتهم على النُّقـول، هم من يتبدى لديهم التعصب.

أجـل، إذا رغـب المؤمـن أن تَمضـي حياتـه ضمـن إطـار الصلابـة في الدين دون تردٍّ في وديان التعصب فليعرف وليستوعب جيدًا المقاصد الكليّـة للكتـاب والسـنة بدايـة، وليقـوِّم معارفـه كلّهـا فـي ميـزان هذين المصدرين الأساسيين، وليقارن ما فهمه من الكتاب والسنة بالاستنباطات والاجتهادات الصافية للسلف الصالح، أي فلينظر بعين الاعتبار إلى القدر المتفـق عليه من تـراث فحول العلماء وهو ما يمكن أن نسـميه "الإجماع الضمنـي"؛ فـإذا تحقّقَ هـذا كله فليتضـرع وليلتجئ إلى الله فـي كل خيار وقرارٍ قائلًا:

﴿رَبَّنَـا لَا تُـزِغْ قُلُوبَنَا بَعْـدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَـا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَـةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٨/٣).

ويُحمد من الصلابة قدر ما يذم من التعصب؛ لأن الصلابة في الدين هي استقامة المرء في تطبيق دينه، وجَلَدُه فيه، وتمكنُه ورسوخه فيه رسوخ الجبال؛ ومن العسير أن يَثبُت المتعصب في مكانه أو تَرسَخ قدمه حيث هو كما كان الأمر لدى ذي الصلابة في الدين؛ لأن حركة المتعصب وفق هواه ومشاعره، لا في ضوء العقل والمنطق؛ ومن يتعصب لأيدولوجيةٍ اليوم قد يأتي يوم يتعصب لأيدولوجية أخرى؛ من ذلك أن منهم من كان في فترة ما متعصبًا لأيدولوجيةٍ تَعدّ المادة والشهوة كلَّ شيء، وفي فترة أخرى نجده قد تأثر بالفلسفة الروحانية وشرع يسوِّق لها؛ أمّا المؤمن فمن شيمه أن يحافظ على القيم الأُمّ ويستمسك بها حيثما كان وفي أي وقت كان، في عصر السعادة أو في غيره من العصور.

أما مسألة تلبية الحاجات الناجمة عن تغير الأحوال والأزمان وما يلزم لذلك من اجتهاد واستنباط فهي أمر آخر لا يتعارض مع الصلابة في الدين؛ بل إنّ تغيّر الأحكام بتغيرّ الأحوال والأزمان مع الوقوف عند الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح يعني التطور نحو الكمال، والقرآن يثبت أن لأهل العلم الاستنباط: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٨٣).

ولا ريب أن هذا التطور مغايرٌ تمامًا للخروج عن الهويّة، والأخذِ بالنظريات المستحدثة من أجل التودد للآخرين، والتعصبِ لأمرٍ دون النظر إلى معقوليته من عدمها؛ بل إن هذا التطور مؤشرٌ على عالمية الإسلام وشموله؛ إذ إن معناه وضع أحكام لأمورٍ لا تتناهى عن طريق نصوصٍ متناهية.

الفسق وسبل الوقاية منه

سؤال: ما معنى الفسق؟ وما الأمور التي ينبغي للمؤمن أن يراعيها ليبرأ من صفات الفاسقين؟

الجواب: الفسق لفظ عامّ؛ له عدة معانٍ، وهو بإيجاز: الخروج عن الحدود التي أقامها الدين، أي الخروج عن دائرة الطاعة بارتكاب الكبائر أو الإصرارِ على الصغائر؛ وهذا يذكّرنا بحديث سيدنا رسول الله ﷺ: **"اَلْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ"**[٦٨].

نعم، كما أن للدول حقولَ ألغامٍ تمنع دخولها، وتحظر على الناس عبور مناطق الأسلاك الشائكة، فكذلك وضعَ الشارعُ الحكيم حدودًا تقي الإنسان من المخاطر في الدنيا والآخرة، فمن تعدى هذه الحدود وتجاوز هذه السدود وانحرف وخرج عن الجادة فقد فسق.

وجاء في سورة المائدة ذكر من ساقتهم أهواؤهم، فتجاوزوا الحدَّ، وخرجوا عن دائرة الطاعة رغم أنهم عرفوا الصراط المستقيم:

﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٧/٥).

(٦٨) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٩؛ صحيح مسلم، المساقاة، ١٠٧.

وجاء في اللغة أن "فواسق البيوت" حيوانات تخرج من جحورها وتضر الإنسان والأثاث؛ ومنها: الفأر والعقرب والحية؛ فسميت فواسق لأنها بخروجها عن دائرة حدودها صارت معتدية، وفي الحديث:

"خَمْسٌ فَوَاسِقُ، يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا"(٦٩).

وليس معناه: "اقتلوا هذه الحيوانات حيث وجدتموها"، بل معناه جواز قتل حيوانات يُخاف ضررها، فالأصل حرمة قتل الحيوانات في الحَرم، حتى الجرادة تُدفع فيها الفدية إن قُتلت؛ وإنما وُصفت هذه الحيوانات بالفاسقة لأنها لا تلزم حدودها بل تتعدّاها، فأُبيح قتلها، أي إن في الحديث رخصة بقتل هذه الحيوانات الفاسقة جبليًّا.

صفةُ الفسق عند المسلم

شدّد القرآنُ الكريم في حديثه عن الكافرين والمنافقين والمشركين على صفاتهم لا على أشخاصهم، فلفت الأنظار إلى صفاتهم المذمومة؛ لأن التبليغ والإرشاد يُعنَى بتغيير الأوصاف لا الأشخاص، وذلك بتخليتهم من صفاتهم المذمومة.

وهذا المنهج فيه ذِكرى ونذارة شديدة للقلوب المؤمنة، يقول الأستاذ بديع الزمان ﵀: "يجب أن تكون كلُّ صفةٍ من صفات المسلم مسلمةً مثله، إلا أن هذا ليس أمرًا واقعًا دائمًا، أي قد لا تكون كل صفات المؤمن مؤمنةً، كما قد لا تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعةً من كفره"(٧٠)، فقد يحمل المؤمن صفة من صفات الكفر أو الفسق

(٦٩) **صحيح البخاري**، بدء الخلق، ١٦؛ **صحيح مسلم**، الحج، ٦٧ (واللفظ لمسلم).

(٧٠) سعيد النورسي: **الكلمات**، اللوامع، ص ٨٥١.

في حقبة من حياته، وعلى هذا فكم في الآيات التي تتحدث عن المنافقين أو الكافرين من دروسٍ وعبرٍ للمؤمنين!

أجـل، قد يكون الإنسـان مؤمنًـا يصلي ويصوم ويزكـي ويحج إذعانًا لمقتضى إيمانه، لكنه إن خرج عن حدوده فقد يسقط دون وعي في وديان الكفر أو النفاق؛ إن من يرتكب آثامًا -نسأل الله السلامة- كالكذب والغيبة والإفك قد تجاوز السدود وحاد عن الجادة، وأخلّ بقواعد المرور؛ وهذا يعنـي أنَّه يحمل صفة من صفات الفسـق مهمـا ادعى القوة في إيمانه؛ وما دامـت فيـه هذه الصفة فلـن ينجح في مقـام التبليـغ والإرشـاد ولن يبلـغ الهدف؛ لأن فضل الله تعالى منوط بالصفات، ثم ينتقل إلى حَمَلَتِها.

من صفات المؤمن: الإيمان، والبلوغ بالإيمان مرتبة الإذعان، ثم الرقيّ به إلى أفق العرفان، وتتويج العرفان بالمحبة، والمحبةِ بالعشق والاشتياق إلـى الله، وتعميقُ هذا الإيمـان بالعبادة، وتزيينُ عبادته بمقام الإحسـان... فـإنْ تحلّـى المـرء بهـذه الخِـلال بلـغ هدفه فـي إعلاء كلمـة الله؛ بل وإن لـم يبلغه فسـيكافئه الله تعالى بعونه وفضله سـبحانه وكأنـه بلغه، فما على الإنسان إلا أن يقوم بوظيفته، فمن الأنبياء من لم يكن له أتباع قطّ، ومنهم من لم يتبعه سوى بضعة أشخاص، غير أنه لو وُضعت البشرية جمعاء في كفة ووُضـع نبي من الأنبياء في كفة أخرى لرَجَحت كفة النبي، أي لو أننا أخذنا الناس كلَّهم سـوى الأنبياء، واسـتخرجنا خلاصة قيمهم الإنسـانية، وجعلنا منها تمثالًا، فلن يكون هذا التمثال تمثال نبي من الأنبياء ولن يبلـغ ماهيتَه، لأنهم هم المصطفون الأخيار الذين اصطفاهم الله واختارهم على عينـه ورعايتـه، ورغم هذا فقد يأتي النبـي وليس معه إلا اثنان أو ثلاثة من الأتباع، ومـع ذلك لم يكن هذا الأمر يعني لهم شيئًا، ولم يتوقفوا أبدًا عن أداء رسالتهم.

وقد تتبادر إلى الذهن بعض الأسئلة حول الغاية من إرسال رسول لا يتبعه إلا اثنان أو ثلاثة؟

ننوه أولًا أن مثل هذا النبي قد نال ثواب النبوة، وحظي بكرم الله وفضله لأنه أدى مهمته بحقّ.

وأيضًا إذا غدا هذا النبي مع أتباعه الاثنين أو الثلاثة رسالةً ومرجعًا لمن يأتي مِن خلفهم بأن عبّدوا لهم الطريق، ثم صلح بهؤلاء الخلف المجتمعُ لاقتفائهم آثار من قبلهم، فقد تحققت الغاية من إرسال هذا النبي واستُكملت؛ وسيُكتب مثل ثواب الخلف في سجل حسنات السلف؛ وغيرُ الأنبياء مثلهم في هذا، فلو لم يبذل الأستاذ النورسي مثلًا جهودًا مضنية لتبليغ القلوب حقائق الإيمان في عصرنا هذا، ولو لم يفتح مع مائة أو مائتين من طلابه جادةً للإيمان في قلب الأناضول، لما انشرح صدر رجل الأناضول الآن للخدمة القرآنية والإيمانية بهذه الدرجة، ولما ارتحل إلى أرجاء العالم كافة ليصل البقاع التي نُدِبَ إليها؛ فالمهم هو أن يسعى الإنسان إلى الهدف الذي يرمي إليه متحلّيًا بصفات المؤمنين دون ترقب نتيجةٍ أو ثمرةٍ لما يفعله.

زقاق مسدود سَلكه الفاسقُ

أما الفاسق فلو أن خط سيره في الحياة التقى بدائرة صالحة فقد لا تعجبه بعض الأشياء لمنابذتها لأهوائه، ويتطلع إلى أشياء أخرى، أي إن لديه آمالًا ومطامع لا حد لها وإن لم يعترف بوجودها؛ لكنه لا يجد غالبًا ما يلبي حاجاته وأهواءه، فيستاء ويمتعض ممّن حوله، ويقول -وكأن على الخلق جميعًا أن يعلموا جوّانيته-: "لم لا يستقرئون كنه فردٍ داهيةٍ مثلي، ولا يلبّون رغباته؟"؛ ثم يهجر رفقاء دربه من أجل تلك المشاعر والأفكار والآمال، وينصرف متذرعًا بحجج واهية، ويهمّ بعمل

أشياء ترضي هواه، فهذا أيضًا نوعٌ من أنواع الفسق؛ ولا جرم أن مثل هذا الإعراض والانفصال لا يعني الخروج عن الدين، ولكنه لما انساق وراء شهواته وملذاته وهجر سبيل الخير والبرّ، وعجز عن أن يحافظ على المقام والمنزلة التي وهبها الله له، اندرج فيمن توعدهم سيدنا رسول الله ﷺ بإعراضهم عن الحلقة، فقد لفت النبي صلوات ربي وسلامه عليه الأنظارَ إلى أهمية هذا الأمر، فقال عن الذي أعرض وانصرف ولم يدخل الحلقة: "**أَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**"(٧١).

أجل، إن من الفسق أن يتعلق الإنسان بآمال عريضة، وأن يعتقد أن الناس لا يقْدرونه قدره ولا يعرفون قيمته، وأن يرى أنه أولى من غيره بالأجر والجزاء لما يتحلى به من مهارة وبراعة، فلا يقنع بما في يديه، وكثيرًا ما يسوقه هذا الأمرُ في الدنيا إلى نتيجة عكسية تخالف مقصده؛ أما في الآخرة فسيُحاسب ويقال له: "لم تركت الجماعة، وعرّضتَ نفسك للذئاب كما الشاة القاصية؟".

وإذا لم يقتصر على هذا وشرع في الغيبة والنميمة هنا وهنالك في كبر وغرور، فأوقع الفتنة والفساد يكون بذلك قد شوّه جماليات ناتجة عن جهود كثيرين ومساعيهم.

حبُّ المنصب ومداخل الفسق

أما أعظم الابتلاءات في بيئة الفتن هذه فهو حبّ الجاه والمنصب، والإنسان مجبول على هذا بطبعه؛ أجل، قد يُظهر القدَرُ إنسانًا أصغر منك بعشرين عامًا ليقوم بمسؤولية ما، فمثلًا قد يكون لك السبق في العمل

(٧١) إن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثةُ نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: "**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**" (صحيح البخاري، العلم، ٨؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٦).

في مدرسة ما، ولكن القدر جاء بآخر مديرًا؛ نعم، على الرئيس أن يستشير من هم أكبر منه عمرًا وأسبق وأخبر، ليستفيد من تجاربهم وأفكارهم الراقية حتى لا تُجرح مشاعرهم، أما المرؤوسون فعليهم السمع والطاعة له أيًّا كان عمره أو خبرته، وإلا عدّ ذلك فسقًا، بل إنّ تخيّلَ ذلك وتصوره يعد نوعًا من الفسق؛ فعلى الإنسان أن يمرّن نفسه، ويصلح من شأنها على الدوام ليمنع الفسق من حق الحياة حتى في عالم خياله.

نذكر في هذا قصة سيدنا أسامة بن زيد ﷺ: لقد جهز النبيُّ ﷺ جيشًا لمحاربة الروم قبل ارتحاله ﷺ إلى أفق روحه، وعيّن أسامة بن زيد قائدًا للجيش، وأسامةُ يومئذ ابن الثامنة عشرة، ومن جنوده أكابرُ الصحابة عمرًا وفضلًا مثل سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ؛ ولم يبتعد الجيش عن المدينة قدر منزلة حتى أتاهم نبأ لحاق سيدنا رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، فقفل سيدنا أسامة راجعًا، وغرز الراية أمام بيت النبي ﷺ، وظل ينتظر، وقبل أن تُشيع جنازة رسول الله ﷺ اجتمع الصحابة ﷺ في سقيفة بني ساعدة، واختاروا أبا بكر ﷺ خليفة للمسلمين، وما إن اختير أبو بكر خليفة للمسلمين حتى أنفذ بعث أسامة، وودعه حتى بلغ خارج المدينة، ثم اقترب منه -وكان أسامة في عمر ابنه أو حفيده- واستأذنه في عمر ﷺ ليكون عونًا له؛ وهكذا على المؤمن أن يكون حتى يبلغ مثل هذا الأفق من التربية السامية.

أجل، لو عُين شخص في وظيفةٍ ما، فالسلوك الإيماني يقتضي التسليم بالأمر، وعدم الاعتراض والمخالفة -مع الحقِّ بل المسؤوليةِ في التنبيه والتذكير والإرشاد بأسلوب لائق عند وقوع أي خطأ- وإلا أضر هذا الأمر بالمجتمع الإسلامي، ويؤكد هذا قول رسول الله ﷺ:

"اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ"(٧٢).

نعم، إن التوفيق والنصر والنجاة والنجاح يكمن في هذا؛ وإلا فإن تعلق كل فرد بآمال وطموحات تخدم أهواءه وملذاته، وقع الفسادُ والهزيمة؛ فعلى الإنسان أن يشنّ حربًا على حب الجاه والمنصب الكامن في نفسه، وأن يقنع بالمقام الذي أقامه الله فيه، حتى يسد الباب دون الفسق والفساد.

(٧٢) صحيح البخاري، الأذان، ٥٤؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٣٦-٣٧.

تفسير السنة وفق الأهواء والرغبات

سـؤال: نرى أناسًا إن اسـتهواهم شيءٌ قالوا فيه: "لو كان رسول الله ﷺ بين أظهرنا لفعل كذا"، وإن لم يسـتهوهم أصدروا حكمهم على الفور قائلين: "لا يقـول نبيُّنا ﷺ بمثل هذا"، فكيف تقيّمون هذا؟ وما الشروط التي يجب توافرها فيمن له حق الكلام في مثل هذا الموقف؟

الجواب: يختلف تقييم هذه الأقوال على حسب "مَن قالها؟" و"لماذا قالها؟"، فنبينا ﷺ رسـولٌ يبلّـغ رسـالة ربه ويبيّن المسائل ويوضحها بسنّته القوليـة والفعليـة والتقريريـة، وكان مجتهدًا في مسـائل الديـن أيضًا، فإن التعرّضَ إلى حلّ مشـاكل معينة وفقًا للظروف والأزمنة قائلًا: "إن رسـول الله ﷺ لو كان بيننا اليوم لفعل كذا في هذا الموضوع أو ملأ هذه الثغرة بهذا الشكل" قد يكون أمرًا لا حرج فيه؛ ولربما يكون لهذا القول محملٌ حسن؛ أي إن الزمـان هـو أبلـغ مفسـر للحوادث والأشـياء؛ حيث يقـوم بوظيفة المؤشر في تفسير بعض الأمور وتأويلها بحسب الظروف والأوضاع.

وبتعبيرٍ آخر ثمة مسائل دينية تخضـع للاجتهاد والاستنباط، وقد تُرك تفسـيرُها وتأويلها إلى الزمان ليفتي فيها، لكن يجب على من يقوم بتأويل هذه المسـائل وفقًا للأزمنة والظروف التي يعيش فيها أن يدققوا ويحققوا أولًا ويعلموا هل في الكتاب أو السـنة نصّ صريح متعلق بالمسـألة التي

يتناولها أم لا؛ لأنه لا مَساغَ للاجتهاد في مَورِد النص، أيضًا إن وقع إجماعٌ من المجتهدين العظام على مسألة فمن غير المقبول مخالفة ذلك.

أجل، فالإجماع حجة، ومن أدلة حجّيّته هذه الأحاديث:

عن ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **"إِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي (أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ) عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ"**(٧٣).

وعن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ: **"إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ"**(٧٤).

وعن أبي بَصْرة الغفاري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **"سَأَلْتُ اللهَ ﷻ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِيهَا"**(٧٥).

فإن أجمع أناسٌ سلمت قلوبهم وأرواحهم وعقولهم ووجدانهم وحواسهم الظاهرية والباطنية على حكم مسألة ما دون غرضٍ أو انتظار أجرٍ، فالعقل لا ينكر صحة ما قرروا عليه، فكما لا تجوز معارضة الكتاب والسنة بالاجتهاد فكذلك لا تجوز معارضةُ الإجماع.

ومن ثم فإن إظهار الرأي اتباعًا للهوى دون النظر إلى المصادر الأساسية يختلف كثيرًا عن إظهاره بالرجوع إلى المُحكمات والمصادر الأصلية، ولذا لا بد من الرجوع إلى الكتاب والسنة والإجماع عند البحث عن حل أي مشكلة فرديةً كانت أم أسرية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، فإن لم يوجد فيها حلٌّ لما نبحث عنه فعند ذلك لا بد أن نراعي ألا تخالف الآراءُ المطروحةُ المبادئَ الأساسيةَ.

(٧٣) سنن الترمذي، الفتن، ٧.

(٧٤) سنن ابن ماجة، الفتن، ٨.

(٧٥) مسند أحمد بن حنبل، ٤٥/٢٠٠.

لا بد أن ترتجف القلوب عند تقريرها لأي حكم

ويُشترط للاجتهاد فيما يتعلق بأيّ ناحية من نواحي الحياة أن يشعر المرءُ بالخوف والخشية من مخالفة المراد الإلهي وأن يرتجف قلبُه ويقشعر منها كما يُشترط أن يكون متخصصًا في العلوم الشرعية، وإلا فليس للذين يتساهلون في أمور الدين دائمًا ولا يسعون إلا ليقدره الناسُ قدره وليكون "مشارًا إليه بالبنان" أن يقولوا فيما تهوى أنفسُهم: "لو كان رسول الله ﷺ بيننا لقال أو لفعل كذا"، وفيما لا تهوى: "لو كان رسول الله بيننا لما قال أو فعل هكذا"، فكأنهم بذلك قد قدّروا -حاشا وكلا- نبيًّا فرضيًّا من تلقاء أنفسهم، وجعلوه يتكلم وفقًا لرغباتهم ويفتي حسب أهوائهم؛ أجل، ليس لأحد الاستهتار بأحكام الدين الذي يضمن لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

كان السلف الصالحون ﷺ يتحرون الدقة البالغة في مسألة الاجتهاد، فمنهم من إذا سُئل عن مسألة من المسائل الدينية ختم القرآن الكريم من أوله إلى آخره عدة مرات حتى يتمكن من الإجابة الصحيحة، وها هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يناقش طلابه ويناظرهم بضعة أيام ليفتي في مسألة واحدة، وكان الطلاب قد يقتنعون بعد المناقشة برأيه فيقولون: "الرأي ما قلتَ في هذه المسألة"، ورغم ذلك كان الإمام يعيد النظر كرة أخرى في المسألة ويطالعها ويُجهد نفسه بالليل كثيرًا، ثم ينهض صباحًا، ويذهب إلى طلابه ويقول لهم: "لقد وافقتموني الرأي أمس في هذه المسألة، لكنني أخطأتُ حيث لم تخطر ببالي هذه النصوصُ"، ويُعرض عن رأيه من باب إحقاق الحق، ويؤثر رأي طلابه.

وثمة مثال آخر على إحقاق الحق وهو الإمام أبو الحسن الأشعري: كان ﷺ عليمًا خبيرًا بالكتاب والسنة، أوتي قوة البيان ومهارة الخطابة وبلغ في ذلك الوقت الذروة في العلم وارتقى أعلى الدرجات وذاعت شهرته في أرجاء المعمورة؛ وكان قد تبنَّى أفكار المعتزلة فترة، ثم ترك مذهبهم واعتنق مذهب أهل السنة والجماعة، فقال للناس: "كل ما قلتُه لكم في مسائل كذا وكذا خاطئ بالجملة، أما الصحيح فهو هكذا".

مَن اتّخذ إلهَه هواه

وللأسف الشديد ظهرت في هذه الأيام محاولاتٌ تفتقر إلى الجدّية فيما يتعلق بهذه المسالة، حتى إننا قد نجد أناسًا ينكرون أحكامًا بدعوى أنها لم ترد في القرآن الكريم، رغم أن القرآن الكريم نصّ عليها صراحة وجرى العمل بها في عهد الصحابة والتابعين.

وإنّنا وإن سكتنا حتى اليوم على هذه الترّهات تحفظًا منّا وحذرًا وعقدنا ألسنتنا إزاء ما يفعله من ينكرون هذه المسائل التي أجمع عليها السلف الصالحون، فإنّ حكم إنكار ما ورد نص صريح بشأنه معلومٌ لا يخفى على أحد.

وعلى ذلك فإن انعقد الاجتهاد على حلِّ مشكلة من المشاكل الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية فلا بد من الاطلاع بدايةً وبشكلٍ جيدٍ على القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ومراجعةِ الآراء والأفكار النيّرة للسلف الصالحين فيما يتعلق بهذه المسألة، ثم البحثِ عما إذا كان لهذه المسألة نظيرٌ في المصادر الأصلية أم لا، وبعد ذلك نضع حلًّا للمشكلة، مع مراعاة الأزمنة والظروف التي جرت فيها.

فمثلًا يقول القرآن الكريم في زوجين فسدت العلاقة بينهما:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٣٥/٤).

ويقول: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ١٢٨/٤)، فيلفت الأنظار إلى مبدأ مهم وهو الصلح بين الزوجين.

وعلى نفس الشاكلة يقول تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ (سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: ٩/٤٩).

وانطلاقًا من هذه النصوص نجد أنه من الممكن تطبيق هذا المبدأ بين الجماعات الكبيرة، بل وعلى مستوى العلاقات الدولية، لأنه إن كان الصلح خيرًا في الأسرة التي تشكّل أصغر جزيء في المجتمع فهو بين مختلف الشرائح والثقافات والتيارات والأمم أولى وأعظم خيرًا، فبقدر حجم المسألة تزداد أهمية الصلح؛ لأن فساد العلاقة بين الزوجين، واتجاه كل منهما إلى ناحية مختلفة يجعل الأولاد يعانون نوعًا من اليُتم والحرمان، أمّا إن اقتتلت طائفتان ولم نستطع أن نصلح بينهما فلكم أن تتصوروا حجم الخراب والدمار الذي يحلّ بالبلاد على مستويات مختلفة.

وعلى القلوب المؤمنة التي تنشد اليوم حلَّ المشاكل الاجتماعية على كل المستويات أن تتحرى سبلًا للصلح، وتمهّد أرضيات للحوار، وتقيم منابر للسلم والتفاهم والتسامح، وتشكّل -إن اقتضى الأمر- لجانًا للتحكيم، كل ذلك مع مراعاة متطلبات الظروف التي تعيش فيها وإمكانياتها.

عَـنْ عَمْـرِو بْنِ العَاصِ ﷺ أنه سـمـع رسـول الله ﷺ يقـول: **"إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ"**(٧٦).

أجـل، فإن اجتهد الإنسـان في سـبيل الدين وإحقـاق الحق نال ثواب اجتهاده حتى وإن أخطأ، لأنه أجهد نفسـه في هذا؛ وإن أصاب فله أجران على الأقل، وقد يتضاعف الأجر وفقًا لأهمية المسألة وصدق النية.

أما من يتناولون المسائل حسب أهوائهم ورغباتهم فيقول الله عنهم:

﴿أَفَرَأَيْـتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّـهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَـمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَـاوَةً فَمَنْ يَهْدِيـهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سُـورَةُ الْجَاثِيَةِ: ٢٣/٤٥).

والحاصـل أن القـولَ الفصـلَ لله ثم لرسـوله ﷺ في حـلِّ كل القضايا الفرديـة والأسـرية والاجتماعيـة، فليـس للإنسـان فـي مـورد النـص إلا السكوت، وإلا فليعلم أنه قد اتخذ إلهه هواه.

(٧٦) صحيح البخاري، الاعتصام، ٢١؛ صحيح مسلم، الأقضية، ١٥.

دَور المرشد في حياة القلب والروح

سؤال: يزعم قومٌ أنه لا سبيل إلى النجاة إلا بمبايعة مرشد، فما رأيكم في هذه المسألة؟

الجواب: المرشـد لغةً: مَن يجنّب الإنسـانَ الطرقَ المعوجّة، ويهديه الطريـق المسـتقيم، ويرشـد القلوب إلـى الحق تبـارك وتعالـى، ويُرهِف عقلَ المخاطب وشـعورَه وسـمعَه وبصرَه ببعض الحقائق ليوجّهه إلى أفق القلب والروح؛ فكما يُطلق المرشد على الواعظ في المسجد والمتحدّث فـي مجلـس العلم، فكذلك يصح إطلاقـه أيضًا على تاجـر يحدّث زبونه عن الحقّ والحقيقة فيصبـغ قلبه بصبغة إلهامات روحه.

واصطلاحًـا: سـالكٌ انتسـب فـي بداية سـيره إلى مرشـد أيضًـا، فمرّ بمـا مرّ به كل سـالكي طريـق الحق من خلوةٍ وعزلـة وأربعينات، وتحمَّل المشـاقّ، وقطـع الدرجات في السـير والسـلوك الروحي، ولزم قلة الأكل والشرب والنوم، فوصل إلى رتبة الحيرة والفناء في الله وبلـغ مقامًا مرموقًا في طريقه إلى الله، فأجازه مرشدُه في إرشاد الناس.

ويطلـق الصوفيـة علـى الإذن للسـالك بالإرشـاد نيابـةً عن مرشـده: "الخلافة"، وعلى من أُذن له أو كُلِّف بذلك: "الخليفة".

ولعل مقصود السائل المعنى الاصطلاحي، فيحسن الوقوف قليلًا عند هذا الموضوع:

فراسة المرشد وقابلية المريد

منذ عهود طويلة نشأ رجالٌ عظامٌ وترعرعوا في ربوع طرق صوفية تصل بالناس إلى الحق والحقيقة، منها الطريقة النقشبندية، والقادرية، والشاذلية، والرفاعية، والبدوية؛ ومن السالكين من له قابلية واستعداد، فإذا ما عثر على مرشدٍ كاملٍ تنوَّر به فورًا ونوَّر مَن حوله؛ فهذا الشيخ "ألوارلي محمد لطفي أفندي" ووالده "حسين أفندي" لما وصلا تكية الشيخ "الكُفْرَوي" في بتليس للانتساب إلى طريقته عاملهما الشيخُ معاملة خاصة، وعهد لكليهما بالخلافة فورًا؛ وربما السبب أنه اكتشف ما لديهما من استعدادات؛ فتبرَّم به مريدو الشيخ، فلما أقبل الليل ضيّقوا الخناق على الوالد وولده، وأخذوا يحدثونهما بأسلوب فظٍّ غليظ، وإذا بالباب يفتح على مصراعيه، ويدلف إليهم الشيخ قائلًا: "يا أولادي، إن حسين أفندي ومحمد لطفي أفندي لا حاجة بهما إليّ، وإنما أَتَتْنَا بهما فضائلُهما وكمالاتهما".

أجل، ثمة استعدادات وقابلياتٌ مكنونةٌ لدى بعض الناس، يرتقون بها إلى مقامات عالية ودرجات معنوية مرة واحدة، وهذا يذكّرنا بقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٣٥/٢٤).

ومن المريدين من لديه قابلية واستعداد، إلا أنه يؤثر خدمة شيخه مدة أطول بصدق وإخلاص، فهذا مولانا خالد البغدادي حصل على إجازة في العلوم الإسلامية العليا، ورغم ذلك جاور في تكية السيد عبد الله الدهلوي عشرين سنة يخدمه؛ ثم عاد أدراجه إلى بغداد مرة أخرى؛ والشيخ خالد البغدادي يُعدّ مجدِّدَ عصره؛ ومشربه ومنهجه في الإرشاد

يكاد يخرج هو ومنهج الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﷺ من مشكاة واحدة، فمما جاء في رسائل الشيخ البغدادي إلى مريديه: "لا تبتغوا أعمالًا تضطركم لاحقًا إلى دفع دية، واعتزِلوا الحُكَّام والرؤساء، ولا تَمُدُّنَّ أعينكم إلى ما في أيدي غيركم، واستغنوا عن الدنيا، ومن كانت له زوجة فهي حسبه ليتمكن من القيام بخدمة الإسلام..."؛ فإذا ما تأملنا خصائص كلماته وما فيها من حضّ على الإخلاص والصدق والأخوة والاستغناء نجد أن أصل الفكرة فيها وفي رسالتي الأخوة والإخلاص للأستاذ بديع الزمان سواءٌ؛ أترون كيف آثر رجل عظيم كهذا مجاورة تكية عشرين سنة يكنس أرضها.

حتى وإن كان المرشد كاملا

ولنرجع الآن إلى ما نحن بصدده؛ أجل، في تراث التصوف مقامٌ مَن بلغه من المرشدين العظام تأمّل مريديه بفراسته، وقرأ قابلياتهم واستعداداتهم في وجوههم أو نظراتهم أو لمعان عيونهم، ووجَّهَهم إلى انكشاف هذه القابليات والاستعدادات؛ فإذا ما حان الأوان كلّفهم بالإرشاد في مناطق مختلفة.

وإن عثرنا في عهدنا هذا على مرشدين عظام على خطا الشيخ الجيلاني ومولانا خالد البغدادي ومحمد بهاء الدين النقشبندي وعلاء الدين العطار وأبي الحسن الشاذلي... فعلينا أن نأخذ عنهم العلم لتنكشف في حضرتهم قابلياتُنا واستعداداتنا؛ وليُعلَمْ أنَّ الحقّ ﷻ قد شرَّف أناسًا كثيرين في أزمنة مختلفة بحمل مهمة الإرشاد، وزوّدهم بأساليب متنوعة تتوافق مع مقتضيات عصرهم وحاجاته؛ وعلى ذلك يمكن أن يقال: لو أنّ السيد عبد القادر الجيلاني بين ظهرانينا اليوم، وأراد أن يطبق ما استلهمه من السنّة من منهج وأسلوب يتوافق مع مقتضيات ذلك الزمان وظروفه،

لَمَا استطاع أن يعثر بذلك المنهج على علاج لكل مشكلات زماننا؛ وهكذا الإمام الغزالي الصَّرحُ الذي لقبه الناس "حجّة الإسلام"، أعظم شاهد على صدق الإسلام وعلى أنه حقّ، لو أنه أراد اليوم أن يأخذ بحججه في مقارعة التيارات الباطلة التي كانت تهدد الإسلام حينذاك، لتكون وصفة طبية لمشكلات هذا العصر، لَما أغنت شيئًا في حلِّ مشكلات عصرنا المستعصية على الحل؛ ولا تذهبن بكم الظنون إلى أني أُلقي بالكلام جزافًا أو أسيء الظن بالسادة العظام -معاذ الله-؛ كلا، إن هذه القامات الجليلة قد أوفَتْ زمانها حقَّه بل أربَتْ؛ وإنما أريد أن أذكّر بأن شأن الرسالات السماوية ونحوها أن تأتي مناسبةً لأفكار المخاطبين وإدراكهم ومستوياتهم.

ولا ريب أنّ الناس في زماننا سيستفيدون من تلك الشخصيات العظيمة المذكورة وما قدمته للحياة الفكرية والمعرفية من مؤلفات قيمة، ولكن لا بد من أدوات وحجج مختلفة لدحض الكفر الناتج عن استخدام ما أفرزه الفنّ والفلسفة في أيامنا، ولِدحض ما نتج عن العناد والتمرد من كفر خفي وهو النفاق.

أجل، لا يستطيع حلَّ مشكلات اليوم إلا مرشدٌ يُحسن رؤية زماننا وقراءته، ويوجّه مختبراته إلى مشكلات يومنا، ويستثمر كل إمكانياته ليصف علاجًا لمشكلاتنا؛ فإن وجدناه فلنعتصم به حتى نحلّق نحو أفق القلب والروح، فإن فعلنا ذلك استطاع هذا المرشد الكامل أن يفتح آفاقنا ويزيل عن طريقنا العقبات التي تعترضنا؛ لنقطع الطريق بأقصى سرعة وأكثر أمان.

لكن إن وجدنا مرشدًا كاملًا على هذا النحو يُحسِن قراءة العالَم ويقدِر على حلّ مشكلات عصرنا فلا ينبغي لأحد أن يضيّق واسعًا ويحصر أمر

الإرشاد فيه؛ أجل، لو أنكم عثرتم عليه ثم قلتم للناس: "إن لم تتبعوه ولم تصغوا إليه وتقرؤوا كتبه فقد ضللتم ضلالًا بعيدًا" فمعنى هذا أنكم ضيّقتم واسعًا، وأن أنانية الجماعة تحكّمت فيكم، وأسأتم الظن كثيرًا بالمؤمنين الآخرين؛ فلربما يكون فيهم من لا يفكر كما تفكرون ولا يسير على المنهج الذي تسلكون لكنه يقتدي بمرشد المرشدين وأكمل أهل الكمال وسيد السادات عليه الصلاة والسلام، فيدخل الجنة خالصًا مخلصًا بفضل الله تعالى وعنايته؛ نعم، حبُّ الإنسان نهجَه حسنٌ وأمرٌ مهم، لكن مِن الزيغ أن نضمر للآخرين حسدًا وحقدًا في قلوبنا أو أن تشيع العداوة والبغضاء فيما بيننا.

رمْيٌ طعَّان في روح الوحدة

يُنسب للشيخ أبي يزيد البسطامي: "الشيطان مرشدُ مَن لا مرشد له، أو شيخُ مَن لا شيخ له"، يفسر بعضُهم هذا القولَ تفسيرًا ضيقًا خاطئًا، ويرون وجوب الانتساب إلى شيخ أو مرشد ذي طريقة صوفية؛ نعم، لقد أمضيت طفولتي في تكايا وزوايا عدّة، فكنت شاهد عيانٍ على بعض من يقولون مثل هذا الكلام.

أرى أن هذا القول ذو مغزى واسع، يشير إلى أهمية المرشد الكامل وضرورته، بيد أن تفسيره تفسيرًا ضيّقًا كهذا يجعلُه قولًا قبيحًا يغلبُ عليه سوء الظن وأنانية الجماعة، ويتعارض مع عالمية الإسلام وشموله؛ لأن بين أيدينا المبادئ الأساسية للكتاب والسنة، وهي تتسم بالسعة والشمول بحيث تشمل كل القلوب المؤمنة بها.

وقد ذكر الأستاذ النورسي ﵀ أن حصر الفكر ينبع من حُبّ النفس؛ أي إنْ زعم الإنسان أن الحق والصواب عنده فقط، فإن هذا نوعٌ

مـن الأنانيـة وحب الـذات؛ وله نوعٌ آخر، ألا وهو أنانيـة الجماعة؛ أي أن يعدّ الإنسانُ الحقَّ المطلقَ منحصرًا في أفكار الحركة والجماعة والطريقة التي ينتسـب إليها فقط، وما سـواها لهوٌ وعبث؛ إن مثل هذا التفكير إنْ هو إلا سوء ظنٍّ خطيرٌ قد يُودِي بصاحبه ماديًّا ومعنويًّا.

إن أنانيـة الفـرد تتعاظم أكثر بقدر اسـتنادها إلى أنانيـة الجماعة؛ نعم، يمكن للمنتسبين تقليديًّا إلى طريقة صوفية من الطرق الصحيحة المعروفة أو إلى حركة أو جماعة أن يروا منهجهم ومرشدهم على حقّ، وأن يحبوه حبًّـا عميقًـا، لكـن ليس لهـم أن يظلموا غيرَهـم بتضليلهـم، وإلا انحرفوا -وَهُمْ يسـيرون على الطريق السـوي- إلى سبيل الشيطان دون وعي؛ وقد يعمّ هذا الخطر الجميـع، فلو أن بين ظهرانينا اليوم إحدى القامات العظيمة التـي أحترمهـا وأحبها حبًّـا جمًّا مثل الإمام الغزالي والعز بن عبد السـلام وفخـر الدين الـرازي ونجم الدين كُبْرى، وقال مثل هـذا الكلام، لأبديتُ له احترامي أولًا واضعًا رأسـي تحت قدميه ثم قلتُ: "لكنكم يا سـيدي قد جانَبكم الصوابُ في هذه المسألة".

والخلاصـة أنـه من الخطـأ الصِّرف الاعتقـاد بأن النجـاة لا تتأتى إلا بالانتسـاب إلـى حركة أو جماعة أو طريقة، أو أنـه من الضروري الاقتداء بمرشد معيَّن ذي طريقة صوفية وأن كل من لا ينتسب إليه ضالٌّ هالكٌ، إن من يعتقد هذا قد خسر حيث يُؤمل الفوزُ.

اللهم أجِرْ أمة محمد من انحرافات وآفات كهذه في أيام نحن أحوج ما نكون فيها إلى الوفاق والاتفاق.

السُّبُل الموصِلة إلى الله وعصرُنا

سـؤال: ما هي الشؤون الواجب الانتباه إليها في يومنا الحاضر من زاوية الوحدة والتعاون، بينما يُسعى لإزالة الموانع التي تحول بين الناس وبين الله، ولأداء وظيفة ربط القلوب بالحق؟.

الجـواب: لقـد ظهـرت حتى يومنـا الحاضر طـرق ومناهـج متنوعة تهدف إلى كشف روح وجوهر دين الإسلام المبين؛ فمثلًا الطريق المتَّبع في النقشبندية يُلخّصُ بتلك العبارات الآتية:

يقول الطريق النقشبندي: "إنه لا بد من ترك أربعة:
ترك الدنيا، وترك العقبى، وترك الوجود، وترك الترك" .

وهـذا يعنـي أنـه لا بد من ترك أربعة أشـياء فـي الطريقة النقشـبندية، الأوّلان منهـا: تـرك الدنيـا وتـرك العقبى، أي كما يجب على الإنسـان أن يـردّ مفاتـن الدنيا الجذّابة يجب عليه أيضًـا ألّا يكون دخولُ الجنة مقصدَه الأساسي في عبوديته؛ لأن الداعي الأصلي للعبودية هو "الأمر الإلهي"، أما نتيجتهـا فهي رضـا الحق تعالى، وبهذا الاعتبار فإنه يتوجب على العبد أن يحرِّك مكّوكه بين الأمر الإلهي والرضا الإلهي، وينسـج نسيج حياته على هذا وينقش نقشا يدفـع حتى الملائكةَ إلى الشعور بالحيرة والإعجاب به.

عـلاوة علـى ذلك فإنه ينبغي على سـالك هذا الطريق أن يترك نفسـه أيضا، وأن يتخذ موقفًا حازمًا إزاء رغباتها وأهوائها التي لا تعرف الشبع، وعليه أن يكون في استغناء مطلق عن الخلق، أما في النهاية فيلزمه أن يترك كل أنـواع التـرك هذه، وأن يمحو فكرة الترك مـن ذاكرته تماما، بمعنى أنه يجب عليه ألا يخطر بباله: "لقد تركت هذا، وتركت ذاك"، وينبغي عليه ألا يشـرع في الإعجاب بنفسـه وتقديرها بسبب التضحيات التي قام بها باسم "الترك"، وإذا ما خطرتْ بباله أو حتى لاحتْ في خياله فكرة مثل: "أنا بَطَلُ ذا وذاك من أنواع الترك"، فعليه أن يهرع من فوره إلى الاستغفار.

خصائص عصر الأنانية

لكن الأنانية انتشـرت كثيرا في يومنا الحاضر، وخضـع الناس لتأثيرها فـي كل أحوالهم، فلا يمكن تركٌ بهذا الشـكل فـي يومنا الحاضر؛ لذا فإن فضيلة الأسـتاذ بديـع الزمان يتناول المسـألة في "المكتوبات" بشكل آخر قائلًا:

> "أيهـا العزيـز! فـي طريق العجـز يسـتلزم أربعة أشـياء: الفقر المطلق والعجز المطلق والشكر المطلق والشوق المطلق".

إنه يقول ذلك، ويصرّح بضرورة التمسك الشديد بهذه الأسس الأربعة فـي يومنـا الحاضر، أي على الإنسـان أن يـدرك أولا أنـه العاجز المطلق ويعتـرف بذلـك، وأن يـرى أنه لا يسـتطيع فعل أي شـيء على الإطلاق ما لم يأذن الله، وعلى هذا النحو عليه أن يعترف بفقر نفسـه، بدرجة يدرك دائما أن كل ما بيده إنما هي تلك الإمكانيات التي وهبه الله إياها، وعليه أن يجيش شوقا وشكرا أمام النعم والإمكانيات التي أحسن بها الله تعالى عليه رغم عجزه وفقره، وأن يشكر الله تعالى في كل حركاته وسكناته، وعليه أن

يجتهد بهيَجانٍ وعشـقٍ، وشوقٍ واشـتياقٍ لا يعرف الشبع... ويسعى دون توقـف كي يبلـغ اسـمه تعالـى إلى القلوب والأفئدة، ويذكـر بديـع الزمان في ذيل الكلمة السادسـة والعشـرين أن منهجه له أربعة أسس هي "العجز والفقر والشفقة والتفكّر"، وهذا ما يشير إلى وجود ستة أبعاد لهذا المنهج المطروح.

وأنـا علـى قناعة بأن ملاحظات بديـع الزمان -التي تُقنـع عقلَ إنسـانِ عصرنـا وتطْمئـن قلبـه- ملاحظـاتٌ هامة للغايـة يتوجب الوقـوف عليها ودراسـتها، والواقـع أن الكثيريـن مـن الذين اسـتفادوا من آثـاره ممتنّون ومدينـون لـه بالجميـل؛ لأنـه لقّن القلـوب الحقيقـة الإلهية فـي مواجهة عواصف الكفر والإلحاد، وجعل الاسم النبوي الجليل يرفرف مرة أخرى في عنان القلوب، وقدّم مشـهد الحشـر والنشـر إلى العقول حتى صارت وكأنها تراه رأي العين، في الحقيقة إن التعبير عن مشاعر الشكر هذه التي يتـم الحديث عنهـا بالعديد من البيانات والكلمات أمـر واجب؛ لأنه ورد في الحديث الشـريف: "**مَنْ لَا يَشْـكُرُ النَّاسَ لَا يَشْـكُرُ اللهَ**"(٧٧)، وهذا يعني أنه يجب أن يتوفر طابـع الشـكر، والإحسـاس بالنعمة لدى الإنسان أولًا؛ ولذلك فإنه من الطبيعي أن يتوجه هؤلاء الناس له بتقدير أكثر دون غيرهم لأنهم حظوا بنعمة كالتعرف على الله والرسـول والحشـر والنشـر على يد ذلـك الشـخص، غير أن تقديرا على هذا النحو ينبغـي ألا يؤدّي إلى أنانية الجماعة، وينبغي ألا يُفسح المجال لآراء مبالغة؛ لأن ثمة كثيرا من الناس يسـيرون في سـبل مختلفة داخل الجادة الإسـلامية الكبرى حيث وصلوا بواسطة ذلك السبيل إلى الإيمان، وبلغوا ساحل السلامة بعون الله وعنايته، وحظـوا برضـاه تعالى، وبهذا الاعتبـار فإنه ينبغي ألا تتحول المسـألة من

(٧٧) سنن الترمذي، البر والصلة، ٣٥؛ سنن أبي داود، الأدب، ١١.

التعبير عن مشاعر المنّة والشكر إلى نوع من المباهاة والدعاية والإعلان أبدًا، وينبغي ألا يتم الدخول في الانحصار الفكري النابع من حب النفس؛ أجل، ينبغي ألا يتم الخلط بين الوسائل والمقاصد، وينبغي ألا يُنسى أن المقصد الأصلي هو تحصيل رضا الله تعالى في أي سبيل كان.

الأرواح التي وصلت إلى الحق بواسطة الهجرة

الحقيقة أن أولئك الناس الذين تركوا منازلَهم ودورَهم وأوطانَهم، وشدوا الرحال بهدف إبلاغ اسم الله الجليل إلى كل أنحاء العالم هم في سبيلهم للحصول على رضا الحق تعالى في خط مختلف بواسطة إعلاء كلمة الله، أريد أن أذكر شيئا يمكن أن يُعدّ علامة مؤيدة لكون هؤلاء على الصراط المستقيم: شوهد سيدنا ﷺ في الرؤيا أحيانا وفي الواقعة أحيانا أخرى مئات وربما آلاف المرات، وحُظي ببشارته، إذ يقول أحدهم على سبيل المثال: جلسنا ذات ليلة مباركة، فصلّينا وسلّمنا على سيدنا رسول الله ﷺ آلاف المرّات حتى الصباح، بعد ذلك تمثلت روح سيد الأنام عليه أكمل التحايا وأتمّ التسليمات وقال: "إنني أؤيّدكم في هذه الخدمة"... ويقص صديق آخر حادثة شاهدها في واقعة: "كانت ثعابين كبيرة تهاجم الأصدقاء ولم يتمكّنوا من التغلّب عليها، إذا بالباب انفتح فجأة، فدخل منه بعض الناس النورانيين، وكان على رأسهم سيدنا رسول الله ﷺ وبيده عصاه المباركة، وبعد أن أنزل ضربة على رؤوس الثعابين قال: "لا تخافوا، إنا ناصروكم" .

والحقيقة أنني أشعر بالخجل ويتحرج صدري من قص هذه النوعية من الأشياء غير الموضوعية؛ غير أنني أرى فائدةً في الحديث والتعبير عن هذه النوعية من المشاهدات أحيانا؛ نظرا لأن المسألة لا تتعلق بي، والواقع أنني نظرت إلى نفسي دائما من زاوية دائرة الخدمة التي نحن

نعمل في إطارها بدافع وعناية من الله: "لو أنني أَعطيت لمقامي حقَّه واستثمرتُ الإمكانيات والفرص التي أنعمها الله عليّ واغتنمتها جيدًا، لكانت هذه الخدمة تسير بشكل أسرع، ولو كان على أيدى أناس أكثر إخلاصًا لأمكن إنجاز أعمال أكثر أهمّية، علاوة على ذلك فمثل هذه المشاهدات ينبغي اعتبارها أنها نوع من الحلويات التي تُعطى للأطفال بهدف التشجيع وإثارة الأمل، وإلا فإنه ينبغي على رجل الحقيقة الصادق ألا يطلب أيًّا من هذه على الإطلاق، حتى إنني أنا الذي أكثركم إثمًا أقول: "إلهي! لا تجعلنا نُذهِب في هذه الدنيا من النعيم التي ستمنحها إيانا في الآخرة! اللهم لا تلطمنا بلطمة الآية الكريمة: ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**﴾ (سُورَةُ الأَحْقَافِ: ٤٦/٢٠)، غير أن بعض الناس بالرغم من كل شيء، يرون هذه النوعية من الحوادث لها أهمية من أجل تقوية الروح المعنوية في الفترات الصعبة والقاسية، ولا شك أنه لا حرج في الحديث عنها إن كانوا يرونها تأييدا نبويّا.

ومن جانب آخر فإن كان مهاجرو الفكرة المثالية هؤلاء يَلقون قبولًا حسنًا في الأماكن التي يذهبون إليها بالرغم من وجود العديد من الدوائر المعادية الراغبة في عرقلة تبليغ دين الإسلام المبين إلى الأفئدة والقلوب، فإنه ينبغي اعتبار هذا عناية من الله وتأييدًا منه.

إن نجاح هؤلاء في المناطق الجغرافية المتباينة يُعتبر مؤشرًا آخر على التأييد الإلهي والتأييد النبوي لهم، بالرغم من أنهم لم يحصلوا على دورات في فن التعايش مع أصحاب الثقافات والآراء المختلفة في عصر العولمة؛ وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن هذه الخدمات المنجزة وافقت المراد الإلهي، لأنه لم يحدث انفتاح بهذا القدر في أيّة فترة من تلك الفترات التي تلت الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

أجل، إن سعي هؤلاء الناس في تبليغ الحق والحقيقة في كل أنحاء العالم متكاتفين، هو ميناء آخر للسير إلى الحق، ووسيلة أخرى للسرور؛ هؤلاء الذين ساحوا في الطرق في سبيل فكرة مثالية سامية بتواضعٍ وخجلٍ ونكرانٍ للذات، استنادًا إلى أسس: "العجز والفقر والشكر والشوق والتفكر والشفقة".

والحاصل أن الله هو الغاية لجميع القلوب المؤمنة، وأن البشر مسافرون، وأن السُبُل بعدد أنفاس الخلائق، وبهذا الاعتبار فإنه يجب علينا أن نقدّر كل مَن يسعى لإعلاء كلمة الله، وأن نضرع إلى الله وندعوه بالتوفيق لجميعهم.

الإمكانيات الدنيوية والمعيار في التخطيط للمستقبل

سؤال: أوصى رسولنا ﷺ أن يعيش الإنسان في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، حتى إن بعض السلف عدّ تفكير الإنسان فيما سيأكله ويشربه في غده من "طول الأمل" و"توهُّم الخلود"؛ غير أن الناس يرون التخطيط للمستقبل بدءًا من التفكير في الشهادة الدراسية والعمل في مهنة معينة مثلا أمرًا ضروريا في يومنا الحاضر، فماذا ينبغي أن يكون المعيار في التفكير للمستقبل؟.

الجواب: يقول رسولنا الأكرم ﷺ كما ورد بالسؤال: **"كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"**(٧٨)، و"الغريب" هو الإنسان الذي غادر بيته ووطنه ونزل في مكان يعيش فيه ضيفًا وبشكل مؤقّت، ولا شيء يربطه بما حوله من الأشياء والناس، أما عبارة "عابر سبيل" الواردة في الحديث الشريف فإنها تعني المسافر، والواقع أن الإنسان مسافر ينتقل من رحم الأم إلى مرحلة الطفولة، فالشباب، فالكهولة، فالشيخوخة، ومنها إلى القبر، ثم إلى حياة البرزخ، ثم إلى المحشر، وهكذا يوصي سيدنا رسول الله ﷺ أن نعدّ الحياة الدنيا في هذه الرحلة وكأنها عبور من أحد جانبي الطريق إلى الآخر.

(٧٨) صحيح البخاري، الرقاق، ٣.

ورُوي أن رسولنا الأكرم ﷺ نام على حصير، فترك الحصيرُ أثره في جنبه الشريف؛ ولذلك فقد أشار عليه سيدُنا عمر ﷺ بأن يستفيد قليلا من نعم الدنيا قائلًا وعيناه تذرفان: "يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله!..." فأجابه ﷺ: **"مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"**(٧٩)، ونحن جميعًا نعلم أن رسول الله ﷺ لو شاء لقدّم الصحابةُ كلَّ ما في بيوتهم ودورهم وفرشوه له، لكن مفخرة الإنسانية ﷺ عدّ نفسه مسافرًا استراح مؤقتًا تحت شجرة وهو في طريقه إلى مكان يقصده، ثم راح وتركها، وصرّح بأن علاقته بالدنيا عبارة عن هذا فحسب، فكانت حياته دائمًا وفق هذا المعيار حتى لحظةِ صعوده إلى أفق روحه.

الثروات التي تُنفَق في سبيل الحق

عند النظر إلى المسألة عموما، وعند الأخذ بأوامر الدين ونواهيه كاملة يُفهم من عبارات رسولنا الأكرم ﷺ أنه ينبغي اجتناب الانغماس في الدنيا طلبا للمُتَع والملذات الشخصية فحسب، لا إهمال الدنيا بالكلية، فمثلا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٤١)، وحكم هذه الآية أن خمس الغنائم متروك أمرُه لرسول الله ﷺ كي يوزّعه على المذكورين في الآية، ولو أن رسول الله ﷺ خصّ نفسه بعُشر هذه الحصة، لعاش حياة مرفَّهة جدًّا، ولأقام في القصور، إلا أنه ﷺ آثر أن يعيش حياته السنية في حجرة السعادة التي هي مجرد حجيرة صغيرة، لدرجة أنه ﷺ كان -كما روتْ أمّنا عائشة رضي الله عنها- عندما

(٧٩) سنن الترمذي، الزهد، ٤٤.

أراد أن يسجد أثناء قيام الليل يمسّ قدمي السيدة عائشة بيده، فيتسنى له السجود بعد أن تسحب ﵂ قدميها[٨٠]، أي إنه ﷺ ما كان يجد في الحجرة التي يعيش فيها -أرواحنا فداء لتلك الحجرة- موضعًا للسجود، لكننا حين نضع أمام ناظرينا خُمُس الغنائم التي تُركت بأمر الله تعالى تحت تصرفه نرى أن سيد الأنام عليه ألف ألف صلاة وسلام فضّل أن يعيش حياة بسيطة جدا واستخدم هذا كله في سبيل الله، برغم امتلاكه من الإمكانيات ما يكفي لتجهيز جيش كامل؛ أجل، لقد كان يتحرك في حياته الشخصية والبدنية، وفي المتع والملذات بحكمة وضبط للنفس وبتوازن تامّ، بل إنه مثال الاستقامة التي أمره الله بها في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (سُورَةُ هُودٍ: ١١/١١٢).

وَرَثة روح الاستغناء

لا ريب أن رسول الله ﷺ كان شخصا فريدًا وفائقًا لا مثيل له في صلته بالله تعالى ومنزلته ومكانته وسعته وعمقه؛ أجل، لقد كان ﷺ ساميَ الطبيعة ومتميزَها حتى إنه يشير إلى أنه يشعر بمتعة ولذة من العبادة والطاعة، كالمتعة التي نشعر بها نحن من المأكل والمشرب وغيرهما من الملذات الجسمانية؛ ولذلك كان يستأذن زوجاته ليلًا كي يروي عَطَشه من الحق، فيقوم ليله ويُدني فاه من نبع العبودية ينهل منه، وهو بهذا الاعتبار لا يُقارَن به أحد حتى صحابته الكرام؛ أجل، لا يمكن مقارنة أحد به ألبتة، بل إنني ربما أذهب إلى أبعد من ذلك وأقول -إن لم يُعتبر هذا نوعًا من التجرؤ- إننا نخطئ حتى لو أننا قارنّا به ﷺ جبريل ﵇؛ لأن جبريل ﵇ لم يكن يحمل على عاتقه أعباءً جسمانية ولا نفسانية، أما سيدنا رسول الله ﷺ فرغم

(٨٠) انظر: صحيح البخاري، الصلاة، ٢٢.

أنه يحمل هذه الأعباء، قد سبق الملائكة الكرام؛ ولهذا السبب كان عليه ألف ألف صلاة وسلام -مثلما عاد من المعراج إلينا- يتنزل من أفقه إلى مستوانا كي يقدّم رسائله لنا ويرشدنا إلى الطريق الصحيح ويعرض أمامنا قضايا موضوعية تتناسب مع منطقنا وأسلوب معيشتنا.

وعندما ننظر إلى المسألة في إطار هذه المعايير، يمكننا القول بأنه ينبغي أن يعيش الناس حياتهم الشخصية في استغناء عملا بالرسائل التي بلّغها ﷺ لأمّته، وإن تعذرت مقارنة أي إنسان به، فالواقع أن الأكابر المتأسّين به قد فضّلوا أن يعيشوا مستغنين، ولو نظرتم إلى نمط حياة الأستاذ بديع الزمان مثلا، لرأيتم أنه ارتضى الاستغناء دستورًا مهمًّا في حياته كلها، فقضى أيامًا فوق شجرة أحيانًا، وشهورًا في قمة جبل أحيانًا، وأحيانًا أخرى في منزل خشبي غير ملائم للإقامة إطلاقًا؛ والحاصل أنه فضّل أن يعيش حياة بسيطة حتى آخر عمره، وفي الحقيقة أن الذين حقّقوا إصلاحا وتجديدا في مجتمعاتهم قد عاشوا مستغنين عن الدنيا، ولو كانوا من الذين يدينون غير ديننا وينتمون إلى ثقافات أخرى.

ومن هذه الزاوية يمكننا القول إن هذه الخصائص التي تُعتبر أمارة للعظمة في القيم الإنسانية العالمية يمكن توفرها عند أي إنسان، والفارق هنا هو أنها أكثر سلامة في القلوب المؤمنة، وأنها تَعِد بالثبات والبقاء؛ لأن التأييد الإلهي ظهيرهم، أما الآخرون فإنهم -وإن تَحَلَّوا ببعض الصفات الإيمانية مثل الاستغناء والإخلاص في العمل والإيثار- إلا أنها لا تَعِد بالاستمرار والبقاء، ولكن ينبغي أن نعرف أن الله ﷻ يُوفّق مَن اتّصفوا بالصفات الإيمانية في أمورهم الدنيوية، لأن معاملة الله ﷻ لعباده إنما هي بحسب تلك الصفات؛ ولذلك فإن الإنسان لا ينبغي له أن ينتظر من الله ما يليق بكرامة الإنسان إذا كان خمولا وأنانيّا وطمّاعا يلهث

وراء جمع الأموال والثروات ويمضي عمره في ملذّاته فقط، لأنه بعُد عن حقيقة الإنسانية، والواقع أن المؤمن الذي يجب عليه أن يرقى باستمرار نحو الكمال، يستحيل تصويب انغماسه في الدنيا وحياتِه في فلك أهوائه، وتحركه وفقا للنزوات الحيوانية، ومن المؤكد أن طرز حياة كهذا ليس هديًا نبويًّا.

سبيل تخليد الإمكانيات الزائلة

لا ريب أننا لا نقصد مما نقوله أن ينزوي الإنسان في زاويةٍ كما يفعل بعض الدراويش ويهجر الدنيا بما فيها، ويُعرض عنها كلية؛ لأن هذا يتنافى مع الأمة القوية، فعلى المسلمين إذًا أن يتزودوا بالإمكانيات الدنيوية قدر ما أمكن، لكن يجب عليهم أن يستثمروها في سبيل الآخرة، وفي هذا الصدد أود أن أنقل لكم شيئا مما كان يطوف بخيالي أحيانا وتتمناه نفسي: أتمنى أن لو دخلتُ غرفتي فوجدت فيها بضعة تريليونات من الليرات، ثم وزّعتُ هذا المال على أصدقائي حتى يتسنى لهم فتح مدارس ومعاهد ثقافية في أرجاء العالم كافة، ليفتحوا قلوب الناس بها، لا ريب أن هذا مجرد خيال وحلم، وكل ما أقوله يذهب سُدى، لكن لو راودكم أنتم مثل هذا الخيال بدلا مني وأفصحتم لي عنه لقلتُ لكم: حتى بمثل هذه العملية الخيالية تنالون ثواب العبادات والطاعات؛ لأنه من المهم جدًّا الانشغال بهَمّ توصيل إلهامات أرواحنا للآخرين، وإنارةِ العوالم بالمشعلة النورانية التي نحملها في أيدينا، وللوصول باسم النبي الجليل إلى كل بقعةٍ تطلع عليها الشمس؛ ورَبْطَ كل شيء حتى الأحلام بهذه الغاية الْمُثلى.

وبالرجوع إلى موضوعنا الرئيس نقول مرة أخرى إنه لا حرج من التزود بالإمكانيات والقوى الدنيوية بعد استخدامها بالشكل المناسب، لكن ما يسوق الإنسان إلى كارثة محققة في الدنيا والآخرة هو المحبة

الشديدة للدنيا والولع بها ويعبّر عنهما حُبُّ المال وحب المنصب وحب المنزل وحب الأولاد وحب الشهوات، ينبغي للإنسان أن يكون عبدًا للحق ليس إلا، ويحبَّ كلَّ شيء لأجله تعالى.

أجل، يجب ذكر الله في بداية كل أمر ونهايته وأوله وآخره، وربطُ كل شيء برضاه تعالى، وإلا فإنْ تحركْنا وفقا لرغباتنا النفسية وأهوائنا الجسمانية تضاءل كل شيء في تلك البؤرة الضيّقة، وحينذاك نقول: يا أَسَفَى علينا وعلى تلك الإمكانيات! وفي رأيي أن على الإنسان ألا يكون سجين هذه البؤرة الضيقة، وهو من قَدْره يماثل قدر الكون، ولديه قوة كامنة ينقاد له العالم بها، وهو من خلقه الله مهيّأ لإحراز مقامات في الآخرة عرْضها كعرض السماء والأرض، بل عليه أن يهرْول وراء الأبدية والخلود، وأن ينشد رضى مولاه ﷻ على الدوام، فلا ينبغي له أن يتمنى أن يكون فاتح إسطنبول إن لم يَصِل به هذا الأمر إليه سبحانه؛ لأن قيمة مثل هذا الأمر ليست من ذاته، فالذي أكسَبه القيمةَ هو سعة النية؛ بمعنى أن الفتح إن ارتبط بغايةٍ مُثلى مثل نيل بشارة النبي ﷺ، ورفْع كرامة الإسلام ورعايته، والبلوغ باسم النبي الجليل إلى كل بقاع الأرض، عند ذلك يكتسب فتحُ إسطنبول قيمةً.

دَوْر النية

إن هذا الأمر يسري أيضا في أيامنا على كل جهد مبذول للتخرج في بعض المدارس والاشتغال ببعض المهن، وبعبارة أخرى لو أن الإنسان يريد أن يقوم بأعمال تخدم بلده وغايته المثلى -ولِتحقُّقها شروطٌ لا بد منها- فعليه أن يراعيها، فمثلا على الطالب الذي يريد الالتحاق بجامعة رفيعة المستوى أن يقول في نفسه: "لن أستطيع دخول الجامعة دون الانتهاء من مدرستي، ولن يتسنّى لي الحصول على مناصب تتيح

لي خدمة أمتي دون التخرج في الجامعة، ولن أحظى على أي مكانة دون الحصول على هذه المناصب، فإن لم أحظ بهذه المكانة فلن أستطيع القيام بشيء في سبيل خدمة بلدي وغايتي المثلى"، إذًا عليه أن يكون في نيته من البداية مثلُ هذه الغاية الجليلة.

أجل، إننا أحيانا لا نملك -مع الأسف- إلا أن نلوم السابقين قائلين: "لِمَ لم ينتبهوا إلى بعض الأمور، ولماذا خلّفوا وراءهم ثغرات في بعض المجالات؟"؛ ولذا علينا أن نبذل كل جهودنا لكي نسدّ الثغرات التي خلّفها السابقون، وألاّ نفسح المجال لظهور ثغرات جديدة، حتى لا يلومَنا مَن بعدنا، ومن ثمّ لا بد من اجتياز العقبات حتى لا يلومنا أبناؤنا وأحفادنا، وعلى ذلك لا بدّ من أن نكون أولًا أصحاب إيمان قوي، وألا نقصّر في أداء العبادات والطاعات، وأن نفعل كل ما نفعله بنيّة صادقة... فإنْ تحقق ذلك فإن الدراسة والتخطيط لها يُكسبه ثوابا مثل العبادات؛ لأن الوسائل المستخدمة في أي أمر تصطبغ بصبغة النية فيه، وعلى ذلك فلا بد من أداء أي عمل بما يتوافق مع نسيج النية.

والحاصل أن المؤمن لا يقوم ولا ينبغي له أن يقوم بأي أمر مطلقا لكسب ثناء الناس وامتداحهم أو لمجرد حسابات دنيوية، بل إن عليه أن يسعى سعيًا حثيثًا لتبليغ الآخرين القِيمَ العالية المنبثقة من جذوره الروحية والمعنوية، ويبذل جهده دائمًا ليكون لهذه القيم كلمتها في التوازن العالمي، ولا جرم أنه في هذا السبيل سيواجه كثيرًا من المصاعب وسيتجرع الآلام ويَئِنّ وينقصم ظهره غمًّا وكمدًا، ولكنه يعرف جيدًا أن المعاناة والمشقات التي يكابدها الإنسان وهو يتحرك في فلك غاية مثلى تفضي به إلى ثواب عظيم لا يصل إليه وإن سلك مسلك أهل السير والسلوك الروحاني.

عفّة الفكر

السـؤال: ثمة مصطلحـات تذكرونها أحيانًا مثل "عفّـة الفكر" أو "شرَف الفكر"، فهلّا تفضّلتم بإيضاح المراد بهذين المصطلحين؟

الجـواب: الفكر والحركة من أهمّ المقومات التي توصلنا إلى حقيقة الوجـود، وبهما نجدد كياننا المعنوي ونحافظ عليه من العواصف العاتية، ثـم إن الفكـر بالمعنـى الإجمالـي وإن كان قبـل الحركـة إلا أنـه بالمعنى التفصيلـي ينمـو داخلها، والمراد أن من شُـغل بموضوع مـا وأعمل فكره وعقله فيه واجتهد في قراءته قراءة صحيحة، لن يستوعبه ويستمرئه إلا بعد الشـروع في تطبيق هـذه الأفكار والتعايش معهـا؛ لأن الأمر يقتضي رُؤى جديدة بعد الشـروع في تطبيق الخطة، وهذا يسـوق إلى أفكار أكثر عمقًا، وبهـذا تسـتقر الأفـكار الإجماليـة على أرضيـة متينة؛ وأهـمّ مبدأ نحرص عليه في جميـع أفكارنا ونيّاتنا التي تحتضن الحركة هو عِفّة الفكر، سـواء أكان الفكـر إجماليًـا أم تفصيليًـا؛ ومن ثم علينا أن نعدّ الـولاء لعفة الفكر مـن مقتضيات شـخصياتنا، وأن نحافـظ عليها كأنه مـاء أعيننا مهما كانت الظروف والأحوال.

الأفكار السليمة منجم للتصرفات السليمة

قد نلقى من بعض الناس معاملة فظّة، لكن لا ينبغي أن يسوقنا خطؤهم إلى خطأ آخر البتة؛ أجل، علينا أن نلزمَ قيمنا الأساسية مهما كانت الظروف والأحوال؛ أمّا إن حدث انحراف في أفكارنا وسلوكنا ردًّا على تصرفات هذا أو ذاك، فسيتولد عنه سلسلة انحرافات بلا ريب، وهذا سيؤدي في النهاية إلى أن نَضِلّ الصراط المستقيم؛ والحق أنا ينبغي ألا نتيح لأحد أن يشغل أذهاننا بَلْهَ أن ينحرف بنا عن الجادّة، وفي سبيل المحافظة على عالمنا الفكري ومنهجنا الفكري وشلّالنا الفكري علينا أن ننأى بأنفسنا عن أي استفزاز مؤثر؛ لأن الهدف الأساس للاستفزازات صدُّ الساعين في طريق الخير عن بلوغ غايتهم المثلى، ومحاولةُ توجيههم إلى وجهة أخرى، أي فالمقصد الرئيس هو قطع الطريق لئلا نبلغ الهدف وللعدول بنا إلى وجهة أخرى.

إذًا لا ينبغي أن تؤثر الافتراءات في رواد الفكر السليم، بل عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في المحافظة على عفّتهم وشرفهم على الدوام، وهذا لا يمنعهم حقّهم في دحض الافتراءات بالبيان أو التصحيح أو التفنيد؛ أجل، لا بد أن نفكر دائمًا باستقامة حتى تستقيم الأفعال والتصرفات التي ستُبنى على هذا الفكرِ النظريّ؛ أمَّا لو ساقتنا كل عاصفة تهبّ علينا واطَّرَحتنا جانبًا، نكون قد ضللنا السبيل الذي كنّا نسير فيه، وسلكنا دروبًا وعرة، وأخطأنا الطريق في النهاية.

مَن حسُنتْ فِكرتُه استمتع بحياته

يقول النبي ﷺ "**أَفْلَحَ مَنْ كَانَ سُكُوتُهُ تَفَكُّرًا، وَنَظَرُهُ تَعَبُّرًا**"(٨١)؛ يدل هذا

(٨١) الديلمي: مسند الفردوس، ٤٢١/١.

البيان النوراني أن المرء يُؤْجَر على حُسن الفكرة كما يؤجَر على العبادات، هذا وإن الانشغال بالأفكار التي لا سبيل إلى تحقيقها يعد إهدارًا لطاقتنا، لكنني أرى أن الإنسان لو تمنّى خيالًا أن لو كانت لديه المقدرة على تغيير صورة هذا العالم ووضْعه في شكل أبهى وأكثر حيوية، فإن تصورات هذا الإنسان وخيالاته تصطبغ بلون العبادة وصورتها؛ إن الوظيفة التي تقع على عاتق المؤمن هي الانشغال بالأمور الحسنة على الدوام، والسعي في إطار هذه الأفكار الحسنة، يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي -طيّبَ الله ثراه- في كتابه "المكتوبات": "مَنْ حسُنت رؤْيته حَسُنتْ رَوِيّتُه، ومن حسُنت رويّته استمتع بحياته"(٨٢)؛ أي إنما تغدو حياة الإنسان متعة لها نغمة، ويعيش كأنه يسير في أروقة الجنة إذا حسُنتْ فكرتُه.

لدى الإنسان استعداد فطري للتفكير؛ فإن لم يوجّه استعداده هذا إلى طريق إيجابي، فربما يجرّه هذا الاستعداد إلى سبل سلبية كالأنانية والبوهيميّة؛ وليس هذا في التفكر فحسب بل إن التصورات والتخيلات التي لا تُستخدم في الخير قد تضع الإنسان وجهًا لوجه أمام هذا الضرب من السلبيات؛ فعلى المؤمن أن يتحرك دائمًا بالقيم التي يؤمن بها، وأن يحفِل بها، وأن يقرأ ويفكّر دائمًا، وعليه أن ينهل ويتغذّى من المصادر الأساسية باستمرار دون أن يسمح بحدوث أي فراغ في حياته، وعليه أن يعطي إرادته حقَّها فينأى بعيدًا عن مشاعر وأفكار تأباها آلية الوجدان، فإن هبّت عليه رياح سلبية رغم كل جهوده، فعليه أن يحاول التخلص من هذا المناخ كما أوصى بذلك رسول الله ﷺ؛ لأن مَن أبحر في خيالات تخلّ بعفّة الفكر يصل إلى نقطة يبدو فيها كمن أبحر بعيدًا جدًّا عن الشاطئ، فلم يعد يعثر من جديد على قارب يرجع به عن السلبيات التي غاص فيها؛ أجل، إن عجز الإنسان عن قطع السبيل على الحقد والكره والغيظ

(٨٢) سعيد النورسي: المكتوبات، نوى الحقائق، ص ٥٧٥.

والشهوة الجارية في عروقه، فقد تحطّم هذه الأمور السدودَ وتستصدرُ قرارات منحرفة تجعل المرء يرتكب أعمالًا مشينة.

على الإنسان أن يوفِّي إرادته حقَّها في هذا الباب من جانب، وأن يسأل الله تعالى الحفظ من الجانب الآخر، فإن استطاع فعل هذا عاش حياته -بعون الله تعالى- في الحِمَى وكَنَفِ الحفظ، لكن لا بد من اليقظة والحذَر الدائم، فلا يَأمن أن ينقلب على عقبيه حتى أكثرُ الناس استقامة، وما علينا عندما نهتز ونوشك أن نسقط إلا أن نقوّم عِوجنا، ونتوجه إلى الله تعالى من جديد قائلين: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٢٣/٧).

الأهواء والرغبات بلباس الفكر

ومما ينبغي الانتباه إليه من أجل عفّة الفكر أن الأهواء والرغبات قد تتدثر بدثار الفكر، وتنحرف بالعبد عن الطريق القويم؛ والمعايير الشرعية هي وحدها المقياس في تحديد ما هو هوًى ورغبةٌ وما هو فكرٌ، فإذا ما ثُرْتَ على إنسان لتصرفات وأقوال أغضبتك وآذتك، فانظر أولًا ما الذي أغضبك: أهو الإضرار بالحق والحقيقة أم ماذا؟ فإن لم يكن ثمة ضرر فأنت إنما تثور وتنفعل من أجل نفسك، فردّ الفعل الذي وقع مصدرُه الهوى إذًا، أما المعيار الذي وضعه القرآن الكريم عند التعرض للأذى فهو ﴿**اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ: ٣٤/٤١)، وعملًا بهذا المعيار فإن معاملة من آذاكم تكون بمحاولة كسرِ شدة غضبه وانفعاله بالابتسامة والوجه الطليق، أما إيذاء المقدسات والحقوق العامة فليس لك أن تعفو عنها؛ لأنك إنما تعفو وتصفح عن حق تملكه فحسب، أمّا حقوق الله تعالى فإنه لم يَكِل إلى أحد حقّ العفو عنها، فليس لأحد -أيًّا كان- أن

ينوب عن الله فيها، وخلاف ذلك إساءة أدب مع حقوق الله.

نعم، قد تلبس الأهواء والرغبات لباس الأفكار، فيحسبها الإنسان -بتزيين من الشيطان والنفس الأمارة- فكرًا، وربما يرتكب أخطاءً تحت تأثيرها؛ لاحظوا هذا في بعض المناقشات الفضائية التي ينتقد الناس فيها بعضهم بعضًا بلا هوادة، فهم دائمًا ما يقولون عكس ما يقوله الطرَف الآخر، سواء أكان ما يقوله صحيحًا أم خطأً، وكأنهم انقطعوا للمعارضة فحسب، حتى لو فرضنا المحال وقال مناظره: "بيدي مفتاح الجنة، ادخلوها الآن بإذن الله وفضله"، وانفتحت أبواب الجنة على مصراعيها أمامهم بإشارة منه، ورأوا بأم أعينهم جمال الجنة الأخَّاذ، فلربما يقولون: "كلا، إننا نأبى دخول هذه الجنة، فإن هذا طريق الكسل والعطالة، ينبغي أن نسعى في الدنيا أكثر!" أي إن السفسطة في الرد ديدنهم حتى تجاه الأقوال والأفكار الأكثر منطقية وقبولًا؛ فهذا الضرب من الكلام وراءه الشيطانُ، والباعث عليه الهوى، ويتوهم الإنسان أنّه هو من فكّر وتصوَّرَ كل هذه الأمور.

وقد يسقط بعض المؤمنين في فخ الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء؛ فإذا ذُكّر أحدهم بالموت أَلبس رغباتِه وأهواءه مثل حبّ الحياة وحبّ الأولاد والعيال والتلذّذِ بالدنيا لباس الخدمة، ويقول بدافع من هواه: "ينبغي أن أبقى هنا، وأن أبلّغ الحق والحقيقة لِأُناسٍ كثيرين"، يقول هذا والحق أن على كل مؤمن صادق أن تفيض نفسُه شوقًا إلى لقاء ربّه، وأن يستشعر شوقًا عارمًا للقاء سيدنا رسول الله ﷺ، وللجلوس على مائدة كل من سادتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ﷺ، ويتنسَّم معهم عبير المناخ وتلك الألطاف، مع ما يجب عليه من يدفعه إلى أن يقول: "ربِّ أعوذ بك أن أتعجل لقاءك فأُسيء الأدب معك، فلا علم لي هل آن أواني أم لا؟".

والوجـدان حَكَـمٌ مهمٌّ للغاية فـي هذا الباب، فعلى الإنسـان أن يقوِّم كل مـا يصـدر عنـه لاختبار وجدانـه تقويمًا دقيقًـا، وأن ينضبـط بالمعايير الصحيحـة فـي كل اختياراته وقراراته؛ فإن اسـتطاع فعل ذلك فقد اجتنب تلبيس الهوى والهدى والمنطقية والعقلانية بالرغبات والأهواء.

بوصلة النيّة وشعور المحاسبة

سؤال: ما الأمور التي ينبغي مراعاتها كي تُشير إبرة النية إلى أفق الإخلاص دائمًا؟

الجـواب: علـى الإنسـان أن يكـون مخلصًـا فـي قولـه وفعلـه كلِّـه ليبلـغ رضا الحـق تعالى؛ لأنـه إن كان العمل جسـدًا فالإخلاصُ روحه، وإن كان جناحًا فالإخلاص هو جناحه الآخر، ولا حياة لجسد دون روح، ولا يمكن الوصول إلى الهدف إلا بجناحين، ربّ كلمةٍ تُقَال بإخلاص لها ما لها من القدر عند الله تعالى، تتحدث عنها الملائكة فيما بينها، وتجعلها وِردًا لها، وتتخذها الأرواح تسبيحًا تردّده.

إذا انبعثت الكلمات من وَتَر القلب الحسّـاس، وحرّكتْ سـاكنَه رِيشةُ الحَماس، فإن الألسنة تتناقلها وتطيرُ بها حتى إنها لتصل "حظيرة القدس"؛ وهـذا الضرب من الكلمات التي تقال بصدق وإخلاص تظلّ دائمًا تفيض حسناتٍ في صحيفة قائلها طالما الذاكرة الإنسانية ما زالت تعيها؛ إذ تتكاثر كل كلمة من هذا الضرب ولا تتناهى بفضل نُسَخها وصُوَرها.

أعمال أهدَرتها المباهاة

قد يخسَر المرء حيث يُرجَى الربح؛ وذلك فيما إذا راح يصبغ الأمر بصبغته الشخصية، ويسعى لإثبات ذاته من خلال الحديث عن نفسه وجهده؛ ومرادنا بحديثه هذا كلامه، ونَفَسُه، ونبرة صوته، وقَسِمات وجهه... فيُحرم المكافأةَ المباركة المذكورة من قبل.

فمثلًا؛ ما أَجمَلَ وما أروَع وِرد "سبحان ربي العظيم"، و"سبحان ربي الأعلى"، و"ربنا لك الحمد" في عبادة علوية مثل الصلاة التي تطوف بالإنسان في سماوات الخلود، وتبلغ به عالم الملائكة، وكم هو عملٌ خليق بالتقدير؛ غير أنَّ هذه التسابيح تصير كلماتٍ ميتة، مهيضةَ الجناح، عاجزة عن التحليق، وتصير عبادة الصلاة الجميلة قالبًا بلا روح واسْمًا بلا مسمّى إن خطر ببال من يردّد هذه التسابيح: "إنني أسبّح، فليسمعْني الآخرون".

أجل، لو نوى العبد -ولو بنسبة واحد بالمائة- أن يُسمِعَ الآخرين هذه التسابيح فقد ضيّع روح تلك الكلمات ونسفها نسفًا.

ومثلُها كل الأعمال الأخروية كالأذان، وإقامة الصلاة، وقراءة القرآن فيها... فمثلًا إن تتبع الإنسان وهو في الصلاة لجرس لمعاني القرآنية، وانقياده لجريان ذلك الشّلال شيءٌ، وسعيه للتعبير عن ذاته في الصلاة بتباهيه بصوته شيء آخر مختلف جذريًّا، وليُعلَم أن الحصة التي يأخذها الإنسانُ لنفسه من العبادات، ينقص مقدارها من الأجر عند الله تعالى، وتغدو عائقًا يمنع ذلك العمل من أن يُحلِّق عاليًا، كطائر قُصّ جناحاه.

إذًا على الإنسان أن يَحْتَبِسَ في الإخلاص في كل عملٍ يضطلع به، فيبدوَ للعِيان صغيرًا إذا نُظر إلى ظاهره لكن بشرط ألا يكون أسوة سيئة، والمعنى أنه لا بد أن يكون مثل كوخ صغير ظاهره متواضع وجوانيّتُه أكثرُ سحرًا للعيون من قصرٍ شامخ.

مأوى المحاسبة

على الإنسان أن يستصغر نفسه ويحقِّرها، حتى إذا نظر في المرآة قال: "يا الله! لما تأمّلتُ عالمي الداخليّ رأيتُ نفسي قد هَوَتْ من مستوى الإنسانية إلى درك الحيوانية، ومع ذلك يأبى الله أنْ يمسخ صورتي صورة حيوان".

وعليه أيضًا أن يصارع نفسه ويُفْحِمَها، فيقولَ عمَّا قدَّمه من خدمات في سبيل الحق والحقيقة: "لو استنفدتُ كل ما آتاني الله من طاقات لاستطعتُ تبليغ الحق والحقيقة بأفضل مما فعلت، ولكنني أخفقت في استثمارها حقّ الاستثمار في هذا السبيل، بل أهدرتُها، فأين المروءة والوفاء للإسلام والقرآن؟ وا عَجَبا لِمَ لَمْ أُمْسَخْ حجرًا مثل "أوديت" حتى الآن".

إن النظرة إلى النفس على هذا النحو تثير فيها رغبةً في الترقي؛ لأن الانسان ينشد الكمال دائمًا، فإن كان يرغب بالارتقاء إلى أعلى من مكانته، فعليه أن يوقن أنه في مكانة أدنى من التي ينبغي أن يكون عليها.

وإن الرحلة إلى اللامتناهي لا تعرف الانتهاء والانقطاع، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٣)، وهذه الآية الكريمة تدلّنا على أفق الأكمليّة والأتميّة؛ من أجل ذلك لا بدّ أن نكون في سيرنا إلى اللامتناهي مسافرين لا نعرف الشبع، حتى وإنْ شربنا يومًا كأسَ المحبة والعشق

مـن لدن يد الذات الإلهيـة المنزَّهة عن الكَمّ والكَيف، لَكان علينا أن نظلّ نقول: "هل مِن مزيد؟ هل من مزيد؟".

وبلـوغ الأكمليـة والأتميّة لا يتأتى إلا بمحاسـبة الإنسـان نفسـه على الـدوام، وإلا فـإن عد الانسـانُ ما هـو عليه كمالًا، وتحرك مـن منطلق "لا مزيد على هذا!"، ولم يحاسب نفسه ولم يواجه قصوره وعيوبه، حُكِم عليه بالجمود حيث هو طوال العمر، واستحال عليه ألبتة أن يتذوق طعم الكمال.

ولتركِ محاسبة النفس وجهٌ سلبيّ آخر:

إن من لا يحاسـب نفسـه ولا يحقّرها لا يلبث أن ينشـغل عبثًا بعيوب غيـره بلا وعي، ثـم إذا اجتمعت أنانيـة الجماعة بأنانيته الشـخصية، عظم احتمال الخسران في الدنيا والآخرة، يقول الأستاذ بديع الزمان: "إن أنانية الجماعـة تعـزّز أنانيـة الفرد؛ لذا فمن الممكن أن يُقـال: إن أنانية الجماعة آفةٌ عظيمة تَقتل وتُبيد وتهلك"؛ وسـبيل الوقاية من هذه المخاطر كلّها هو المحاسبة الدائمة للنفس ومقاومتها باستمرار.

فمثـلًا، مـن الممكـن أن يهيّئ الله لإنسـانٍ فرصةَ القيـام بمهامّ عظيمة فـي بقـاع مختلفة من العالم، فيسـتطيع ذلك الإنسـان وحـده فتْحَ قلوب النـاس فيها، وسـنَّ الطريق نحو بناء الحيـاة العلمية والمعرفية هناك؛ ومـع كل هذا النجاح عليه أن يقول في نفسه: "لعل ثمة أعمالًا لم تُستَوفَ لأنني أنا من قام بهذا الأمر، ولو أنَّ مكاني شـخصًا آخَرَ من أهل الفكر والقلب فلربما كانت الخِدْمات أضعافًا مضاعفة، يا ليت هذا الأمر لم يُوكَلْ إليّ".

تلك هي روح المحاسبة الحقيقية للسائرين في سبيل الله.

ومن ثمار هذه المحاسـبة عدم الانخداع بمغـالاة الآخرين وتملُّقِهم؛ أي لـو قـام الإنسـان بالنقد والتحليـل والتقويم لنفسـه عدة مـرات يوميًّا،

وضبَطَ علاقته بربّه وفقًا لهذا، لما التفت إلى ثناء الآخرين عليه ولَقال في نفسه: "أنا أعرفُ بنفسي، قد يكون للشيطان يدٌ في هذا الأمر"، وهكذا يقي نفسه من شِراك الغرور والكبر.

اللهم املأ قلوبنا بشعور المحاسبة، ووفِّقنا إلى حسن أداء ما كَلَّفْتَنا به تفضُّلًا منك وإحسانًا.

!آمين

الأماكن الهادئة وبرامج القراءة

سؤال: إن الإنسان المعاصر يضيق صدره في خضم أنواع وأنواع من ضوضاء الحياة ومشاغلها اليومية، فكلما وجد الفرصة سانحة بحث عن مكان هادئ وشرْم منعزل، وإنّ القلوب المؤمنة لَترغب في الاستفادة من تلك الأماكن الهادئة من أجل حياة القلب والروح؛ فما الأمور التي يجب الانتباه إليها حتى نستطيع الاستفادة الكاملة من برامج هدفُها تحقيقُ هذه الغايةِ؟

الجواب: لكلٍّ منّا مجموعة من الوظائف في الحياة الاجتماعية يجب عليه أداؤها؛ والواقع أن على المؤمن أن يُخالِط الناسَ ويتعايش معهم إن كان يريد نفعهم وتوجيهَهم إلى أفق معين، وإرواءَ أراوحهم بما لديه من قِيَم؛ أجل، على من يؤمن بالله وباليوم الآخر إيمانًا حقيقيًّا أن يخالط الناس وأن يكون كبوصلة القبلة يرشد من حوله إلى قبلة الحق والحقيقة دائمًا، يقول مفخرة الإنسانية ﷺ: **"اَلْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"**[٨٣]؛ ولهذا أرى أن العزلة الدائمة والخلوة المستمرة معناهما التنصل من المجتمع ومن الوظائف الاجتماعية، فأظن بناءً على هذا أن من يهرب من تلك الوظائف يأثم، حتى وإن كانت عزلته لنيل الكمالات والفيوضات الشخصية؛ لأن الأصل في الإسلام هو مصاحبة الحقّ بين الخلق، والسعي لخدمة الإنسانية.

---

(٨٣) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٥٥.

نعـم، إننا نواجـه ما نكره خـلال مخالطة الناس لتحقيـق غاية عُلوية؛ حتـى إننا قد نمشـي فـي الوحل بلا قصد فتتلوث ملابسـنا من باب عموم البلـوى؛ أجـل، قد تتلـوث عيوننا ونحن فـي الحياة الاجتماعيـة، وتتدفق الشوائب إلى آذاننا دون أن ندرك، فيتعكر عالمنا الداخلي بعدة ملوِّثات.

ومن يصبر على كل هذه السـلبيات في سبيل غاية مثالية سامية يحتاج أحيانًـا إلـى العزلـة في مكانٍ نقيّ يستنشـق فيه الأُكسـجين حتى يسـتوفي حاجته منه، ويسـتعيد طاقته هناك ليتنقَّى مما علِق به من أوسـاخ، ويطَّرِح مـا أصابـه من القذر؛ وأعتقد بـأن برامج المذاكرة والقـراءة في إطار غاية كهذه تعدّ من ضروب العبادة.

ثمة أمر يتعيّن الانتباه إليه في هذه النقطة: تلك الأماكن الهادئة والشروم المنعزلـة التي يتطلب الوصول إليها تكبُّدَ مشـاقَّ ونفقـات كثيرة ينبغي أن يُستفاد منها، وأن لا تُضيـع منها لحظة واحدة، وأن تُعمر بفعاليات القراءة المنتظمـة، وتُحيـا بـالأوراد والأذكار؛ أجـل، يجب أن تُؤلَّف سـمفونيات وجوقات موسـيقية من الأذكار والتسـبيحات التي تتفجر من القلوب وتهزّ الأرض والسماء، حتى يهمّ سُكّان الملإ الأعلى بالمشاركة فيها.

مناخٌ منفتحٌ على الرُّوحانيّات

في مخيمات القراءة القديمة التي تُقام في أشهر الصيف كان الأصدقاء ينزوون ليلًا هنا وهنالك يتلون القرآن ويبتهلون بالأدعية، الأمر الذي كان له بالـغ الأثر في نفسـي؛ ويقرؤون في هذه المخيمات ٢٠٠-٣٠٠ صفحة يوميًّا حول الحقائق الإيمانية، ويتذاكرون موضوعات شتّى.

والحياة في هذه المخيمات متواضعة جدًّا، فهم يرقدون على الأرض فوق حصير، وأنا الفقير أطهو الطعام وأقدمه لهم.

وذات يوم زارنا شخص مرموق، فلما رأى ما يجري في ظل هذه الظروف العسِرة قال: "لا أظن أن في الأرض الآن مكانًا تسوده الروحانية كهذا المكان"، ثم عاود المجيء في العام التالي.

وعلينا في هذه الأجواء النقيّة أن نحاسب أنفسنا ونرصد تقصيرنا في أعمال الخدمة، وأن نحسب المسافة بين ما نحن عليه وما ينبغي أن نصل إليه، وأن نتخلى عن اللذات، ونتجرد من الحيوانية، ونطرح القاذورات البشرية جانبًا، ونعزم السفر على مِحْوَر حياة الروح، ونسعى للانفتاح على الروحانيات.

وأنوّه هنا بأمر مهم:

كنت أفكر في أيام المخيمات أن أوصي إخواني بمائة ركعة كل ليلة، ثم خشيت أن يكون هذا تكليفًا بما لا طاقة لهم به، لكن من ينظر في سيرة العظماء يجدهم يصلّون مائة ركعة كل ليلة حتى في طفولتهم.

فعلى من شهد مثل هذه المخيمات والبرامج أن يصلّي مائة ركعة كل ليلة إن أمكن، وأن يستغلّ تلك الليالي التي تفيض بالأسرار والأحزان بالدعاء والاستغفار وقراءة القرآن والأذكار.

مؤلَّفاتٌ مألوفة غلبت عليها الإلفة

لو أن أهل المخيم قرؤوا ٣٠٠ صفحة يوميًّا؛ حتى يتسنى لهم حسن الاستفادة من برامج الاسترواح التي يمكن تسميتها "العزلة المؤقتة"، فإذا كان البرنامج ١٥ يومًا، فسيقرأ الفرد ٤٥٠٠ صفحة؛ فإن قام بذلك البرنامج مرتين سنويًّا قرأ عددًا كبيرًا من الكتب التي تبحث في قِيَمنا الذاتية.

ومـن المفيد جـدًّا التخلص من الرتابة، والاشـتغالُ بالقـراءة المقارنة بين هذه المؤلفات النفيسة والمؤلفات الأخرى؛ وتحققُ هذا بالطبع رهنٌ بموافقتهم جميعًا.

وهـذا الأمر سـيُجهِد مَن لهم الريادة في عالـم القراءة والمذاكرة حتى يأتي يوم نتخلص فيه من الإلف والطرز القديم للقراءة.

وليُعلَم أن الناس يتشـكلون تبعًـا لرُوّادهم، فإن عُني الرُّوّاد بهذا الأمر وألحّـوا علـى تطبيقه تأسَّـى بهـم الأتباع؛ فيا للأسـف لقد اسـتولت علينا وأسَـرَتْنا حالة عقيمة، إنها القراءة العابـرة لهذه المؤلفات القيّمة، والمرورُ عليهـا مرورَ الكرام دون إجهاد النفس فـي فهمها بعمقها الحقيقي؛ وذلك لأنه لم يتكون عندنا منهج قراءة يعتمد على المقارنة والمحاكمة العقلية.

كنـوز من جوهر وياقوت وزبرجد قضى عليها الإلف، وأعتقد أن هذا الأمر قد يُفضي إلى امتعاض أصحاب هذه المؤلفات القيّمة مِنّا.

مسألة أخيرة:

إن تحقيـق مثـل هذا الصفاء والنقاء -ولو مؤقّتًا- في مكان هادئ كأنّه "صُوْبَة" صيانة تصوننا في حياتنا الاجتماعية القادمة.

والحق أنه منذ أن تشـرَّف مجتمعنا باعتناق الإسـلام لم يتلطخ بمثل هـذه القـذارة التـي نراهـا اليوم، فالشـوارع والأسـواق وصحـون المعابد والمؤسساتُ التعليمية ملطخةٌ بالنجاسة؛ لذا فإن التخلص من هذه الأدران، والتطهـرَ في مكان طاهر، والإحسـاسَ والابتهاج بالطهر مرة أخرى، أمور لها أهمية بالغة في مضيّ الإنسان في حياته على نهج طاهر قويم.

إن اللجـوء إلـى العناية الإلهيـة بالأدعية والأذكار مصـدر قوة يصون الإنسـان ويرعاه، يقول تعالـى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ (سُـورَةُ البَقَرَةِ: ١٥٢/٢)،

فهذه الآية تشير إلى أننا إذا ذكرْنا الله بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، ذَكَرَنا هو بعنايته عند المصائب وانقطاع السبل، وتشير هذه الآية أيضًا إلى ما يلي: "تَوَجَّهوا إليّ بفقركم وعجزكم، أؤيّدكم بحولي وقوتي"؛ وإننا لنستشعر مدى تجلّي اللطف الربّاني في هذا التوجه الإلهي الذي أتى على صورة العقد، وكأن ربنا ﷻ يتنزل إلى مستوانا ويعهد إلينا عهدًا فيقول لنا: "افعلوا لي هذا، أفعل لكم ذاك".

ومجمل القول أننا جميعًا بحاجة ماسّة إلى مثل هذه العزلة المؤقتة حتى يكونَ بوسعنا تنقية أعيننا وآذاننا وألسنتنا من الذنوب والآثام، وتزكيةُ قلوبنا كي نتجدد، والمهم في مثل هذه اللقاءات أن تركّز العقولُ على قراءة الكتب، والقلوبُ على الأدعية والأذكار، وأن نعفّ عن الخوض في أمور تافهة، وألا نخوض في اللغو ولهو الحديث، وأن يكون كل كلامنا في الأمور السامية.

الحماسة والوَلاء

سـؤال: ما الأمور التي ينبغي أن نرعاها حقّ رعايتها عند ذكرنا لعظماء عرفْنا بهم الحقَّ والحقيقة، فنحن نحترمهم ونحبّهم حُبًّا جمًّا؟

الجواب: إن القلوب المؤمنة بينما تسعى وتجهَد كي تُودِعَ إلهامات أرواحها في صدور مخاطبيها قد تضطر إلى ذكر جماليات بيئتها التي تعيش فيها، ولا بد أن يُوضع في الحسبان بشكل مطلق الشعورُ العامّ لمن يسيرون في خط مختلف في بيئة أخرى؛ نعم، قد يتحدث غيرُنا عن جماليات شاهدوها وعاينوها في بيئتنا ويكتبونها وفقًا لفهمهم وأسلوبهم الخاصّ، فما ينبغي للقلب المؤمن أن تسيطر عليه الحماسة ألبتة، إلا أن عليه ألا يبالغ قطعًا وإن تحدّث عمّن يحبّهم لدرجة العشق ويحترمهم كثيرًا، لا سيما إن كان حديثه عن مسائل ظنيّة أو لا تَمُتُّ بِصلة مباشرة إلى روح الدين،؛ فلنلزم الدقة القصوى في هذا، والحذر الحذر من الخوض في موضوعات كهذه.

قد يتعلق امرؤ مثلًا بالشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي تعلّقًا وثيقًا، حتى إنه في حالته الروحية هذه لو كانت له ألف روح لضحّى بها جميعًا حبًّا فيه ووفاء له، ثم إنه عدا الطرق والمشارب الأخرى فللنقشبندية نفسها فروع شتى مثل: المجددية، والخالدية، والكفرويّة، وقد يكون بينها تنافس على نحو ما؛ والتنافس ينبغي ألّا يسوقنا إلى التزاحم، بل التسابق في الحق

من منطلق "لن أتخلّفَ عن إخواني"، أو قل: ينبغي أن يكون التنافس طرزَ حركةٍ ومنطق سباقٍ منطلقًا من مبدأ "أيدخل إخواني الجنة ولا أدخلها أنا؟ عليّ أن أدخل معهم"؛ وعندما يختل التوازن في هذا الشعور أو يضيع أو يخطئ الناس في توظيفه فإنهم يختصمون، بل قد يزداد الأمر، فتتحول المنافسة إلى حسد وحقد، وهذا أمر خطير جدًّا على أهل الإيمان؛ ولهذا ينبغي للقلوب المؤمنة حتمًا ألّا تربط المسألة بِـ"الانتماء" المتعصب لئلا تُهيّج وتثير نوازع الحَسَد لدى من يعملون ويجتهدون في مسارات أخرى، فلتتحكم في مشاعرها لتحقيق الوفاق والاتّفاق بين المؤمنين.

أعلى المراتب

الصدق والولاء للأشخاص ليس هو الأصل، بل الأصلُ الصدقُ والولاء للفكرة المثالية التي يحاول أولئك الأشخاصُ تحقيقَها بكلّ ما أوتوا؛ وذلك أن الأشخاص تفنى والأفكار تبقى؛ وليس ثمة مَرتبة أعلى من الصدق والولاء، ففي آيةِ ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٦٩/٤) قُدِّم الصدقُ على الشهادة والصلاح؛ فسيّدنا أبو بكر أعلى الناس رتبةً بعد الأنبياء يُلقّب بِـ"الصدّيق الأكبر"؛ فليس الهدف أن نغالي فيمن نحبّ ونحترم، بل الهدف السير ما استطعنا في طريقهم واتباعهم في كل خطواتهم.

ومن يدّعي حبّ شخص ما حبّ العاشقين، فدعواه عندي كاذبة إلا إن أخذه الوجد كلما تذكّره، وكلما صلى مائة ركعة في ليله دعا ربّه قائلًا: "اللهم احشرني معه"، وضحّى بكل ما لديه في سبيل رسالة محبوبه، وهذا هو الأهم؛ وهو المعيار الذي ينبغي أن تراعيه وأنت تحاسب نفسك وتسائلها؛ وإلا فليس لأحد أن ينفي عن أحد الإخلاص والصدق.

واعلموا أنكم إن أخذتم في الحديث عن شخص ما بملاحم حماسية فإنكم تستفزّون الآخرين دون أن تشعروا، وتتسببون في تكوين جبهات كثيرة ضده؛ حتى إن المبالغة في الحديث والسلوك والتصرفات قد تستثير المؤمنين على درجات متنوعة لا أعداء الدين فحسب؛ أجل، إننا حين نضيّق واسعًا ونختزل القضية في أشخاص، نكون قد دفعنا من يخدمون الإسلام في خطوط متوازية إلى المنافسة والشحناء، وربما نهلكهم بداء الحسد؛ فأكرر القول: ليس المهمّ مدح مَن نحب، بل المهم هو الصدق والولاء الكامل لقضاياهم.

عباراتٌ فيها مبالغات ضارّة تكاد تكون خيانة

وإنه لظلمٌ بيّن وإجحافٌ كبير أن ننسب كلَّ جميل إلى الرُّوّاد والموجّهين، ثم ننعتهم بعبارات مبالغٍ فيها؛ لأن كلّ نجاح وإنجاز إنما هو إحسان ربانيّ لروح الوحدة والتعاون، فعزْوُ كلّ الخدمات الإيمانية إليهم وحدهم قد يُفضي إلى الشرك بالله والعياذ بالله، وهو ظلم كبير لجهود ومساعي من جاهدوا وثابروا في سبيل تحقيق هذه الخدمات الجليلة.

أما مسألة الرّيادة فلا ينبغي أن ننسى أننا جميعًا إخوة، وقد يسبق بعضُنا بعضًا في الدخول إلى ميدان الخدمة بجَبْرٍ لُطْفِيّ من الله؛ أي إن الله تعالى قدّر في اللوح المحفوظ مولد شخص ما قبل غيره، ولا قِبلَ لأحدٍ بتحديد تاريخ مولده، فلا قيمةَ إذًا مطلقًا لمسألة سبق واللحاق بركب خدمة الدين.

ونحن دائمًا نوقّر كبارنا وعظماءنا امتثالًا لقول نبينا ﷺ: "**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**"(٨٤)؛ لكن ليس معنى هذا رفْعَ هؤلاء الكبار

(٨٤) سنن الترمذي، البر والصلة، ١٥؛ سنن أبي داود، الأدب، ٥٨.

والعظام إلى درجات ينوء كاهلهم بها والغلو في الحديث عنهم، فمثلًا إن مَن عرف حقائق الإيمان على يدي شخص، قد يعده أحد الأقطاب، ولكن إن غالى وآثر التعبير هنا وهنالك عن مشاعره بملاحم حماسية، عُدّ ذلك خيانة للفكرة المثالية التي كان ذاك الشخص يسعى لتحقيقها.

ولكم إخوة هاجروا إلى شتى بقاع العالم، ونجحوا في إنجاز خدماتٍ عظيمة، إلا أنّ المبالغة -ولو بلا غرض أو هوى- في نعتهم بصفات وألقاب، ورفْعَهم إلى أعلى عِلّيِّين يُعدّ خيانة لـ"حركة المتطوعين" هذه؛ لأن هذا سيسهم في تكوُّن جبهات حسد جديدة لا تستسيغ وجودكم؛ نعم، قد يغالي في هذا الأمر مَن ليس له دراية بمعاييركم، وليس بوسعكم تكميم أفواه الناس، إلا أن لكم وعليكم أن تَكُفُّوا عن الغلوّ وتعفّوا عن ذكر هذه الملاحم الحماسية.

أرى أن هذا الموضوع بالغ الأهمية في مستقبل خدمة الإيمان والقرآن هذه؛ وأعتقد أنه لا بد من التنبيه والتحذير المستمرّ في هذا الموضوع، وإن شئتم فعدُّوه "واجبًا خِدْميًّا".

التوقيع بـ"لا شيء"

عندما نلتقي بمَن يبذلون خدماتهم على طُرق ومناهج أخرى فمن الأهمية بمكان أن نبدأ كلامنا بذكر فضائل شخصيات تتبوأ منزلة كبيرة في قلوبهم، ونجلّهم ونقدّرهم في حديثنا؛ لأن الاحترام والتقدير يقابَلان بمثلهما، أما إن ضاق أفقكم وأخذتم تتحدثون عن منهجكم فحسب لحبكم المفرِط له، فقد وسّعتم الهوة بينكم وبينهم، وأسهمتم في ردود فعل سلبية إزاء مسْلككم؛ فعلى من أحبَّ مشربَهُ وتعلَّق به بحبّ وعشق عظيم وينشد احترام الآخرين وتوقيرهم له أن يفكِّر جيدًا: ما الطريق إلى

تحقيق هذا: أهو في ذكر فضائل مشربي وأصحابي أم في اتساع صدري للآخرين واحترامهم وتقديرهم؟

وصفوة القول أننا -معشر المؤمنين- وإن كنا في مسارات شتى في طريقنا لخدمة الدين، لكنْ كلٌّ منا يقوم بحمل جزء من هذا الكنز الثمين السامي.

ومن الخطأ أن يقول امرؤ: "إن هذا أو ذاك يحمل أثقل ما في هذا الكنز"؛ لأن في هذا إثارة لمشاعر التنافس والتحاسد؛ فإن كانت الحقيقة هكذا فسينال هذا الشخص أعظم ثواب في الآخرة بلا شك، أمّا إن غالينا في تلميع صورة مَن هم على منهجنا، فقد تعثرنا في أوحال الشرك بعَزْونا أفعال الربّ إلى العبد، وأفسدنا روح الوفاق والاتفاق؛ فعلى من كان التوحيد غايتهم الأصلية وأعلنوا الحرب على الشرك ألّا يفسحوا المجال لتسرّب ذرة من الشرك إلى قلوبهم؛ فالله سبحانه ﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ١٠٢/٦؛ سُورَةُ الرَّعْدِ: ١٦/١٣؛ سُورَةُ الزُّمَرِ: ٦٢/٣٩؛ سُورَةُ غَافِرٍ: ٦٢/٤٠)، وهو يقول: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)؛ فهو الخالق لأفعالنا، ونسبة الفعل إلى العبد كارثةٌ كبرى ساقتها الفلسفة الإغريقية إلى العالم الإسلامي، فلنبرأ من هذا كله ونستمسك بالتوحيد.

ومن العوامل المهمة للوصول إلى التوحيد معايرة الإنسانِ نظرتَه إلى نفسه أمام الله ﷻ، وتأتي في هذا السياق مقولةُ الأستاذ بديع الزمان: "أيتها النفس المرائية، لا تغترّي بقولكِ: "أنا خدمتُ الدين"، فإن الرسول ﷺ يقول: "**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**"(٨٥)، وبهذا السر عليكِ

(٨٥) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ١٨٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٧٨.

أن تعتبري نفسَكِ ذلك الرجلَ الفاجر، لأنكِ لستِ مُزكّاةً"[٨٦]؛ فهو يضع نفسه موضعها، ويعدها مَمَرًّا للجماليات فحسب، لا مَظْهَرًا لها[٨٧]، بل لا يعدّها شيئًا، إنه بهذا ليعطينا درسًا عظيمًا بصفته مُوجّهًا ومعلّمًا، فإن كانت نفس هذا الرجل العظيم "لا شيء" فعلينا أن نرى أنفسنا "لا شيء في لا شيء".

(٨٦) سعيد النورسي: **الكلمات**، خاتمة الكلمة السادسة والعشرين، ٥٤٢.

(٨٧) انظر: سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الثامنة عشرة، ٢٤٨.

روابط الأخوة النورانية

سـؤال: ورد في "الخطبة الشـامية"[٨٨] أن الجهل بالروابط النورانية التي تربط أهلَ الإيمان بعضَهم ببعض من أخطر الأمراض التي حالت دون تطوّرنا ورقيّنا، فما هذه الروابط النورانية؟.

الجـواب: حينما ألقى بديع الزمان سـعيد النُورْسِـي خطبته الشـامية بالجامـع الأمـوي فـي دمشـق كان العالـم الإسـلامي يتعـرض لمصائب وكـوارث لا نظيـر لها ولم يشـهدها طوال تاريخه؛ فسـعى الأسـتاذ بديع الزمان ﵀ في مثل هذا الجو إلى البحث عن وسائل لاستثارة حميّة هؤلاء الناس الذين ركنوا منذ سنوات إلى الدعة والخمول وكأنما أصابهم الصدأ، وغدوا لا يصلحون لشيء، فضمرت خلاياهم العصبية، وضعفت قابلياتهم وقدراتهـم على التحـرك والنهوض من جديد، محاولًا تحريك حواسّـهم الظاهرة والباطنة، المادية منها والمعنوية مرة أخرى.

وبدلًا من أن يذكّر الناس بجو الموت بكلمات مخيّبة للآمال ومارْشات جنائزية مثل المارْش الجنائزي لـ"شـوبان"، نراه يترنم بعبارات قوية هادرة

(٨٨) ألقى الأستاذ بديع الزمان سعيد النُورْسِي خطبة وهو في شرخ الشباب باللغة العربية في الجامع الأموي بدمشق، وكان بإلحاح علماء الشام، وحضرها جمٌّ غفير من الناس يربون على عشرة آلاف شخص، تناول الأستاذ فيها مشاكل المسلمين وكشف الداء وأشار إلى الدواء وطُبعت كتابًا بعنوان "الخطبة الشامية". (المترجم)

كالأصوات التي تُطلقها الجوقات الموسيقية العسكرية قائلًا: "كونوا على أملٍ، إن صوت الإسلام الهادر سيصبح أعظم الأصوات وأعلاها في انقلابات المستقبل"؛ أراد بذلك أن يكون مصدرَ أمل للإرادات الميتة، إن الحديث وقتَ انبلاج الفجر عن بعض الأمور التي تبعث على الأمل وإن عُدَّ من المهارة، لكنه ليس مهارة كبيرة؛ المهارة الحقّة تكمن في القدرة على إلقاء هذه الكلمات التي تشحذ الإرادات وتُحييها في وقت لا يطلُع فيه ولو فجرٌ كاذب.

روابط الأُخوَّة بعدد الأسماء الإلهية

أجل! قام الأستاذ بديع الزمان في هذه الخطبة التي ألقاها قبل نحو قرن من الزمان بتشخيص الأمراض التي تحول دون رقيِّنا وتقدُّمنا أولًا، ثم وضع الوصفات العلاجية اللازمة لإحياء العالم الإسلامي من جديد، فكان من أعظم الأمراض التي شخّصها: الجهلُ بالروابط النورانية التي تربط أهل الإيمان بعضهم ببعض، أما الوصفة الطبية التي وضعها فهي إحياء مفهوم الوفاق والاتفاق وروح الشورى من جديد.

في الواقع تكلم الأستاذ النُورْسِي عن هذا الموضوع في الخطبة الشامية إجمالًا، وأخضعه فيما بعد للشرح والتفصيل في "الملاحق"، و"رسالة الإخلاص" و"رسالة الأُخوَّة"، فذكر مثلًا في "رسالة الأخوة" أن هناك روابط للوحدة والوفاق والأخوة بين المسلمين بعدد الأسماء الإلهية، وعدّدَ منها: "إن ربنا واحد، ونبينا واحد، وديننا واحد، وقبلتنا واحدة، ووطننا واحد..."، ثم لفت الانتباه إلى عِظَم هذا الأمر وأهميته بقوله "وهكذا واحد، واحد... إلى أن تبلغ المائة والألف".

قال النبي ﷺ: "**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ-** (شكَّ الراوي) **شُعْبَةً**"(٨٩)، ويمكن أن نعدّ هذا كناية عن الكثرة، فكلّ شعبة من هذه الشعب ما هي إلا رابطةٌ لا تنفصم تربط بعضنا ببعض، كما أن الحقائق التي بيّنها القرآن الكريم هي روابط قوية متينة تربطنا أيضًا ببعضنا.

من جانب آخر فإننا عند تناول هذا الأمر على مستوى أمة، نجد أن هناك كثيرًا من الروابط المشتركة فيما بيننا؛ حيث إننا نعيش معًا منذ زمن طويل تحت ظل وطن واحد، وفوق أرض واحدة؛ وعلى ذلك فنحن أبناءُ قَدَر واحد وثقافةٍ واحدة وتربيةٍ واحدة، وقد وقعنا تحت نِير ظلم واحد واضطهاد واحد واستضعاف واحد؛ ولهذا نبّه الأستاذ النورسي أنه من الظلم البيّن أن نقوم بسلوكيات تفضي بنا إلى الشقاق والنفاق والحقد والعداء رغم وجود هذا القدر من القواسم المشتركة التي تستلزم المحبة والأخوة.

إرادة التخلي عن الثوابت الشخصية

إن بقاء تلك الأواصر النورانية دون أن تهِن مرتبطةٌ بتخلي كل فرد -إذا لزم الأمر- عن ثوابته واجتهاداته واختياراته الشخصية؛ وأن يعيش رغمًا عن نفسه من أجل الالتقاء عند نقطة مشتركة، ولو عبّرنا عن هذا الخصوص بمفهوم فضيلة الأستاذ نقول: إذا أمكن تحقيق الاتفاق على "الحسن" في مسألة ما، فلا ينبغي السقوط في الاختلاف في "الأحسن"؛ وبتعبير مختلف: إن كان السعي وراء "الأحسن" سوف يُوقِعنا في النزاع، وجب حينئذ السكوت والاكتفاء بـ"الحَسَن"، ومن هذه الناحية فإنني أرى

(٨٩) صحيح البخاري، الإيمان، ٣؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٥٨.

أنه يتوجب عدم السعي إلى النزاع بين الإخوة بسبب الرغبة في الأحسن، طالما أمكنت إقامة الوحدة والتعاون حول "حَسَن"، كما ينبغي ألا تطرح على الساحة دواعي الاختلاف والافتراق؛ لأن الحق تعالى يرسل توفيقاته السبحانية مرتبطةً بالوفاق والاتفاق، فإنه وإن كان ما يُتّفق عليه "حَسنًا" ظاهرًا فحسب، فهو في الحقيقة أحسن من الأحسن؛ ولهذا السبب فإن تحاشي استخدام قسم من المسائل الفرعية عنصرًا يثير الفُرقة أمرٌ مهمٌّ جدًّا للحفاظ على روح الأُخوَّة.

أجل، يجب على الإنسان أن يضع في حسبانه أحاسيس الآخرين فيتخلى -إذا لزم الأمر- عن اجتهاداته واستنباطاته الشخصية، وبهذه الطريقة لا تُعطى الفرصة لأن تُتخذ آراءٌ خاصة بالفروع وسيلةً للاختلاف.

فمثلًا أداء الصلاة بشكل يوافق حقيقتها أمر مهم للغاية، وعلى حد قول "الإمام الأَلْوارلي" فإن "الصلاة عماد الدين ونوره، والصلاة هي التي تُسيِّرُ سفينة الدين، فالصلاة هي رأس جميع العبادات..."، وحقيقة الصلاة أن يتجرد المرء من نفسه، وأن يستشعر نفسه بين يدي الحق تعالى وكأنه في معراج، إذ ينبغي على الإنسان -بقدر سعة أفق عرفانه- أن يُطهّر قلبه من كل ما سوى الله بداية مِن حين ينوي الصلاة، وألّا ترى عينُه أيَّ شيء غيره تعالى ألبتة، ثم أنْ يقيم صلاته في وجد واستغراق وكأنه في بعد مختلف يشاهد تجليات مختلفة، غير أننا -بصفة عامة- أشخاص أُمِّيّون، وإن الصلاة التي يؤديها أمثالنا شكلية وصورية غالبًا، بيد أنه ينبغي ألا يُنسى أن الإنسان لو كان يؤدي صلاته مراعيًا أركانها وشروطها -حتى وإن كانت صورية- فقد أدّى وظيفته من حيث الظاهر، فليس من الصواب إطلاقًا استخدامُ أسلوب ولغة اتّهامية للناس، بدعوى أنهم لا يؤدّون

الصلاة بالمعنى والفحوى الحقيقي، وما يجب فعله هو قبول المسألة على حالتها هذه، حتى وإن كانت شكلية وصورية، ولا ينبغي أن نقع في الاختلاف رغبةً في الوصول إلى أعلى الدرجات وربطًا للمسألة بأقصى الغايات وأنجبها وأفضلها، وإلا فإن الإنسان وهو يبحث عما هو أفضل قد يهوي في لجة مختلف القبائح دون أن يدرك، وهذا يتسبب في قطع حفاوة الله بنا، ونظرِه وتوفيقِه وعنايتِه ﷻ.

وهذه الملاحظات يأتي مثلها للزكاة أيضًا؛ فقد تصفون الزكاة التي تُدفع بنسبة واحد في الأربعين بأنها "زكاة البخيل" لِحَثّ الناس على الإنفاق ولتتمكّنوا من تحريك "شعور العطاء" في القلوب، وتطلبون من الناس أن يعطوا الزكاة بمقدار واحد في العشرين، واحد في العشرة، واحد في الخمسة، ومهما كان هذا الأمر جائزًا في أسلوب الترغيب، فإن عليكم تجنُّبه على الإطلاق إن كان تصرفكم بهذا الشكل سوف يفتح بابًا من أبواب الخلاف ويتسبب في المنازعة والجدال، ولا بد من أن تُعتمد أحكام الدين الموضوعيةُ أساسًا في هذا.

ففي الصحيحين، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فعلّمه ﷺ ما عليه من صلاة وصيام وزكاة، فقال الرجل: "لا أزيد على هذا ولا أنقُص"، فقال رسول الله ﷺ: "**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**"(٩٠)... فهذه إشارة إلى مسألتنا هذه؛ فإن اعتبرتم -وفق أحكامكم الشخصية الخاصة بكم- أن أقصى الغايات هي السبيل الوحيد للنجاة، أبعدتم مخاطبيكم عنكم، وحرمتموهم بعضَ الأعمال الصالحة التي يستطيعون القيام بها، وربما تكونون قد أيقظتم لديهم الشعورَ بالحسد والغيرة تجاهكم، وقِسِ العبادات والمسؤوليات الأخرى على هذا.

(٩٠) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٤؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٨.

والخلاصة إنّ حثّ الناس على الوصول إلى أفق معين أمرٌ، وحصر المسألة في دائرة معيَّنة ومستوى معين أمرٌ آخر تمامًا، فإن كان لديكم أفق باعتبار حياة الروح والقلب دعوتم الناس إلى ذلك الأفق؛ غير أن تحقيق الاتفاق في مسائل يمكن الخلاف فيها، والوقوفَ عند نقطة الاتفاق، هو الأمرُ الأهمُّ، ومن هذه الزاوية لزام علينا أن نبحث في كل مكان وزمان عن وسائل الاتحاد، وأن نركّز على الوفاق والاتفاق، ونبذل كل أنواع التضحية لحماية روح الوحدة.

إصلاح النفس وإصلاح المجتمع

سـؤال: يُذكـر أن مَن لم يسـتطع أن يحلّ مشـكلات نفسـه لا قِبل له بحلّ مشـكلات مجتمعه، فما هي ماهيـة العلاقة بين إصلاح النفس وإصلاح المجتمع؟.

الجـواب: النفـسُ موطـن ومنبـع للخصـال الذميمة فـي الظاهر مثل الحقـد والكره والشـهوة والغضـب، تلك التي وُضعت في جبلّة الإنسـان لِحِكَـمٍ ومصالـحَ؛ وهي (أي النفس) آليّةٌ مهيّأة لتلقّي وسـاوس الشـيطان وإيحاءاتـه وكأنهـا تعمـل مركزَ اتصالات له، لكن لا بـدّ أن نعرف أن هذه الآليـة -فـي الوقت ذاتـه- صالحة للتحـول والرقي، بل إنها وسـيلةٌ مهمّةٌ لرقيّ الإنسان إلى العوالم المعنوية، ولكن أداء هذه الآلية مهمّتَها بإيجابية متوقـفٌ على تزكيتها وتربيتها تحت رقابة القوانين السـماوية، تمامًا مثلما نكبح جِمَاحَ حصان إذا أردنا اتخاذه مَطيّةً؛ وإلا فإن تركناها لحالها غذَّت السـيرَ وراء الأهـواء والرغبات، وانقادت للشـهوات الماديـة والحيوانية، وتتبعـت المسـاوئ والشـرور، وهذا يُودِي بالإنسـان في النهايـة إلى هُوَّة سحيقةٍ ويكون مصيره الموت والهلاك.

الطفل الذي لا ينفطم

يصوّر الإمام البوصيري في قصيدته المشهورة حالَ النفس غيرِ المزكّاة، فيقول:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ، وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

أجل، إن فُطِمت النفسُ في أوانها بطُرُق تقنعها أُلجمت كلُّ رغباتها الجامحة، ولكن إن تُركت للبهيمية ونَمَت تحت تأثير الأفكار والمشاعر السلبية تحوّلت إلى شيء صعب القياد وأرغمت الإنسانَ على التعلق دائمًا برغباته وشهواته ونزواته، وهذا يُفضي إلى إقامة حواجز وموانع بين الفرد والحقيقة، وإلى أن يعرّض حياته لخسوف وكسوف.

ومن ثمّ يستحيل على مَن هو أسير لنفسه ويحمل على عاتقه مشكلات نفسه أن يكون قدوةً للآخرين يرشدهم إلى الخير، إذًا على الإنسان أن يحلّ مشكلات نفسه أولًا، وسبيل ذلك إعطاء الإرادة حقَّها والتصدي لرغبات النفس وأهوائها التي لا حدود لها، والاكتفاء بالملذّات والمتَع المتاحة في الدائرة المشروعة، وعدم إفساح المجال للنفس لتنزلق إلى الحرام، وهكذا تتخلص النفس من مرتبة "الأمّارة بالسوء" وتتّجه إلى مرتبة "اللوّامة" التي تجعل الإنسان يلوم نفسه ويحاسبها على أطوارها وتصرفاتها، بل ترتقي إلى أفق "المطمئنّة" بصورة يطمئنّ فيها ضمير الإنسان إلى العلاقة بينه وبين ربّه، وكما يستعيذ الإنسان بالله من كثير من الأشياء الضارّة فعليه كذلك أن يستعيذ به صباحَ مساء من أنانيته ومن نفسه التي تعمل في داخله كمركز رئيسيّ للشيطان، فإن لم يحدث هذا فلن تعدل النفس عن إثارة المشكلات، ولن يتخلص الإنسان من مشكلات نفسه.

أعظم الجهاد

قال رسول الله ﷺ لغُزاة رجعوا من غزوة: **"قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"**، قالوا: "وما الجهاد الأكبر؟" قال: **"مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ"**(٩١)، ففي الحديث دلالة على ما لهذا الأمر من أهمية عظيمة.

وإنّ ورود هذا الحديث عند عودة المسلمين من غزوة بالغة الأهمية والخطورة لَيساعدنا على المقارنة بين جهاد النفس ومحاربة العدو، كما أن له مغزًى عميقًا كبيرًا، حيث إنه قيل في وقتٍ يشعر فيه الجميع بنشوة الغلبة والنصر.

قد يُقال كلامٌ مهمٌّ ولكن لا يُراعى فيه الحالة النفسية للمخاطبين، فلا يبعث في القلوب تأثيرًا على المستوى المطلوب، فذِكرُ هذا الكلام في هذا المقام له أهمية بالغة في خلاص المسلمين من نشوة النصر التي يحتمل أن يغرقوا فيها، فلقد رغب ﷺ من وراء هذا الكلام إلى أن يتصدى الصحابة رضي الله عنهم للأفكار السلبية التي قد تتسلل إلى نفوسهم وهم يدخلون المدينة منتصرين غالبين.

والحق أننا نحسن الظن بسادتنا صحابة رسول الله ﷺ، امتثالًا لقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الْحَشْرِ: ١٠/٥٩)، ولكن مفخرة الإنسانية سيدَنا محمدًا ﷺ لعلّه أراد الوقوف منذ البداية في وجه بعض الأفكار السلبية التي قد تتسلل إلى نفوسهم، مراعيًا في ذلك حالتهم الروحية؛ لأنهم بشر وأنه ﷺ القائم بتربيتهم وتزكيتهم.

(٩١) البيهقي: الزهد، ص ١٦٥.

ففي الطريق إلى غزوة حنين خطر ببال بعض المسلمين فكرة "لن نغلب اليوم من قلة"، فمُنوا في بداية المعركة بهزيمة مؤقتة، ثم تحول الإدبار إلى إقبال بما بذله رسول الله ﷺ من شجاعة وإقدام.

وإذا ربطنا هذا بموضوعنا نقول: أجل، قد يقاسي الناسُ أحيانًا في جهادهم في سبيل الحقّ، ويتعرضون لمتاعب وصعوبات خطيرة، بل قد يلجؤون إلى التضحية بأموالهم وأنفسهم في هذا السبيل، فينصرهم الله ويؤيّدهم بفتوحات مادية ومعنوية، فأهمُّ شيء حينئذ أن يتصدى الإنسان منذ البداية لبعض الأفكار والمشاعر السلبية التي قد تتحرك في داخله لحظة عودته منصورًا مظفّرًا، إن ما يقوله الأستاذ بديع الزمان معيار مهمّ في هذا الصدد: "يا نفسي المرائية! لا تغترّي قائلة: إنني خدمتُ الدين، فإن الحديث الشريف صريحٌ بـ"**أَنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**"(٩٢)، فعليك أن تَعُدِّي نفسكِ ذلك الرجل الفاجر، لأنكِ غير مزكّاة"(٩٣)، إذ أثناء مثل هذا الفوز تَزعزع حتى بعض أولياء الله الصالحين فدارت أعينهم، ناهيك عن الناس العاديين.

فلو أن إنسانًا لم يتعهد نفسه بتربيتها وتزكيتها ولم يتمّم أخلاقياتها فهذا يعني أنه قد فقد الكثير، ولم يحظ بالسعادة الدنيوية والأخروية؛ لأن الإنسان بنفسه لا بجسمه، يقول رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"(٩٤)، عندما يخشع القلب ينعكس هذا على الأحوال والأفعال، وقد لفت النبي ﷺ الأنظار إلى هذا فقال: "**لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ**"(٩٥).

(٩٢) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ١٨٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٧٨.

(٩٣) سعيد النورسي: الكلمات، خاتمة الكلمة السادسة والعشرين، ٥٤٢.

(٩٤) صحيح مسلم، البر والصلة، ٣٤.

(٩٥) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ٣/٢١٠.

وعلى ذلك فمن الضروري أن يتوجه الإنسان إلى إنسانيته ويجادل نفسه ويحلّ المشكلات التي بينه وبين نفسه، ولأهمية هذا الأمر وصف الرسولُ ﷺ جهادَ النفس بـ"الجهاد الأكبر".

نِعَمٌ تصبح نِقَمًا

إن النفس كما تخدع الإنسان بالذنوب؛ فإنها ربما تقلبه رأسًا على عقب بالنِّعَم التي تفيض على الشخص كالمطر زخًّا، وعلى سبيل المثال فإن القرآن الكريم يخبر بأن قارون رغم أنه كان من قوم سيدنا موسى عليه السلام قد انقلب حاله رأسًا على عقب بسبب الثروة والإمكانيات التي امتلكها؛ وذلك أنه لم يؤمن بالله إيمانًا صحيحًا، وعجز أن يحل المشكلة في نفسه، ورغم أنه كان يبدو مؤمنًا إلّا أنه ما استطاع أن يحوّل إيمانه إلى يقين، وما تمكن من التوجه إلى أفق الإذعان، أي إنه لم يستطع أن يحوّل المعلومات النظرية إلى المعرفة بواسطة العمل، وما وصل إلى علم اليقين، وما تسنى له أن يدنو من عين اليقين على وجه الخصوص؛ ولذلك قال يومًا: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٢٨/٧٨) فأصبح من الخاسرين نتيجة اغتراره بالإمكانيات الدنيوية رغم أنه كان إلى جانب موسى عليه السلام، وبالقرب منه، يعيش بين قومه.

والسامري أيضًا كان من قوم موسى عليه السلام، وكان إنسانًا يُجيد الحديث، وله مهارات مختلفة، لكنه أيضًا استخدم تلك المهارات الموهوبة له في صنع صنم على صورة عِجْل، فانقلب رأسًا على عقب وخسر، وذلك أنه عاش حياته حتى آخرها منفيًّا شريدًا كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٢٠/٩٧).

والملاحَظ أنه حين لا تُحَلُّ المشكلة في نفس الإنسان، فإن نعمة الله ذاتها تتحول إلى مصيبة على الإنسان، وبتعبير مختلف؛ إن الأشياء التي تبدو نِعَمًا قد تتحول إلى نِقَم على الإنسان وهو لا يشعر، بل إن المعرفة تصبح نِقمة وبليَّة عليه، والقدرة والتمكن من الإدارة يستحيل إلى بلية، وحفاوة الناس به تُضحي بلية، كما يصير شغل مناصب معينة أيضًا بلية... أجل، إن الإنسان حين يمتلك تلك الإمكانيات ربما يشرد عن طريق حضرة روح سيد الأنام ﷺ، ويسلك طرق أمثال الفرعون رمسيس، وآموفيس، وابن شمس.

وأريد أن أوضح الموضوع أكثر عَبْر منقبة يُروى أنها وقعت في زمان موسى عليه السلام، والحقيقة أنه يمكن النقد في أصل وثبوت هذه النوعية من المناقب، غير أن المهمّ في المناقب هو العبرة والفائدة منها، لا أصلها وثبوتها، يعني أن المهم هو المعنى الذي تفيده لنا المنقبة وما سنأخذه منها من دروس؛ نعم، يُحكى أن سيدنا موسى عليه السلام رأى في طريقه إلى جبل الطور واحدًا توارى في الرمال لأنه لم تكن لديه ثياب تستره، فرجا ذلك الشخصُ موسى عليه السلام أن يدعو الله تعالى له كي يكون ذا مال، فلما ذكر موسى عليه السلام طلبَ الرجلِ بين يدي الله تعالى، أُخبرَ بأن هذه الحال هي الأفضل لذلك الرجل، ونقل موسى عليه السلام هذا الخبر إلى الرجل، غير أن الرجل ألحّ في طلبه بدعوى أن أشياء أخرى مختلفة قد تكون خيرًا أيضًا، وفي النهاية أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يساعد ذلك الرجل، فاشترى الرجلُ بعد فترة زمنية شاةً بمساعدة موسى عليه السلام، فتزايدت الشياه عنده في زمن قصير، وصار الرجل صاحب قطعان من الأغنام، ومرت السنون والأيام ورأى سيدنا موسى عليه السلام جمعًا في مكان ما وهو ذاهب إلى جبل الطور أيضًا، وحينما دنا منهم وسألهم عن الحادثة، قالوا له: "كان ثمة رجل فقير جدًّا ههنا، وبعد مدة أعطاه الله تعالى إمكانيات واسعة، غير

أن هذا الثراء لم ينفعه، إذ بدأ يشرب الخمر، فشرب ذات يوم من الأيام وغاب عن وعيه، وبادر أحد الناس بالعراك، فقتله، والآن يُجرى القصاص منه".

والحاصل أن الإنسان الذي لا يحلّ مشكلاته في نفسه، كثيرًا ما يجعل -كما ثبت في التاريخ وفي يومنا الحاضر- كلَّ واحدة من التوفيقات المعنوية والمادية وسيلةً لهلاكه، فإن كانت "النعمة" تُبعد الإنسان عن الله تعالى وتسوقه إلى الغفلة، فإنها ليست نعمةً وإنما هي نقمة في شكل نعمة؛ أجل، ينبغي أن يُعلم جيّدًا أن الشيء الذي يُبعد الإنسان عن الله تعالى -حتى وإن كان هذا فتْحَ إسطنبول- هو بليّة سلّطها الله على الإنسان، تُوقعه في أكبر خسارة حيث مأمَلُ الفوز، والطريق للوقاية من كل هذه المخاطر هو عدم التخلي في أي وقت عن الجهاد الأكبر، أي مجاهدة النفس، والتنبُّه والتيقُّظ الدائم في مواجهة حِيَل النفس ومكائدها.

احترام المقدسات

سـؤال: ما هو السـلوكُ والموقفُ الإيماني الذي ينبغي لنا أن نتبعه تجاه محاولات التطاول على "الدين والقِيَم المقدَّسة" والإساءة إليهما؟.

الجـواب: إنّ مـن أهـم الفضائل التي يحـثّ عليها ديـنُنـا الحنيف أن يتحلّـى الإنسـان بالصبـر والأنـاة إزاء أيّ محاولة تسـتهدف الإسـاءة إلى شـخصه أو النيل منه، وألّا يقابل السـيئة بمثلها ما وسـعه ذلك، وأن يفتت ويذيـب مـا يُلقـى عليه من أحجـار بجوّه السـمح، مثلمـا تتفتت وتذوب النَّيـازِك التـي تصطـدم بالغلاف الجوي، بيد أن لله ﷻ حقًّا، وللرسـول ﷺ حقًّـا، وللقـرآن الكريم حقًـا أيضًا؛ فإن تعرضت تلك الحقـوقُ لأي إهانة أو صفاقـة فليـس للفرد حينـذاك أن يعفو أو يصفح أو يغـضّ الطرْف عن هذه الإساءات أو يتجاهلَها أو ألّا يحرّك ساكنًا تجاهها؛ لأن المسألة حينئذٍ ليسـت مسـألة شـخصية، لكنه -ورغم هذا- عليه أن يتخذ موقفًا يناسـب شخصيته ويليق به كما هو الحال في كل أمر، وأن يتحرّك وفقًا لما تستلزمه هويّته الإسـلامية، وأن يعبّر عن ردّ فعله بأسـلوب إيمانيّ، ولا يتنازل أبدًا عن أسلوبه؛ لأن أسلوب الإنسان شرفُه.

من أراد أن يُحترَم فعليه أن يَحترِم

إننا اليوم -مع الأسف- نشهد أنواعًا مختلفة من البذاءة؛ فكل يوم تقع عدة حوادث منشؤها الغلّ والحقد والكره، تَرِدُ من هنا وهنالك سلوكياتٌ غير لائقة وكلمات مستهجنة، فأحيانًا تقع حادثةٌ مفجعة في مكانٍ ما، وقبل أن يُعرف فاعلها نجد شخصًا يقول بوازعٍ من كره وحقد دفين في صدره: "لا بدّ أن نُجْهز على المسلمين جميعًا"، ثم يأتي آخر ويوجّه إهانةً أخرى للمسلمين، وفي مكان آخر تُعلَّق لافتات تثير حفيظةَ الناس، لكن لا يخطر على بال أحدٍ في خِضمّ هذه الفوضى والبلبلة أن التطاول على الذات الإلهية وأسمائها الحسنى وصفاتها العليا أو على الأنبياء أو الملائكة الكرام يؤذي ويجرح مشاعرَ جميع مَن يؤمن بهذه القِيَم المقدَّسة، بل إنّ المساس بقضايا متعلقة ببعض المقدّسات -كالبعث بعد الموت والسعادة الأخروية- قد يُزعج أيضًا أتباعَ الديانات الأخرى؛ لأن بعض الأديان الأخرى بأصلها تقرّ أيضًا بهذه الأمور الإيمانية.

فإذا ما أشركنا في هذا الأمر أتباعَ الديانات الأخرى ممّن يؤمنون بالآخرة مع المسلمين الذين يبلغ عددهم مليارًا ونصف مليار مسلم تقريبًا، نجد أن العدد يبلغ في مجمله أربعة أو خمسة ملايير من البشر؛ ولذلك إن حاول شخصٌ أن يتوقح أو يتفوّه بكلمة نابية إزاء قيمةٍ مقدسةٍ يجلّها ويقدرها الآن حوالي أربعة أو خمسة ملايير إنسان وتتبوأ منزلةً خاصةً في صدورهم، فيكون بذلك قد أهان وتطاول بوقاحة على خمسة ملايير إنسان.

ومن ثمّ لا بدّ لذلك الإنسان الذي سلك هذا السلوك الفظّ الوقِح أن يستعدّ لاستقبال تطاول الآخرين عليه وإهانتهم إياه؛ أجل، عليه ألا يتأذى

مـن وخزة الإبـرة التي طالته منهـم، وهو الذي طعن برمـح إهانته صدورَ ما يقرب من أربعة أو خمسة ملايير إنسان بتلاعبه بمقدساتهم، إن إهانتكم للآخرين -أيًّا كانوا- تُثير فيهم حميّة الإهانة والإساءة إليكم، كما أنّ توقير الآخرين يحرّك فيهم شعور الاحترام والتوقير لكم.

فمثلًا قد ترى إنسانًا لم يدرس الفلسفة ولم يقرأ شيئًا منها ينتقد مذهبًا فلسـفيًا، فيجعـل من نفسـه أضحوكـة للآخرين، كما أنه بفعله هذا يُسـيء الأدبَ مـع العلم والمناهج العلمية، إن معظم المعلومات الفلسـفية التي لـم تصحَّـح في ضوء القواعـد القرآنية الراسـخة تَخَبُّطُ الفكـر في نظرنا، لكن انتقاد تيّار فلسـفي بأسـلوب مُهين يجعل المتكلم أضحوكة ليس إلّا، وعلى نفس الشـاكلة فلو أنّ إنسـانًا لا صلة له بالموسيقى تكلّم جزافًا عن المقامات الموسيقية وكأنه موسيقِيّ كبير لعرّض نفسه للسخرية، فضلًا عن أنّ كلاًّ مـن هـذه الأمـور التي ذكرناها قد ينجح ويتخصـص فيها كثير من الناس بشيء من السعي.

واليـوم نجـد مَن لا يحيـط علمًا بالقرآن والسـنة، ولا درايـة له بدِينٍ أحدَثَ انقلاباتٍ عظيمةً في تاريخ العالم وتحققت على يديه نهضةٌ مذهلة شـملت رقعـةً كبيرةً مـن الأرض حتى القرن الخامـس الهجري، نجد هذا الشـخص يتكلـم بجهل عـن هذا الديـن وأتباعه بعبـارات مهينـة، ويعزو مـا يقولـه إلـى حرية الـرأي والتعبيـر، بيد أن كلام إنسـان فـي غير مجال تخصُّصـهِ -خصوصًـا في عصرنا هذا الذي علا فيه شـأوُ التخصص- يُعدّ إسـاءةً إلى هذا المجال وإلى نفسـه، ثم إلى العقل السليم والمنطق السليم والمحاكمـة السـليمة والضميـر السـليم، ومـن ثَـمّ فعلى ذلك الشـخص الـذي تصرّف بهذه الوقاحة ألّا يتكلـم جزافًا وألا يتضجر من ردود أفعال الجماهير العاطفية؛ لأنه هو البادي بالكلام غير اللائق والمبادِرُ بالأسلوب غيـر المناسـب، أمـا مَن تعرضـوا لتلك الوقاحـة فهم جماعة كُثـرٌ يتراوح

عددهم من أربعة إلى خمسة ملايير إنسان، ومن المحتمل دائمًا أن تجد بين مثل هذا الجم الغفير من يتحركون بدافع من مشاعرهم وعواطفهم الانفعالية الجياشة.

إن كان بيتكم من زجاج...

ومن جانب آخر فإنه يتوجب علينا -نحن القلوب المؤمنة- أن نكون دائمًا أكثر حساسية في أقوالنا وتصرفاتنا وسلوكياتنا، وأن نحسب جيدًا قبل أن نتفوه -ولو بكلمة واحدة- عواقبَ تلك الكلمة، وألّا نتسرع في البوح بأمور تخص قلوبنا؛ أجل، يلزم ألا يُنسى أبدًا أن ما نلفظه من أقوال يمكن حملها على معان أخرى من ذوي النوايا السيئة، كما ينبغي أن نضع مشاعر المخاطبين في الحسبان عند الحديث، فإن كان بيتكم من زجاج فلا ترموا بيوت الناس بالحجر، وإلا فقد تسببتم في تخريب بيتكم بأيديكم.

وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا الهدي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ١٠٨/٦)؛ أجل، إنكم إن تسبّوا آلهة الآخرين؛ لاتهم، ومناتهم، وعُزّاهم، وإسافهم، ونائلتهم... إلخ، فإنهم سيبدؤون هم كذلك في سبّ من تقدسونه، ولا يوجد في الكتاب، ولا في السنة، ولا في اجتهادات السلف الصالحين أمرٌ أو توصيةٌ ما بسبّ أوثان يعبدها عُبّادها من دون الله، ومن ثم فإن عليكم أن تعبّروا عن الصواب في كل وقت: وذلك بأن تتحدثوا عن التوحيد، وتُعلوا شأنه دائمًا؛ هذه مسألة أخرى، لكن ليس من مسؤولية المؤمن ولا من مهمته تحقيرُ الأشياء التي لا قيمة لها في نظره أوتزييفُها.

فيا ليتنا نقول كل ما نقوله ونكتب كل ما نكتبه ونفعل كل ما نفعله وفقًا لمعايير القرآن الكريم والسنة النبوية! لأن نتائج بعض السلوكيات التي تحدث عند الفراغ الحسّيّ قد تكون -في غالب الأحايين- مضرّة جدًّا لقِيَمنا.

وعلى ما يُتذكر فقد اعتُدي على كتابنا العزيز القرآن الكريم في أحد الأماكن في وقت قريب؛ واعتُدي في أعقاب هذا على بعض الكنائس في مكان آخر، وخُرّبت مبانٍ؛ نعم، إن الهجوم على القرآن الكريم وقاحةٌ وعدمُ اتزان، إلا أن القيام بتخريب الكنائس كردّ فعل على هذه الوقاحة نوعٌ من عدم الاتزان أيضًا.

ولهذا السبب ينبغي للإنسان قبل أن يلجأ إلى أي تصرف وسلوك يؤذي الآخرين -أيًّا كان هؤلاء الآخرون- أن يحسب حسابًا جيدًا كيف يرتد هذا التصرف عليه، ثم يقول ما سيقوله أو يفعل ما يريد فعله، يتعين على من يتعرضون للازدراء أن يضعوا ردود أفعالهم في خط إيجابي دائمًا، وأن يختاروا طريق إزالة القبائح عبر استخدام السبل العلمية والقانونية، وألّا يتنازلوا عن مستواهم وشخصياتهم أبدًا، وألا يُخطئوا في الأسلوب؛ أجل، ينبغي أن تُدفع تلك النوعية من الهجمات والاعتداءات بما يليق بتصرف الإنسان المتحضر، وإلّا فإنه لن ينفع الندم والبكاء فيما بعد.

كم تمنيتُ لو أمكن تحقيق إجماع عالمي في موضوع احترام المقدسات! وسعيتُ إلى أن أُسمِع صوتي في هذا الخصوص إلى بعض السلطات، لكن يبدو كأنني عجزت عن التعبير عن مرادي -في هذا الصدد- تعبيرًا تامًّا واضحًا.

إن حرية الفكر والتعبير مفاهيم مهمة يُعتنى بها كثيرًا في عالمنا المعاصر، لكن -وللأسف- في الوقت الذي يُعدّ تحقيرُ الأديان والعقائد

والمقدسات وسبُّها حريةَ فكر في رأي بعض الأوساط، لا تُعتبر هذه النوعية من الكلمات والبيانات القبيحة حرية فكر وتعبير بالنسبة للمجالات الأخرى، بل على العكس من ذلك إنها تُقبل على أنها جريمةُ حِقد وكراهية، والواقع أن المؤمن الحقيقي ممثِّل الأمن والأمان على وجه البسيطة لا يتكلم كلامًا ضد أحد بغير حق، ولا ينوي التحقير والتزييف في أي وقت، بل ولا ينبغي له ذلك، غير أنه من الواضح تمامًا أن إطلاق العنان لحرية الفكر والتعبير في بعض المجالات والساحات، ومَنْعَها في بعض المجالات الأخرى كيلٌ بمكيالين وانتكاسة خطيرة، وهذا يؤذي القلوبَ المؤمنة إيذاءً عميقًا.

والحاصل، أن ثمة حاجة ماسة اليوم إلى أن تمتلك الإنسانية كلها فكرة احترام المقدسات، وأن يُحفز هذا الشعور لدى الجميع من أجل الإنسانية، إذ ينبغي لمنظمات دولية تشارك فيها كل الأمم أن تُقيم هذه المسألة على أساس لا يحتمل التأويل، ويلزم أن تُوضع قواعد حاسمة فاصلة، ليت الإنسانية كلها تتفق في هذا الموضوع! ليت كل إنسان يعرف حدوده! لأن المسائل النابعة من هذه النوعية من البذاءات والاعتداءات في عالمنا المعاصر المتصاغر المتضائل سوف تُظهِر نفسها في صورة مشاكل أكثر هولًا وأكبر حجمًا عند الإخلال بمبدأ احترام مقدسات الآخر، الذي هو أحد العناصر المهمة في العيش سويًّا في سلام.

مهندس القلوب: فضيلة الشيخ أَلْوَارْلِي أَفَه

ســؤال: حبّذا لو أشركتمونا مشاعرَكم ومعرفتكم بفضيلة الشيخ "ألوارلي أَفَه": شخصيته وأسرته وأُفُقه الروحي ورسائله الدَّعَوية وأثره فيكم؟

الجـواب: الحقيقـة أنّ الحديـث عـن شـخصية عظيمة كهـذه وإبرازَ صورتهـا كاملةً أمر يفـوق طاقتي؛ فأعترف لِزامًا بادئ الأمر أني ليس لدي من الفقه ما يحيطني علمًا بحياته، وعالمه الفكري، وأفقه القلبي والروحي بكل خلفيته؛ ثم إنه لما رحلت تلك الشـخصية العظيمة وحلَّقت إلى أفق روحها كنتُ في السادسة أو السابعة عشرة من العمر؛ نعم، ما إن أبصرت نـور الحيـاة حتى وجدتني على ضفاف هذا المنهـل العذب المورود لكن أنى لفتى في هذه السن أن يستفيد بحقّ من إنسان عظيم رحب الأفق مثلِه، فليُنظَر إلى ما سأذكره وأعبّر عنه في ضوء وعْيي المحدود وضعف مهارتي ورؤيتي الفتيّة يومئذ.

دوحة نيِّرة مباركة

نشـأ فضيلة الشيخ "ألوارلي محمد لطفي أفندي" في دوحة كأنها نبـع مبارك فيّاض؛ فأبوه حسين أفندي وشقيقه وهبي أفندي شخصيات عظيمة جدًّا، لم أر والده لكن حسـبنا في التعريف بفضل ذلك الشـخص المبارك وكمالاته هذه الواقعة:

قدم الشيخ محمد لطفي ووالده حسين قِنْدِيغِي أفندي -وهما من آل البيت- إلى تكية الشيخ الكُفْرَوِي في بِتْلِيس لينتسبا إلى طريقته، فلما رآهما كأنه اكتشف ما لديهما من ملكة واستعدادٍ، فاعتنى بهما أيما عناية، واهتم بهما اهتمامًا عظيمًا، وأوعز إليهما بخلافته فورًا دون امتحان ولا سير وسلوك ولا خلوة أربعينية؛ نعم، لا يعرف قدر الجوهر إلا الجوهريّ، ولا الذهبِ والفضةِ إلا الصائغ، وهذا الشيخ الكفروي ما إن رآهما حتى عرف قيمتهما وقدّرهما لأنه جوهري يعرف قدر الجواهر، فأوعز إليهما بخلافته؛ إنه أمر أذهل تلاميذ الشيخ الكفروي فراحوا يتطاولون عليهما في الكلام ليلًا، وإذا الباب يُفتَح على مصراعيه، والشيخ الكفروي يقول: "يا أولادي، إن حسين أفندي ومحمد لطفي أفندي لا حاجة بهما إليّ، وإنما أَتَتْنَا بهما كمالاتهما":

وأنَّى لأرباب الكمال بلوغها إلا بِهِ
وما في فضّة ولا ذهب غِنى إذا فُقِدَ الكمال

فماذا يغني عنك الذهب والفضة ولو كان مثل كنوز قارون، ما دمتَ لم تبلغ الكمال!

وأخوه وهبي أفندي بحر أيضًا، فالصمت سمته الدائم، وكان لهذا الصمت تأثير يُحدث تموُّجات متنوعة في روح الإنسان، وكان لوالدَيَّ توجُّه صادق عميق إلى كلٍّ منهما، وكذلك كان جدي يُكِنُّ لهما احترامًا عظيمًا، وكانا ينزلان ضيوفًا عليه في منزله، وكان وهبي أفندي أكبر سنًّا من الشيخ ألوارلي أَفَه، ولما توفي ﷺ كنت في الخامسة من عمري، وأظن أن الشيخ كتب هذا البيت في رثائه:

"بعُدْتُ عن الأخيار حتى إنني غَدَتْ "واحسرتاه" وِرد لساني!"

نغمات حرَّى تُلهب الأرواح

كان لجُوَّانية الشيخ ألوارلي أفه عمق جيّاش بالعشق والهيجان، وحاله في مجالس الذكر مثال حي لثرائه القلبي هذا، كان نقشبنديًّا وقادريًّا في نفس الوقت؛ فكانت مجالس الذكر عنده نقشبندية أحيانًا، وقادرية أحيانًا أخرى.

وفي تلك المجالس كان فضيلته يتوجّه بكل ذاته إلى الحق تعالى، وتُلهبه تلك النغمات وتحرقه، فيغيب عن نفسه أحيانًا، ويُحدث فيمن حوله حالةً روحيةً مصطبغةً بصبغته الخاصة، وينشر في القلوب نارَ العشق، فإذا انفعل أحدهم، ففاضت عيناه من الدمع سرت حالته هذه إلى الآخرين أيضًا، وأدخلتهم جميعًا في مناخ من العشق والانفعال؛ أجل، إنه مناخ عشق وانفعال ما زلتُ أشعر بأثره رغم أني كنت طفلًا عندما شهدت هذه الأحوال.

كان فضيلته عاشقًا للنبي ﷺ عشقًا خالصًا، جاءه أحدهم يومًا وقال له: "رأيتُ في شوارع المدينة المنورة مخلوقات كثيرة جَربَة"، فردّه قائلًا: "صه! فمثل هذا لا يُقال ولو على كلاب المدينة! نفسي الفداء لها بل حتى لكلابها الجرباء من أجل رسول الله"؛ وكلامه هذا كان يقوله بكلّ ذاته بإخلاص نابع من صميم قلبه حتى كأنه يقوله وهو يغيب ويفنى في شخصية رسولنا المعنوية ﷺ، وإليكم شعرًا له يجلّي حبَّه العميق لرسول الله ﷺ:

إنك لَأنت الشاهد المقدس وعالَمُنا بشمسك قد تزيّنا

مُخَّمس الضفائر وحاجباك للفؤاد زَيَّنَا

والكون قاطبةً لم يبلغن مقدار شعرة منك ولا يَزِن

ففي الكونين فاح عبير عنبر من شعرةٍ منكم يا سيدي فليهنأَنْ

وكانت تُنشَد تلك المدائح النبوية في مجالسه، فتهيّج الحاضرين وهو أولهم، وكان يترنم أحيانًا بمثل هذه الأبيات:

لَكَ قَلْبي عاشقٌ يا حبيب فما السبب؟

جمالُكم كالشمسِ إذ سطَعَتْ، فيا تُرى هذا السبب؟

وحاجب منكم بدا قاب قوسين فلا عجَب

وصُورتُك سورة الرحمن، يا تُرى هذا السبب؟

وأحيانًا يرفع صوته بها حتى لكأن المكان يرتعش وكذا كلُّ من حضر.

لا يَعرف الفضل من الناس إلا ذووه

كان الشيخُ سلطانًا في الكلام، يذهب مذهب أهل العروض في شعره الذي يترنّم فيه بإلهامات روحه، ورغم أنه شاعرٌ مُفلِقٌ إلّا أنه لم يكن يضيق بما يُنشَد بين يديه لمشايخ آخرين، بل يشجّع على ذكرها، فإن كانت حقًّا أجلَّها ووقّرها أيًّا كان قائلها، ثم يتبناها وكأنها بنات أفكاره، ويَقْدُرها قدرها، وحاله هذا مقياس مهمّ لرصدِ أُفُقِه وعالمه الفكري والشعوري، ولإدراك مدى فضله وعظمته.

وإليكم حادثة سمعتها من أخينا الكبير "صالح أُوزْجان"، ولها أهميةٌ بالغة عندي؛ فهي تكشف عن فضل الشيخ وغنى قلبه:

في مطلع الخمسينات قدم الأخ الكبير "صالح أوزجان" إلى مدينة "أرضروم"، وقابل الشيخ وقبّل يديه، ثم قال له: "شيخي الفاضل، ثمة عالم يُدعى "الأستاذ بديع الزمان"، كتبَ رسائل عن الدين والإيمان، أسماها "رسائل النور"، ونحن نسعى لنشرها في كلّ العالم، ونَغُذُّ السير

لإنقاذ جيل الشباب خاصّة"، فردّ عليه الشيخ قائلًا: "آه! ليت لي عينان تُبصران لساعدتُكم في نشرها".

أجل، الفضل هو أن تعترف بفضل أهل الفضل، وتُظهر لهم كلّ احترام وتقدير.

كلماتٌ يتردّد صداها في أذني

وأستميحكم عُذرًا في سرد حادثتين لا يمكن أن أنساهما، وقَعَتَا لهذا الشيخ العظيم الذي أشعرُ في أعماق روحي بأن معرفتي به عناية ربّانيّة:

لما شرعنا في دراسة كتاب "مُلّا جامي"(٩٦)، توجهتُ إليه أنا وزملائي، فإذا به جالس مع عدد من أثرياء أرضروم، فلما رآني قال لهم: "سأسأل تلميذي هذا سؤالًا، فإن أجاب فادفعوا له كذا وكذا من المال"، فلم يسألني إلّا عن مواضعَ من الكتاب أعلمُها جيدًا فأجبتُه عليها كلّها، فأعطوني ما حدّده الشيخ، وأظنه نحو مائتي ليرة يومئذٍ، وربّما كانت تكفي يومئذ لأداء فريضة الحج، وكان الشيخ أعشى فلم يعرف كم جمعوا من المال، لذا سألني فأجبته، فقال: "هذا كثيرٌ عليك، سأعطيه لـ"دميرجي عثمان أفندي" ليسدّ به احتياجات المدارس".

كنا نعيش في فقر مُدْقِع ونحن طلاب في المدرسة في "أرضروم"، حتى إننا في بعض الآونة لا نكاد نجد الخبز والجبن ثلاثة أيام أو أربعة، وكان أبي إمامًا براتب، فكان يعطيني بضع ليرات، لكنها لم تكن تكفيني...

(٩٦) **مُلّا جامي** (٨١٧هـ/١٤١٤م - ٨٩٨هـ/١٤٩٢): هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، نور الدين، مفسر فاضل، ولد في جام (في بلاد ما وراء النهر) وتوفي في هراة. له مؤلفات تقارب المائة، وله كتاب في النحو، صنفه شرحًا لكتاب "الكافية لابن الحاجب" لخص فيه ما في شروح الكافية على أحسن الوجوه وأكملها مع زيادات من عنده سماه "الفوائد الضيائية".

وكم قضينا من الأيام بحاجةٍ إلى ثمن الخبز!

وبينما كنّا نتلوّى من الجوع ذهبنا وبعض الأصدقاء إلى التكية مع "طيب أفندي" حفيد أخ الشيخ، وكان بجوار التكية مستودع تبن، يستخدمونه بيتًا للمؤنة، فأتيناه ونظرنا من ثقب بابه، فاشتهينا بطيخًا رأيناه فيه، وكان الشيخ يصلي، ثم فُتح الباب، فقال لنا الشيخ: "تعالوا يا أولاد، سآتيكم ببطيخ وأقطّعه بيدي".

أجل، كم شهدنا من أمثال هذه الحوادث، فلنا أن نقول: إننا وجدناه إنسانًا بعيدَ الغور، ذا أفقٍ واسع وبصيرةٍ نافذة، يفهم المرء من حاله، ويقرأ جوانيته.

وحمادى القول: حسبي أني عرفته وإن لم أستطع أن أستفيد منه حقّ الاستفادة، وهذه عناية ربانية، فللّه الحمد على هذا الفضل والعطيَّة.

أما يوم أن رحل الشيخ إلى الرفيق الأعلى، فقد كان والدي ﷺ في أرضروم، وكنا نستريح معًا في بيت خالته رحمها الله، وفجأةً تناهى إلى مسامعي ناعٍ ينعى الشيخ، فنهضتُ من مكاني فورًا، واتجهتُ صوب مدارس جامع "قُورْشُونْلُو"، فوجدتُ الأصدقاء يبكون، فتوجهت إلى بيت شيخنا ﷺ، وكان يقيم ببيت في حيّ "مُومْجُو"؛ وحضر الجنازة أيضًا مفتي أرضروم "صادق أفندي" والعلاّمة "ثاقب أفندي"؛ وغسّلاه بأنفسهما ولم يأذنا لأحد بذلك، وكان يومًا شاتيًا حمل فيه الشيخ إلى قرية "ألوار"، ودفن هناك؛ فتوافد الناس جميعًا على القرية -رغم الشتاء والثلج- ليشهدوا تشييع الجنازة إلى مثواها الأخير.

نسأل الله سبحانه أن يحشرَ هذا الرجلَ العظيمَ تحت لواء سيّدنا وحبيبنا محمد ﷺ، وأن يُسكنه معه في الفردوس الأعلى. آمين.

لَيْتَ نافعة وأخرى بلا فائدة

سؤال: حالة التأوه والتشكي والعويل التي يُعبَّر عنها في القرآن الكريم على نحو: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٢٧-٢٨)**، ما الذنوب التي تُفرز تلك الحالة في الآخرة؟ وما الأمور التي يجب مراعاتها لئلّا نقع يومئذٍ في شباك حسَرات عقيمة؟**

الجواب: مطلع الآية الكريمة: **﴿وَيَوْمَ﴾** إخبار عن يوم مرعب، ثم ذكرت أن الظالم في هذا اليوم المدهش يعضّ على يديه وقد غرق في مشاعر الندم والأسف، و"العض على اليدين" كناية عن الشعور بالندم في أسًى وحسرة وغمٍّ.

وكنَّتِ الآية عن الندم الذي يشعر به الظالم بهذا: **﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾**، ولا يقتصر شعور الندم الذي يحس به الظالم على هذا فحسب، بل إن العبارات التالية لتعبّر عن حالة الندم التي تسيطر فيها مشاعر الحزن والغم: **﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾** أي: ليتني لم أتخذ فلانًا الخائن الطائش صديقًا، ولم أصفق له، ليتني لم أسلك سبيل الضالين!.

بيد أن تمنياته بـ"ليت" لن تغني عنه في الآخرة شيئًا ألبتة، بل ستضاعف ندمه، إن قوله "ليت" هناك سيضاعف مصيبته لأنه بذلُ طاقة بلا فائدة، وعبارات الندم هذه ستُقال في الآخرة، أو عندما تبلغ الروح الحلقومَ حين تودّع اليدُ أختَها والرِّجلُ صِنْوَها إبَّان الانتقال إلى حياة البرزخ أُولى مراحل عالم الآخرة، وأيًّا كان التوقيت فتلك الكلمات ملأى بالأسف والحسرة والشجن يقولها من ضيّع وأهدر ما في يده من فرص عن وعي منه.

"لَيْتَ" الكبرى

إن ثمة ذنوبًا وآثامًا كثيرةً يتلوى الإنسان منها في الآخرة ندمًا وحزنًا بل إنها تحرقه وتكويه بنارها في أعماقه، وعلى رأسها الكفر؛ لأن الكَون برمته كتابٌ يعرّف بالله بكل جملة وكل كلمة وكل حرف منه؛ أجل، حين يصغي الإنسان إلى كتاب الكون بإنصاف دون أن يستبق الأحكام سيسمع كل كلمة بل كل حرف يردد: "لا إله إلا الله"؛ ولهذه الحقيقة الواضحة أيما وضوح رأى الإمام الماتريدي أن من لم تبلغهم دعوةُ نبي مكلَّفون بالإيمان بالله تعالى، لأنهم حين ينظرون في كتاب الكون سيحكمون بلا شك بوجود خالقٍ وإن لم يعرفوه ﷻ بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، ولم يعرفوا ذاته تعالى من طريق النبوة والوحي، فزيدُ بن عمرو بن نُفيل عمُّ سيدنا عمر بن الخطاب -أو ابن عمه- ﷺ كان يعبّر في العصر الجاهلي عن هذا بقوله: "اللَّهمّ إِنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيْكَ عَبَدْتُكَ بِهِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ"، ثم يسجد على راحلته[٩٧]؛ فلا ندم ولا حسرة في باب "ليت" أكبر من أن تبلغ الروح الحلقومَ وقد حيل بينها وبين الإيمان بالله تعالى.

ومن الباعث على قول "ليت" في الآخرة الضلالُ بعد الهداية؛ إذ ليس بين الإيمان والكفر وبين الهداية والضلالة سوى حجاب رقيق،

(٩٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ٢/٢٣٧.

ورب أمرٍ صغير يزجّ بالمرء في الجانب الآخر؛ لذلك فإننا نحن المؤمنين ندعو الله تعالى أربعين مرةً في الصلوات الخمس وسننها بأن يهدينا الصراط المستقيم؛ ثم نسأله أن نسلك سبيل مَن أسبغ عليهم سبحانه نعمه قائلين: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/٧)، وآيةٌ أخرى تذكر أن هؤلاء الذين منّ الله عليهم بنِعَمه هم النبيّون والصدّيقون والشهداء والصالحون[٩٨]؛ ففي كلِّ يومٍ نسأل الله تعالى في صلواتنا أن يهدينا صراطَ تلك الزُّمَر الأربع؛ ثم نستجير بكنفه تعالى ورحمته أن نكون ممن غضبَ عليهم فضَلّوا بعد الهدى: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/٧).

ومن الوهم والخيال المحض أن نفكر على هذا النسق: "ها نحن قد عثرنا على طريقنا، ومن الآن فصاعدًا سنبلغ هدفنا دون أن نزيغ أو نزِلّ أو نتعثر وننتكس، ودون أن نُضَلَّ ونعلق بحبال الشيطان ألبتة ونحن في هذا الطريق"؛ فمن ذا الذي يضمن لك السير على هذا الطريق حتى تلحق بربك؟؛ بل من أمن العاقبة كان عرضة للخطر، ذلك أنه يُخشى على عاقبةِ مَن لا يَخشى على عاقبته؛ أجل، على الإنسان أن يرتعد ويرتعش في كل حين حذرًا من الضلال بعد الهدى، وعليه أن يكون دائمًا في هذا الأمر بين شدٍّ وجذب معنوي؛ فليتوسل العبد إلى الحقِّ تعالى دائمًا أن لا يكِله إلى نفسه طرفة عين، وأن يقيه هَمْز الشياطين ولَمْزهم؛ فما أثمنها من جوهرة يود شياطين الإنس والجن سرقتها وقد نصبوا لها شباكهم، إنها حقيقة الإيمان التي بها ينال المرءُ الجنةَ، ويحظى بالرضوان، ويغدو أهلًا لرؤية جمال الله تعالى، فالذي عليك فعله هو أن تستمسك بهذه الجوهرة

(٩٨) ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٦٩).

الثمينة، وتصونها وتحرسها من شياطين الإنس والجن، وتكون على وعي ويقظة دائبة تجاه هذا الأمر.

أوجُه الضعف التي تخسف بالإنسان الأرضَ

ومما يجعل الإنسان يتأوه آهات أليمةً انحرافه عن الصراط المستقيم بوُقوعه فريسةً للفيروسات التي عددها فضيلة الأستاذ بديع الزمان في "الهجمات الست"[٩٩]؛ فكلٌّ منها كفيل بأن يصرع الإنسان، أي كما أن حب الجاه والمكانة واللهث وراء الشهرة من المهلكات، فكذا الخوف فإنه وحده قد يُهلك العبد ويُرديه، وكذا الطمع، والعنصرية، والأنانية، والكسل، والانغماس في الترف قد تهوي بالعبد في مكان سحيق، ولما كان بوسع كل واحدة من نقاط الضعف الست الخبيثة أن يقضي على الإنسان، فإنها إن اجتمعت معًا في آن واحد لن تصرعه فحسب، بل إنها -نسأل الله السلامة- ستهوي به في أسفل سافلين؛ أجل، قد يصاب الإنسان بهذه الفيروسات في أي لحظة ولو كان من أهل الإيمان والإسلام، فمن سيطر عليه حبّ الشهرة قد يمسخ وجهَ أعمال اضطلع بها خدمةً للدين، حتى وإن كان من فئة صالحة؛ ومَن همُّه أن يكون يُشار إليه بالبنان ليمدحه الناسُ ويذكروا آثاره الرائعة قد يُخسف به مجازاة له بنقيض رغبته هذه؛ ومن مُني بشعور مقيت كهذا فهو عرضة لمثالب أخرى كثيرة أيضًا، ولا أحد يَقْدِر أن يحزو ما نوعية المثالب التي قد يرتكبها من رَكِبَتْه شهوة الشهرة مثلًا.

كل هذه الأمور مهالك ربما تعرِض لكل قلب مؤمن حتى وإن كان

(٩٩) هو القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرين من كتاب "المكتوبات" للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ويعني الأستاذ بـ"الهجمات الست": حبّ الجاه والشهرة، والخوف، والطمع، وفكرة العنصرية، والأنانية والغرور، وحب الراحة والدعة.

يعيش في بيئة مؤمنة، وقد تحمله في الآخرة على أن يقول "ليت" -نسأل الله السلامة-؛ أجل، إن من عجز عن أن يسترشد بدساتير الإخلاص، فراح يعزو إلى نفسه ما حققه من نجاح، ويستثمر ذلك في الشهرة، ويلهث وراء التبجيل والتقدير، سيتنفس الندم في الآخرة، ويتلوى أسًى وأسفًا وحسرة وحرقةً قائلًا: "يا ليتني لم أضيّع هذه الأعمال ولم أهدرها بالجري وراء الثناء والتصفيق! ليتني لم أُبحر إلى العدم صفر اليدين! ليتني لم أقع في تيارات آخرُها الموت!"؛ والمؤلم حقًّا أن آهاته وحسراته لن تغني عنه شيئًا أبدًا، بل ستضاعف معاناته، وتزيد مصيبته.

تروسٌ واقية من "ليت" القاضية

على المؤمنين إذًا أن يتصرفوا ههنا بعقلانية، وأن يعدّوا النجاةَ من الكفر والضلالِ أعظمَ نِعَم الله تعالى عليهم، وأن يتجنبوا سُبُل الكفر والضلال؛ لأن المعاصي بريدُ الكفر كما ذَكَرَ الأستاذ بديع الزمان ﵀.

يقول رسول الله ﷺ: "**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** (سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣)"[١٠٠]؛ وذلك أن كلّ نكتةٍ تنكت في القلب تستدعي نكتة أخرى، والقلوب تتكدّر بالذنوب والمعاصي والسيئات وتسودّ بمرور الزمان؛ فإن لم تُطهَّر من المعاصي والذنوب بالتوبة والاستغفار ختم الله عليها، كما قال ﷻ: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ (سورة البَقَرَة:٧/٢)، ﴿**وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٨٧/٩)، ثم لا تعقل شيئًا من رسالة السماء الطاهرة، فما يكون منها إلا أن تقول في الآخرة: "ليت، ليت".

(١٠٠) سنن الترمذي، تفسير القرآن، سورة المطففين، ١.

أمّا ما لا بدّ منه هنا للحيلولة دون الوقوع في براثن "ليت" القاضية، فهو بـذل المجهود في طاعة المعبـود بلا تقصير أو تعطيل، والتحليقُ بجناحي الخوف والرجاء؛ وتحقيق هذا رهنٌ بالقلب الخاشـع، يقول رسول الله ﷺ: **"لَوْ خَشَـعَ قَلْبُهُ لَخَشَـعَتْ جَوَارِحُه"**(١٠١)؛ فخشية القلب تنعكس على الأفعال والسـلوكيات، ويومًا بعد يوم تغدو الجوارح والأعضاء ترتجف من خشية الله تعالى، حتى إن قزحية العينين لتتراءى فيها ذبذبةُ الخوف من الله.

وعلى ذلك فإن نكّس العبد رأسـه حياء من جلال الله وعظمته، ورجَا سَـعة رحمته، وتمنّى على الله من فضله، وعاش حياته بهذا التوازن وتلك الدقة، وقى نفسَه يوم القيامة من التردّي في الندم والحسرة.

وذكرُ العبدِ الدائمُ لحبيبه ﷺ يجنبه مثالب تسوق إلى عاقبةٍ وخيمةٍ قد تضطره إلى أن يقول في الآخرة: "يا ليتني"، يقول الشـاعر التركي سـليمان شلبي رحمه الله:

اذكر الله في كلّ نَفَس على الدوام فبذكره يصير كلّ شيء على ما يرام

وقد عَبّر عن هذه الحقيقة أحد أولياء الله الصالحين، فقال:

ألا ليت حِبّي يحبُّه الخلق أجمع وليت قصته مدار حديثنا وما أمتع

أجـل، إننا إن ذكرنا ربّنـا حيثما حللنا، ونوّرْنا مجالسـنا بذكره تعالى، وأكسـبْنا أوقاتنا عمقًا لا تسـعه الأبعاد، كنا ممن اتقوا مثالب كثيرة سـائقة إلى قول: "يا ليتنا" في الآخرة.

"ليت" من صُوَر الاستغفار

سـؤال: هـذه "ليت الفاجعـة" فهل ثمـة "ليت ناجعة"؟ ومـا المقياس في هذا؟

(١٠١) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ٣/٢١٠.

الجواب: رأينا أن هناك "ليت" لا نفع منها أبدًا في الآخرة، بل تُضاعِف العذاب وتجعل المصية مصيبتين؛ وثمة "ليت" نافعة إيجابية محمودة ذات قدْر في ديننا؛ وفصلُ ما بينهما النية، ومن النافعة أن سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ قال: "إِنِّي لَا آسَى عَلَى شَيْءٍ، إِلَّا عَلَى ثَلَاثٍ فَعَلْتُهُنَّ، وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْهُنَّ؛ وَثَلَاثٍ لَمْ أَفْعَلْهُنَّ وَدِدْتُ أَنِّي فَعَلْتُهُنَّ؛ وَثَلَاثٍ وَدِدْتُ أَنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْهُنَّ..." وذكر منها: "وَدِدْتُ أَنِّي يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ كُنْتُ قَذَفْتُ الْأَمْرَ فِي عُنُقِ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: أَبِي عُبَيْدَةَ أَوْ عُمَرَ، فَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُنْتُ وَزِيرًا؛ وَوَدِدْتُ أَنِّي حَيْثُ وَجَّهْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى الشَّامِ وَجَّهْتُ عُمَرَ إِلَى الْعِرَاقِ، فَأَكُونَ قَدْ بَسَطْتُ يَدَيَّ يَمِينِي وَشِمَالِي فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ؛ ووَدِدْتُ أَنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَنْ هَذَا الْأَمْرُ -أي الخلافة- فَلَا يُنَازَعَهُ أَهْلُهُ"[١٠٢].

أرى أن هذا الضرب من الندم في كلام الصدّيق الأكبر ﷺ ليس إلا ثمرة المحاسبة ونتاج همٍّ عميق وتشوّف إلى الفقه في الدين وجعلِ الدين روحًا للحياة بميزان دقيق؛ فما أجزله من ثواب وما أرفعها من مرتبة حازها الصدّيق ﷺ بهذا الندم ما كان لنا أن نبلغها؛ وقد أشار مفخرة الإنسانية ﷺ إلى قدره بقوله: "**لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِمْ**"[١٠٣]، إنه الصدّيق الأعظم؛ هو من فعل -بفضل الله سبحانه- في سنتين وبضْعة أَشْهُر وبضْعة عشَر يومًا ما لم تستطع الدولة العليّة العثمانية أن تفعله في ١٥٠ عامًا؛ ولم يَضطهد الدُّوَلَ الضعيفة كما يفعل المستبدّون، بل بثَّ إلهامات روحه في البلاد التي فتحها؛ نعم، لقد استهدف الوصول بالروح المحمدية إلى كلّ مكان مرّ به ويمّم وجهه إليه، والحقّ أنه

(١٠٢) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٦٢/١.

(١٠٣) البيهقي: **شعب الإيمان**، ١٤٣/١.

هو مَن عبّد الطريق للفتوحات العظيمة التي تحققت في عهد سيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ.

نعم، إن هذا الضرب من "ليت" أضفى على قيمة هذه الشخصية العظيمة التي تفضُل الناس جميعًا قيمةً أخرى؛ ولكل مؤمن "ليت" إيجابية ترفع قدره مثل: يا ليتني أحسنتُ استغلال شبابي، واقتطعتُ ساعتين من كل ليلة أصلي فيهما مائة ركعة، ليتني جنّبتُ نفسي أهواءها، وصُنتُ يدي ورجلي وعيني وأذني عن الحرام حتى في عنفوان الشباب إذ تستثير فيه الغرائزُ والشهوات عادة، ليتني لم أنظر إلى الأغيار ولم يتسلل إلى عيني أي شبح غريب...

إن "ليت" هذه التي تزفر بها الصدور في ندمٍ مقترنةً بنية تحويل الآمال إلى أعمال لَتُعلي قدر الإنسان ومكانته؛ أما تلك التي تردّدها الألسنة في الآخرة فما هي إلا حسرة وندامة ليس إلا، فالندم في الدنيا ضرب من الاستغفار، كلّما عَرَض للمرء استغفر ربه، بل إنه ليستحيي أن يقول "أستغفر الله" مرة واحدة، وإنما يقول: "أستغفر الله ألف ألف مرة"، ويلجأ إلى الله بالتوبة والإنابة والأوبة، فإن طرَق العبد بروح كهذه بابَ رحمته ﷻ عظم رجاؤه بأن مولاه لن يخيب آهاته وأنّاته، بل سيتغمده بواسع رحمته وفيض إحسانه.

الاستغفار

سـؤال: ما الذي تؤمّله القلوبُ المؤمنة من الاسـتغفار، لا سيما في أيامنا هذه التي تفشّـت فيها الذنوبُ في كلّ الأنحاء وكأنها مرض معدٍ؟ وهل هناك أوقاتٌ معينة يحسُن تحرّيها للاستغفار فيها؟

الجـواب: جاء في الخبـر: "**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَـى الفِطْرَةِ**"[١٠٤]، والمقصـد الأصلي مـن التكاليف الشـرعية هو الحفاظ علـى هذه الفطرة الأصليـة التـي فطر الله الناس عليها، أي إن الإنسـان مكلَّفٌ بالحفاظ على الفطرة الأصلية التي فطره الله عليها حتى يلقاه سبحانه.

وبينمـا تهـدف كلُّ "الْمُنْجِيـات" إلـى حمايـة الفطرة الأصليـة، ترمي كلُّ "الْمُهْلِكات" إلى إفسـاد الفطرة الأصلية؛ فليعمل الإنسـان على تشييد حصون منيعة يُجابه بها الذنوب المهلكة، ويتحرى فيها الأعمالَ الصالحة دائمًا، وليبحثْ عن وسـائل يحافظ بها على فطرته ويحفظها من أن تكون عُرضة للتلوث والفساد.

إنّ فـي كلّ ذنـبٍ إفسـادًا للطبيعـة الإنسـانية، ومن تعـرَّض لمثل هذا الفسـاد لا تتأتى إعادته إلى طبيعته الأصلية إلّا بالاستغفار، أي إن الذنوب تُحدث تغيّراتٍ سلبيةً في ماهية الإنسان، وشيئًا فشيئًا يغدو القلب الملوث

(١٠٤) صحيح البخاري، القدَر، ٣؛ صحيح مسلم، القدَر، ٢٢.

بالآثـام عاجـزًا عـن القيام بوظيفته، وكلّ ذنب من شـأنه أن يُبعد الإنسـانَ عـن الله ويقرّبـه إلى الكفر؛ ولا خـلاص من الآثام التي تقـرّب إلى الكفر إلا بالاسـتغفار، ولا سـبيل إلى تطهير القلب من الأدران وما نُكت فيه من نِكات سوداء إلا به.

الطب الوقائي

الأصل أن يتّخذ الإنسانُ في البداية موقفًا حازمًا من الذنوب والآثام، فلا يدنو ولو إلى أصغرها، وعليه في هذا أن يسعى إلى تهيئة جوٍّ نقيٍّ طاهرٍ يجنّبه الوقوع في الآثام، وأن يفرّ فراره من الأسد من بيئة تُغريه بالمعاصي، وإنّه لَعسيرٌ إلا على قلبٍ مؤمنٍ يشعر في وجدانه أن كل ذنب يقترفه يهوي به في نار جهنم دَرَكَة، وأي قلب لا يُنكِر الذنب هو قلب ميّت.

أجـل، إن القلـب إنْ استسـاغ الذنوب، ولم تُقلقـه المعاصي ولا أرَّقه ما ارتكبَ من زلّات، فهو كالجسد الميت، فالقلب المؤمن يستنكر الذنوب لا محالة، والاستغفارُ أول عملية يجب فعلها تجاه الذنوب.

إنّ قولـك "أسـتغفرُ الله" بصيغـة المضـارع معنـاه: "اللهـم إنـك عفو غفـور، فاعـف عني واغفـر لي ما حَييـت"، فللعدول عن صيغـة الماضي إلى المضارع الدالّ على الزمن المفتوح مغزًى عميق جدًّا؛ مفاده أن العبد يعمّم طلب المغفرة مِن ذنبٍ ارتكبه في الماضي على المستقبل كله.

قـد يغفـر الله ذنـوب عبـده بالاسـتغفار مرة واحـدة، لكن علـى العبد ألَّا يكتفـي بمـرة واحدة يسـأله فيها العفو عن عثرات يديـه وعينيه وأذنيه، بـل لا بـدّ أن يندم طوال عمره على ما اقترفه وإن كان ذنبًا واحدًا، ويتوجه إلى الله قائلًا: "اللهم إني أسـتغفرك، ولن أزال أسـألك المغفرة ما حييت،

فـلا تكفينـي مـرة واحدة، بل أسـألك المغفرة الآن وسـأظل أبدًا أسـألك وأتندّم على ذنب ارتكبتُه، اللهم فاغفر لي".

أجـل، علـى المؤمن أن يفكّـر كلّما اقترف ذنبًا أنَّ مـن العيب الفظيـع أن يسـلك طريق السـيئات وقد هـداه الله إلى طريق الحسـنات، وأن يعلم -وقد وعده الله بالجنة- أن التعامي عن هذا الوعد والاسـتغراق في الآثام قباحـة وأيّ قباحـة، فعليـه أن يسـتحي، ويتوجـه إلى الله بالاسـتغفار أبدًا، فيسـتغفره علـى ذنبٍ واحدٍ آلاف المرات، بل ألـف ألف مرة، حتى يُطهّر وجدانه بهذا الاستغفار.

إكسير يستأصل شأفة النزعة إلى الشرّ

الاسـتغفار كمـا يُعيد إعمـار الفطرة المخرَّبة، يسـتأصل شـأفة النزعة إلى الشرّ أيضًا؛ لأن ملازمة التطهر بالاستغفار تمنـع استحداث مناخ يدعوه إلـى ذنـب جديـد، أي إنّ قلبـه تنقّى مـن أي فَيروس يسـتدعي ميكروبات أخـرى؛ وأيضًـا قد يُضعف الله بصورة لا نعلمها نزعةَ الإنسـان إلى اقتراف الذنوب والآثام، يقول تعالى: ﴿**مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٠)، فالآية تبشّر من يتوجهون إليه سبحانه بالإيمان والعمل الصالح والاستغفار والتوبة بأنه سـيبدّل سـيئاتهم حسـنات؛ أجل، إذا توجّه العبد إلى الله محا الحقُّ تبارك وتعالى ما في صفحات كتابه من آثام اقترفها، ولا يتركها فارغة بل يملؤها بواسـع رحمته بالحسنات، وهذا تجلٍّ آخر لرحمته التي تسبق غضبه.

وللأستاذ بديـع الزمان ﷺ تفسيرٌ آخر لهذه الآية: ذكر أن الله تعالى قد يبدّل نزعات الشرّ لدى من أناب إليه بالتوبة والاستغفار بنزعات إلى الخير، أي إنْ اقتـرف العبـدُ ذنبًـا ثم أناب إلـى الله فتاب توبةً نصوحًـا، قال الله له: "رجعتَ إليَّ؛ سأنعم عليك فأبدّل نزعات الشرّ لديك نزعاتٍ إلى الخير".

أوقات مهمة للاستغفار

يُسنّ الاستغفار ثلاثًا عقب الصلوات المفروضة[١٠٥]، أمّا فضل الاستغفار عقب أداء أحبِّ العبادات إلى الله وأقربِ ما يكون العبد من ربه فله سببان:

أولهما: أن الصلاة معراج المؤمن إلى ربه، فمن سوء الأدب مع الله في عبادةٍ هذا فضلُها أن يذهل العبد عن صلاته، ويسيح في أموره الخاصة، ويشتغلَ قلبه بالأمور الدنيوية عن جلال وقوفه بين يدي الله تعالى، ومثل هذه التصرفات تنمّ عن غياب الوعي أو العناية بالصلاة فتقتضي الاستغفار؛ إذ كان ينبغي أن يهرول العبد وهو بين يدي الله تعالى سعيًا وراء لطائف أُشربها قلبُ سيد السادات ﷺ يوم المعراج.

ثانيهما: الدعاء بعد الصلوات مظنة القبول، وله فضل خاص؛ فهذا المقام أرجى لقبول الدعاء والتضرع، ولا شيء أحوج للعبد من مغفرة الذنوب؛ لذا وصّى سيدنا رسول الله ﷺ بالاستغفار والتوجه إلى الله في هذا المقام، فالصلوات الخمس أساس وفرصة مهمة للاستغفار.

ولعل من أهم أوقات الاستغفار ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٥١/١٧-١٨)، تشير هذه الآية إلى وقت مهم للاستغفار، فهي تثني على من يقوم بالأسحار يستغفر الله ويجأر إليه ويطيل السجود حتى لكأنه ينسى أن يرفع رأسه منه، ثم ترفَعُ هذا الثناء إلى أهل السماء والروحانيين وجميع المؤمنين؛ وفي الآية إرشادٌ للمؤمنين إلى تحديد الهدف، لأن

(١٠٥) انظر: صحيح مسلم، المساجد، ١٣٥.

وصف المؤمنين في الكتاب والسنة تقدير لهم، ودعوة إلى نصبِ هدفٍ أمامهم ينبغي الوصول إليه؛ فإن القيام في السَّحَر والناسُ نيامٌ، والتعبد لرب العالمين بصلاة التهجد ولو ركعتين، والاستغفارَ بعدها، عملٌ عظيم في لحظات خاصة لا يرى الإنسانَ فيها أحدٌ.

والأوقات التي يرقّ فيها القلب، ويشعر الإنسان بثقل ذنوبه، وتفيض فيها مشاعره، لا بد أن تُستغل استغلالًا جيدًا في الاستغفار، لأنها لحظات تهبّ فيها نسائم القرب.

وسرعة الأوبة إلى الحق تعالى كلما ارتكب العبد وزرًا وذنبًا مؤشر على استغلال أول لحظة يُدرك فيها الإنسان أنه خطا خطوةً نحو الذنوب، وهذه اللحظة مهمة للشروع في الاستغفار؛ لأن الذنب يشبه الدُّوامة، ويُورِث صاحبه الإدمان عليه؛ ولذلك ليس كل مَن غرق في الذنوب بقادر على أن يتخلص منها، بل إن الغارق في مستنقع الذنوب والآثام -إن لم يعزم على الخروج منه عزمًا حقيقيًّا وعجز أن يعطي إرادته حقّها- قد يتمنى يومًا أن لو لم تُحرَّم تلك الذنوب؛ وهذا يعرّض الإنسان لمصيبة اعتقادية، وإنما هلك من هلك عامةً بهذا الضرب من الخواطر، فمن الأهمية بمكان أن يتوب الإنسان فورًا من الذنوب التي وقع فيها قائلًا: "إن هذا الطريق يؤدي إلى المستنقع، فلو خطوت بضع خطوات قد أصل إلى موضع يستحيل الرجوع عنه".

والأوقات المذكورة وإن كانت فرصةً للاستغفار إلا أنه لا يُشترط تخصيص وقت معيَّن له، ولا يصح حصرُ الاستغفار بها ألبتة، فللعبد أن يطلب العفو والمغفرة في أي وقت: بكرة وعشيًّا، ليلًا ونهارًا، وأن يستثمر كل لحظة من عمره في الاستغفار؛ أجل، إن الإنسان عندما يجد

الفرصة له أن يخلو بنفسه ويستغفر الله ويتوجه إليه تعالى بالتوبة كيفما كان راكعًا أم ساجدًا أم جاثيًا؛ وكذا في كل أحواله: عندما يذهب من مكان إلى آخر، أو يقود سيارته، أو ينتظر أحدًا... بوسعه أن يناجي ربه سبحانه بأي شكل من أشكال الاستغفار، والأصل أن يستغل الإنسان كل لحظات حياته في هذا، لأن الموت يأتي بغتةً، واستقبال الموت بشفاهٍ رطبة بالاستغفار وسيلةٌ مهمة جدًّا لارتحال الإنسان إلى الآخرة طاهرًا مطهَّرًا.

سؤال: الاستغفار بوتقة تطهير وتزكية للقلوب المؤمنة، فما هي أصوله وآدابه؟

الجواب: على العبد عند الشروع في الاستغفار أن يتذكّر جلالَ الله وعظمتَه، ولا ينفكّ عن التعظيم والتكبير والتسبيح له جلّ في علاه.

وورد في هذا روايات كثيرة عن سيدنا رسول الله ﷺ تدل في جملتها على ندب البدء في الاستغفار بهذا الذكر: "**اَللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ**".

ويُستحسن بعد تمجيد الله وإجلاله وتعظيمه الصلاةُ والسلامُ على سيد السادات ﷺ؛ فهذا أدعى لقبول الاستغفار، لأن الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ دعاء مستجاب، وهي أيضًا فرصة عظيمة للمؤمن ووسيلة مهمّة للاتصال بمفخرة الإنسانية صلوات ربي وسلامه عليه، فالتوجه إلى الله تعالى استشفاعًا بالصلاة على سيد الأوّابين ﷺ قبل الشروع في الاستغفار يعدّ وسيلةً أخرى للقرب من الله ﷻ.

ويحسن الاستغفار لأمة محمد قبل الاستغفار لأنفسنا كما نفعل في صلاة الحاجة، كأن نقول: "اللهم اغفر لأمة محمد ﷺ، اللهم ارحم أمة

محمد ﷺ"، وهو دعاء "الأبدال" صباح مساء، وطلبُ الخير لأمّة محمد ﷺ وسيلةٌ لقبول الاستغفار، بل ولك أن تقدِّم نفسك إن كنت تعد نفسك أعتى العصاة في هذه الأمة: "اللهم اغفر لي واغفر لأمة محمد، اللهم ارحمني وارحم أمة محمد ﷺ".

طلب المغفرة بأحسن الحديث

وللعبد بعد هذه الديباجة أن يتوجّه إلى الحقّ ﷻ بأمثال الآيات التالية، طمعًا في غفران ذنوبه وخطاياه:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)،

رَبِّ إني ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٣/٢١)،

﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ١١٨/٢٣)،

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ١٦/٢٨)،

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٤١/١٤)،

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٤٧/٣).

هذه أدعية من القرآن، ووردت أدعيةٌ رائعة في السنة الصحيحة في الاستغفار أيضًا، منها: عن أبي بكر الصديق ﷺ: أنه قال لرسول الله ﷺ: "عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي" قَالَ: **"قُلْ: اَللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ"**(١٠٦)؛ ومحلّ هذا الدعاء السجود وعقب التشهد وعند الاستغفار.

(١٠٦) صحيح البخاري، الدعوات، ١٧؛ صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٤٨.

دعاء آخر سمَّاه عليه أكمل التحيات "سيد الاستغفار": **"اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"**؛ قال ﷺ: **"مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِي، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ"**(١٠٧).

تَضرَّعْ حتى تتطهّر

وللعبد أن يسجد ويكثر من هذا الدعاء حتى يضنيه التعب والجهد، ويشعر بالتطهر والاطمئنان في قلبه: **"يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْن"**، وزاد بعضهم: "وَلَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ".

ويستحب للعبد أن يدعو بهذا الدعاء بوصفه نفحةً قلبيّة، وقد كان رسول الله ﷺ يقوله إذا استيقظ من الليل: **"لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"**(١٠٨).

وعلى كل إنسان أن يرى أخطاءه وعيوبه وذنوبه، وينقدها بما يلائم منزلته الخاصة؛ فيسبح الله تعالى ويستغفره آلاف المرات يوميًّا، وصحَّ "أن أبا هريرة ﷺ كان يسبّح كلّ يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، يقول: أسبّح بقدر ذنبي"(١٠٩).

(١٠٧) صحيح البخاري، الدعوات، ٢.
(١٠٨) سنن أبي داود، الأدب، ٩٨.
(١٠٩) ابن حجر: الإصابة، ٣٦٠/٧.

ولا أظن أنه اقترف ذنبًا ما، إنه الأَسَد الذي قدِم من دَوْسٍ ولحق بأصحاب الصُفَّة، وصحب مفخرة الإنسانية ﷺ مدةً طويلةً، وهو أكثر مَن روى عنه ﷺ، فصار بعد رحيله المنهل العذب المورود الذي يرِده الناس جميعًا، وكان يرى الاستغفار ضروريًّا باعتبار أُفقه الخاص، وحين نضع نُصْبَ أعيننا حياتنا الحالية التي أغرقتها الذنوب فإننا لو استغفرنا الله ثلاثين ألف مرة في اليوم لكان قليلًا.

زد على هذا أنه يمكن اعتماد استغفارات الأكابر المذكورة في كتاب "القلوب الضارعة" وردًا، فهذا الإمام الحسن البصري كان عنده من العمق ما يحيّر العقول، وكان شديد المحاسبة لنفسه، ويمكنكم أن تقرؤوا ورده في الاستغفار[١١٠] مقسّمًا على أيام الأسبوع كما كان يفعل، وكان يبدأ الاستغفار بالصلاة والسلام على النبي المصطفى ثم يعدّد ما يعده ذنبًا لنفسه، ويختم استغفاره بالصلاة والسلام أيضًا. والحقيقة أنَّه لم يكن عصرُه ولا طبيعتُه هو ملائمين لاجتراح تلك النوعية من السيئات؛ أجل، لا يمكن لإنسان يذكر الله في كلّ أحيانه، ونذر حياته للكفاح في سبيل الحق أن يقع في هذا الضرب من الذنوب؛ ولا أحد يدري، فربما كان يتوب إلى الله متضرعًا ويستغفره متحرقًا على الخواطر والخَطَرات، ونحن لو كررنا مرتين أورادَه هذه التي كان يقرؤها كل ليلة مرةً فإنه لقليل؛ لأن ذنوبنا أكثر بلا ريب، ولأننا لم نبلغ مبلغه ولم نتقدم عليه في الدين.

وعلى المستغفر أن يختم تضرعه وابتهاله الجاري من قلبه على لسانه بمثل ما بدأ به من صلاة وسلام على سيد السادات ﷺ، فلا أرجى في القبول من دعاء بين دعاءين مقبولين، فليصلِّ ويسلِّم على الرسول الأكرم ﷺ مرةً

(١١٠) القلوب الضارعة، ص ١٤٢.

أخـرى في نهاية دعائه كي يطير اسـتغفاره بجناحَي دعاءين مقبولين ويبلـغ معارج القبول.

وأذكِّـر بـأنّ كلّ كلمة يُتفوه بها في مقام الاسـتغفار ينبغي أن تُقال عن وعـي وشـعور، فمـا يُقال في غفلـة وبلا وعـي كلُّه سـوءُ أدب مـع الحق تعالـى، وقـد يكون كذبًا؛ فينبغي فـي كلّ كلمة أن تنبـع وتخرج من أعماق القلب، ولا بد أن تترك كلُّ واحدةٍ منها أثرًا حيث مرّت؛ بل على الإنسان حين يبوح للحق تعالى بجوانيته في وعي كهذا ويسـأله المغفرة أن يتلوى حياءً من ذنوبه، ويقشعر ندمًا وحسرةً حتى كأن قلبه قد توقَّفَ.

أنواع الابتلاءات

سـؤال: لا جرم أنّ الإنسـان عُرْضة لأنواع شتّى من الابتلاءات، فما أخطرُ أنواعها على القلوب المؤمنة في وقتنا الراهن؟

الجـواب: اقتضـت سـنّة الله ﷻ أن يمتحـن النـاس بابتـلاءات شـتى طـوال حياتهـم؛ حتى يَمِيْـزَ الخبيث من الطيب والصالـحَ من الطالح كما يسـتخلص الألمـاس من الفحم، والذهـب من الحجر والتـراب، وما من ابتلاء إلا ويعرّفنا بماهية أنفسـنا؛ أي إن الله ﷻ -وهو أعلم بقدرنا وقيمتنا فـي الأزل- يكشـف لنـا من خـلال هذه الابتـلاءات عن مـدى جلدنا في المصائب والبلايا وكيفيةِ تعاملنا معها، وهل صبرنا عليها أم انسـلَلْنا منها، وهل تجلدنا وتحملنا أم وقفنا منها موقف المعترض على القدر الإلهي.

أجل، إن هذه الابتلاءات تكشـف لنا حقيقة أنفسـنا، وأشـار الشـاعر التركي يونس أمره إلى حقيقةٍ مفادها: أنّ الناس في حياتهم الدنيا سيظلون دائمًـا في مكابدة وعناء بين تمحيص وتصفية وانصهار كما يُصهر المعدن في البوتقة، قال يونس: "إنه لَطريق طويل، ومنازله كثيرة، وممراته مسدودة، ومياهه غائرة".

كلما عظم الهدف اشتدّ الابتلاء

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٥٥)، ذكر الله تعالى في مستهلّ هذه الآية أن الناس في هذه الدنيا يخضعون لابتلاءات شتى، ثم زفّ البشرى للصابرين عليها، فكما أن العبادات تَرفع درجة العبد فإن الابتلاءات التي تُعدّ من "عبادات السَّلْب"(١١١) تطهّره من الآثام إن صبر عليها، وترفعُه إلى أعلى المقامات وأسماها، فعلى المؤمن أن يصبر على ما يسوقه الله من ابتلاءات مختلفة ومتتابعة، ويتجلّدَ أمام كلّ ابتلاء يعرِضُ له، ويعدَّ هذا الموقف فرصةً لمساءلة النفس ومحاسبتها، ويتساءل في نفسه: هل وقفتُ من كل هذه الأمور موقف المؤمن الكامل؟

والقاعدة الثمينة "الغُنْمُ بالغُرْم" تدلّ أن الثواب والجزاء يكون على قدر المشقة والعناء؛ فشدة الابتلاء تتفاوت تبعًا لقيمةِ الهدف المنشود وعظمته.

مثال هذا أن الاستشهاد أي التحليق نحو "مرتبةٍ أخرى من مراتب الحياة" شرفٌ عظيم، لكنه لا يتأتّى إلا بالجهاد في سبيل الله والتضحيةِ بالنفس ابتغاءَ مرضاته ﷻ، فمَن تعلَّق قلبه بغاية سامية وأخذ يجتهد في إعداد ما تقتضيه هذه الغاية من وسائل فليتحمل في سبيلها وليتجلَّدْ ويصبر على ما يحل به من ابتلاء أو مصيبة مهما كانت، بل فليمضِ في مسيرته رغمًا عن نفسه.

(١١١) والمقصود بـ"السلب في العبادة" أن المصيبة تُكفّر خطايا المؤمن مع أنه لم يقم بأي عبادة بإرادته، فالمراد بـ"السلب" هنا العَدَمية، فكأن تكفير الذنوب يترتب على العدم وهو الحرمان من الصحّة واللذائذ والراحة ونحوها، ثم يؤجر عليها إن صبر. (المحرّر)

وأستميحكم عذرًا هنا لنتوقف قليلًا حتى نصغي لهذه الكلمات من الأستاذ النُورْسي ﷺ: "لم أذق طوال عمري البالغ نيّفًا وثمانين سنةً شيئًا من لذائذ الدنيا؛ قضيت حياتي في ساحات الحرب، وزنزاناتِ الأَسر، أو سجون الوطن ومَحاكم البلاد؛ لم يبق صنف من الآلام والمصاعب إلا وتجرّعتُه: عوملتُ في المحاكم العسكرية العرفية معاملة المجرمين، ونُفيت وغُرِّبْتُ في أرجاء البلاد كالمشرّدين، وحُرِمْتُ من مخالطة الناس في زنزانات البلاد شهورًا، وعُرِّضْتُ للتسميم مرارًا، وعُرِّضْتُ لإهانات متنوعة، ومرت عليَّ أوقات رَجَّحْتُ فيها الموتَ على الحياة ألف مرة، ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي، فلربما كان "سعيد" ترابًا تحت التراب"(١١٢).

أجل، لما كانت الابتلاءات التي تعرّضَ لها الأستاذ النورسي قاسيةً كلّ هذه القسوة، رفعه الله تعالى إلى ذروة الكمالات الإنسانية؛ ولا ندري، فلعلّ الله تعالى لما رأى صبره ﷺ على الابتلاءات والشدائد التي نزلت به جعله هاديًا مرشدًا لمن خلفه تفضلًا منه وتكرمًا وإحسانًا.

عثرات الطريق

إنّ حياة الإنسان كلها من أولها إلى آخرها سلسلة ابتلاءات، ولا يُبتلَى في هذه الدنيا بالبلايا والمصائب فحسب، بل يُمتحن كذلك بالنعم والإنجازات المادية والمعنويّة؛ أجل، قد ينزل الإنسان منازل ويمر بمراحل في حياته، فيعجبه بعضها، وتزلّ قدمه في بعض آخر، وقد تَعْلَق به في هذه المقامات والمنازل بعض الفيروسات والميكروبات، فتتحكم بحياته المعنوية، والمعنى أنَّ مَنْ مرَّ بمثل هذه المقامات والمناصب كما يُبتلى بالراحة والرفاهية قد يُبتلَى بالصيت والشهرة، أو بالمقام والمنصب، أو بتصفيق الناس وتبجيلهم.

(١١٢) سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ٤٩١.

ويَضرب الإمام الغزاليّ عدة أمثال على ما يحلّ بالإنسان من ابتلاءات[١١٣]، وملخصها: أنه قد يسمع امرؤٌ بجمالٍ رائعٍ خلابٍ لبلدةٍ ما كأنها الجنة، فيقصدها ويسلك طريقَهُ إليها بعزمٍ ماضٍ وحزم بالغ، ثم يعترض طريقه مكانٌ مريح لطيف أطربه فيه خرير الماء وحفيف الأشجار وشدو الطيور، فدعته الظلال إلى الركون والراحة، ونسي البلدة التي قصدها، وقرّر البقاء في هذا المكان، وقاوم من فوره ببناء كوخ، وأقام فيه".

تلك هي رحلة الإنسان في هذه الحياة أوجزها الإمام الغزالي في مثال جديرٍ بأن نتوقف عنده.

وفي منازل حياة الإنسان صُوَر أخرى من الابتلاءات غير ما ذكرنا، أي إنه سيظل طوال الطريق يتعثر بكثير من الأشياء، ويميل إلى الدعة والراحة ويُولَع بهما، علمًا أنه لا يتأتى دخول الجنة وبلوغ رضا الله دون اجتياز هذه المراحل.

الطمع في الثروة

ومن أشدّ الابتلاءات في الحياة الدنيا الرغبةُ في المتاع والملك، والطمعُ في المال، بل يمكن القول: إنها كانت وما تزال أكبر نقاط الضعف للغالبية العظمى من الناس على مرّ التاريخ، وهي الحقيقة التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: **"لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ"**[١١٤]؛ أجل، إن الاستكثار من المال بشرَه وطمع لا ينقطع، والسعيَ إلى امتلاك مصانع وشركات قابضة أكبر حجمًا، ومحاولةَ السعي لامتلاك كل شيء، نقطةُ

(١١٣) غزالي: **إحياء علوم الدين**، ٣/٢١٤-٢١٩.

(١١٤) **صحيح البخاري**، الرقاق، ١٠؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ١١٧.

ضعف لدى غالبية الناس؛ والواقع أن سرّ كثير من الصراع والشِّجار في المجتمع اليوم هو السباق على هذا الضرب من المصالح.

ولما ضُيّق على محيي الدين بن عربي في دمشق ضرب الأرض رجله وقال: "معبودكم تحت قدمَيَّ هاتين"، فكفّره بعضهم، وإنما كان يقصد أن مخاطبيه شُغفوا بالمال حتى كأنهم يعبدونه، مَثلهم في ذلك مثل قارون، ثم تبين بعد زمن طويل أنه أراد بقوله: " معبودكم"، كنزًا عظيمًا كان مدفونًا تحت موطِئ قدميه.

والحقيقة المؤسفة أن كثيرين اليوم يُهلكون أنفسهم في هذا السبيل؛ وتجدون كثيرًا من عُبّاد الدنيا سلكوا هذا الطريق من منطلق: "لا بد لي من بيت"، ثم يتملكهم مبدأ يقول: "لا بد أن أشتري بيتًا لِابني أيضًا، وآخر لابنتي، وفيلًّا لحفيدي... إلخ"؛ بل قد تجدون أناسًا انطلقوا من الخدمة في سبيل الله، ثم هرْولوا وراء هذا الضرب من الرغبات حتى كأنهم من عُبَّاد المال، ومنهم من لا يكتفي براتبه، فيترك خدمات ضرورية جدًّا للدين والأمة كي يجني أموالًا أكثر، فيخوض في طريق أهل الدنيا ويترك منهج السلف الصالح.

الولع بالشهوات

إن الولع بالشهوة ابتلاء آخر من الابتلاءات الخطيرة الصعبة في يومنا هذا خاصة؛ نعم، كانت مصيبة الشهوة اختبارًا صعبًا على مرّ التاريخ لكنها اليوم صارت أصعب وأخطر.

ولمولانا جلال الدين الرومي في المثْنوي مقالة عن الشهوة مفادها: أن الشيطان يطلب من الله ما يُغوي به البشر ويضلهم، فيعطَى الثروةَ

والمنصب والشهرة... غير أنه لا يرضى بأي منها، وفي النهاية يُعطَى القدرة على تزيين المرأة للرجل، والرجلِ للمرأة، فيفرح بهذا كثيرًا.

نعم، لم ترد هذه المقالة في المصادر الأصلية، والمهم هو تلك الحقيقة التي عبرت عنها؛ أجل، إن الشهوة أصعب امتحان في الدنيا لبعض الطبائع، دَلَّ على هذه الحقيقة الحديث النبوي الشريف: "**حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**"[١١٥]؛ أجل، فطريق الجنة طويلة، ومراحلها كثيرة، وتقطعها سيول وأنهار من الدم والصديد، أما طريق جهنم ففيها ما تشتهيه الأنفس من مأكل ومشرب وملذات ومَن سار فيها انساق واندفع خطوة فخطوة إلى أسفل سافلين دون أن يشعر ألبتة.

الرغبة في الشهرة

من الامتحانات التي خسر فيها كثيرون حبّ التعظيم والمنصب والمكانةِ والرياءُ وحبُّ تقدير الناس وثنائهم؛ فالشهرة التي ذكرها الأستاذ بديع الزمان في رسالته: "الهجمات الست" وسمّاها: "حبّ الجاه"، وشبَّهها في "المثنوي العربي النوري" بـ"العسل المسموم" إحدى نقاط الضعف الخطيرة التي قد يعلق بها بعض الناس؛ نعم، إن هذا الإنسان الضعيف الذي يحاول نقل بلاهة الشهرة إلى الآخرة لن يتوانى عن فعل أي شيء في الدنيا ليحظى بها.

اللهم إنا نعوذ بك من التردي في تلك الوهاد السحيقة، وخذ بأيدينا إلى الآخرة بتأشيرة الإيمان وشعور الإحسان.

---

(١١٥) صحيح البخاري، الرقاق، ٢٨؛ صحيح مسلم، الجنة، ١.

النفس والشيطان وأصحاب الأعراف

سؤال: في آية: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٥/٧) **يتحدث القرآن الكريم عن شخص شقيّ غوى وضلّ في نهاية أمره، ورغم أنه أُوتي من الآيات ما أُوتي كي يعثر على الحقِّ والحقيقة، إلا أنه أعرض عنها واتبع الشيطان، فما الذي يجعل خاتمة الإنسان سيئة على هذا النحو بعدما كان يسير في الطريق المؤدية إلى الحقّ؟**

الجواب: للانحراف عن طريق الحق التي نسير فيها أسبابٌ على رأسها الغفلة عن حقيقةٍ مهمة، وهي أن الله خلق الموت والحياة ليبتلينا، وهذا الأمر ماضٍ في كلِّ لحظة منها؛ ثم ما تورثه هذه الغفلة من انخداع بغوايات النفس والشيطان، والأصلُ أن الإنسان يعيش على الدوام صراعًا مع آلية النفس ومع الشيطان الذي لا يُعرف أين، ومتى، وبأي شكل سيتعرض للإنسان ويخادعه، فهؤلاء الأعداء يدنون من الإنسان غالبًا في صورة أصدقاء، فيُزيّنون له الأمور، فيرى الصوابَ خطأً، والقبيحَ حسنًا، والباطلَ حقًّا، فيُضلّونه؛ فعلى الإنسان أن يظل يقظًا حذِرًا دائمًا يتصدّى لوساوس النفس والشيطان لئلا ينخدع بهذه الحِيَل، وإلا فإن لحظة غفلة قد تسوقه إلى الوقوع في حيلٍ يصعب أو يستحيلُ النجاةُ منها.

ولكُـم أن تعدّوا كل شـيء تشـتهيه أنفسـنا وأجسـامنا من زينـة الدنيا الجذابة مادّةً يسـتخدمها الشـيطانُ الخَدّاع في الخداع؛ أجل، إن الشـيطان العدوَّ اللدودَ يُغري الإنسـان بما قد يسـتهويه، في حين أن بعض الأشـياء التي تعجبنا قد تكون في عاقبتها سـمًّا زعافًا، كما قال الله تعالى: ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَـيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَـيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُـمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (سُـورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢١٦)، وبتعبير آخر: إن العسـل المسـموم مهمـا أعجبَنا ونحن نتذوقه ونتلذذ بطعمه كثيرًا في أول الأمر، فقد يجعلنا نعانـي مغصًا شـديدًا بعـد ذلك؛ وعكس هـذا: قد يواجه الإنسـان أحداثًا ظاهرهـا مقلـق مؤلم، فـإذا تحمل ألمهـا ومعاناتها إذا به كأنـه يطير معها، ويصل إلى الرَّوح والريحان، مثال هذا لو أن نهرًا بباب أحدكم بوسـعه أن يغطس فيه ويتطهر فإذا بالشـيطان يوهمه أنه نهر مرعب وعميق جدًّا، فمن نظر إلى المسـألة بالعقل السليم، والحسّ السليم، والقلب السليم، وعرف حقيقتها وانغمس في النهر رأى أن الماء لا يبلـغ الكعبين، وأنه نافـع يطهر وينظف، هذا هو الشـيطان يسـعى لاسـتجراركم إلى الشـرّ بحيله الخبيثة، ويـود لو يمنعكـم من أعمال الخيـر بتضليل يبدو في الظاهـر أنّه إيجابي؛ لأنه -كما وصفه القرآن الكريم- "مسوِّلٌ"، "مزيِّنٌ" يزيّن الذنوب للناس.

انتهازيٌّ يترقب لحظة الغفلة

أجل، إن الشيطان هو العدو اللدود للإنسان، يرصد دائمًا أوقات غفلة الإنسـان، ويترقب الموضـع الذي يسـتطيع أن يضربه منـه، ونقاطَ ضعفه مثـل الشـهوة، والخوف، وحـب المنصب، والولـع بالمنفعة، فـإذا وجد فرصته قلب الإنسان رأسًا على عقب، واطَّرَحه أرضًا.

ويذكـر القرآنُ الكريم أن الشـيطان يُضمر للإنسـان الحقد والضغينة، وأنـه يمتلئ بُغضًا وكُرهًا له، يقول: ﴿**قَـالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ**

﴿الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٦-١٧).

وكذا ذكر في سورة "ص" الحقد والبغض والحسد الدائم الذي يُكِنُّه الشيطانُ للإنسان؛ قال تعالى على لسان الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سُورَةُ ص: ٣٨/٨٢)؛ ومن تأمّل كل هذه الكلمات ونحوها في جميع آي القرآن الكريم رأى أن همزات الشيطان ووساوسه هي التي تقف وراء جميع زلات الإنسان وكبواته وسقطاته، وتصرفاته وسلوكياته غير المسؤولة تجاه الحق تعالى.

من اكتفى بما عنده فهو مخدوع

لا جرم أنّه لا ينبغي للإنسان أن يقف من هذا العدو اللّدود موقف أصحاب الأعراف، بل عليه أن يدلِّل بعقله ومنطقه وعقلانيته ومحكَمات الكتاب والسنة على صدق قيمه التي يؤمن بها؛ أي لا بدّ أن يحصِّن صرح الإيمان والتوكل لديه، ويلوذ بالعناية الإلهية ليفوز ببشرى الآية الكريمة ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ١٦/٩٩)؛ وبتعبير آخر: إن مَن يكتفي بمُعطيَات البيئة الثقافية التي نشأ فيها، ولم يستطع أن يتخلَّقَ بالقيم التي يؤمن بها ولا أن يرقى بإيمانه إلى أفق الإيمان التحقيقيّ، فلا مناص من وقوعه في حبائل الشيطان.

يذكر القرآن الكريم كما ورد بالسؤال إنسانًا مترددًا مذبذَبًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فيقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٧٥).

ففي هذه الآية يقصّ علينا القرآن الكريم رحلةَ إنسان خاسر لنستلهم منها العبرة والعظة: لقد آتاه الله آيات بينات أي حُججًا وأدلة أو كراماتٍ

ومعجزاتٍ تنفتح لها العيون والآذان، ويصدُق بها اللسان، ويُساق بها القلب إلى الفكر المستقيم، ومع هذا كلّه انسلخ منها واتبع هواه، نفهم من هذا أن ذلك التعِس مع كلّ ما لديه من خصائص ما زال من أهل الأعراف أي لم يستطع أن يحدد مكانه أو أن يضع قدميه على أرض متينة.

أو قل: صحيح أن هذا الإنسان نشأ في بيئة صالحة إلا أنه لم يتخلق بفضائلها التي هيأتها له؛ أجل، إن هذا التعِس وريثَ البيئة الثقافية لم يُجهد نفسه ولم يكابدْ حتى يدلِّل على صدق علمه وعقيدته، بل لم يُعمِل فكره بحقّ، ولم يطلق العنان لإرادته حتى يعيد صياغة عالمه العقائدي والفكري والشعوري من جديد، فتعثر في الطريق، وانقطعت به السبل، وأصبح من الخاسرين، ولم تنفعه معرفته بالاسم الأعظم واطّلاعه على أسرار الألوهية وأسرار الربوبية كما قال بعض المفسرين؛ لأن هذه المعلومات لم ترسخ في جوانيته.

إذًا من لم يتعهد تراث أجداده بالإصلاح والتجديد ويعيد النظر فيما لديه من معلومات، ويتأكد من صحتها، فهو معرّض غالبًا لأنْ يلقي الشيطانُ بذور الوسوسة والشكّ فيه، ويكدّر قلبه وعقله.

ملازمة المجالس الإيمانية

ثم كشف الحق ﷻ أمر هذا الذي ما زال في الأعراف بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٦/٧)؛ هوى الراحة والشهوات والشهرة والتقليد والتصفيق والتهليل، وتعلّق بأهوائه وشهواته ونسي أن الله تعالى هو صاحب كلّ ما لديه من نِعَم، فلما نسي هذا كله أصبح هو أيضًا من المنسيِّين.

وبعد ذلك يقول الحق تعالى فيه: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٦/٧)، وبعد بضع آيات يقول: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧)، فدل هذا أنّ مَن يتردى إلى مثل هذا الحال ينحطّ إلى مرتبة أدنى من مرتبة الأنعام.

إن الإنسانَ أشرف مخلوقات الله، وهو مرشح لكل رفعة وجلال، وقد تبوأ مكانة أعلى حتى من الملائكة، ومع هذا فإنه إن هوى وزلت قدمه فلن يقع على أرض مستوية، بل سيهوي في هوّة سحيقة، والمعنى أنَّه إن أصبح أسيرًا لرغباته وشهواته عجز عن أن يحافظ حتى على رتبة الإنسان العاديّ، وتدنّى إلى رتبة الحيوان.

وهكذا نجد بلاغة القرآن الكريم تتجلى في العدول عن اللين واللطف في التعبير نظرًا لهول القضية المذكورة وعظمها، فيشبّه سلوك مثل هذا الإنسان بسلوك الكلب.

وزبدة القول: إذا لم يثبت المرء على منهجه الذي يسير عليه، ولم يتزود بزاد يؤهله للسير فيه، ولم يكن لديه عزم وتصميم على تجديد نفسه، ولم يتمسك بحقيقة "**جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ... أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ**"(١١٦)، فمن المحتمل أن يتعثر بإحدى هذه العراقيل في أي وقت.

ومعنى ذلك أنه ينبغي للإنسان أن يجعل همّه المحافظة على إيمانه بكل عزم وإصرار حتى يتسنى له تجاوز كل هذه العراقيل والوصول إلى الهدف المنشود، وأن يحيط نفسه بسياج منيعةٍ، وأن يغذّي روحه دومًا بالعمل الصالح والمجالس الإيمانية.

(١١٦) مسند أحمد بن حنبل، ٣٢٨/١٤.

أصول النقد البنَّاء

سؤال:متى يكون "النقد" إيجابيًّا بنَّاءً، ليصبح وسيلة مهمة للوقوف على الأنفع والأصلح في كل مسألة؟ وما هي آداب المناظرة؟

الجـواب: من معانـي النقد تقويم قول أو فعـل أو تصرف ما، وذلك ببيـان محاسـنه ومثالبـه، وبالمقارنة بيـن ما هو كائن ومـا يجب أن يكون؛ والنقد من الأسـس العلمية المهمة للوصول إلى ما هو مثاليّ، واسـتُعمل بهـذا المعنـى منذ عصر السـلف الصالح، ومنه نقدُ السـند والمتن للتثبت مـن صحة الحديث، ولم يقتصر منهج النقد على دراسـة الحديث النبوي فحسـب، بـل غدا منـذ العصـر الأول قانونًا مهمًّـا يُلجأُ ويُرجـعُ إليه كي تظهـر الحقيقة في كثيرٍ من الموضوعات مثل التفسـير وشـروح الحديث؛ وغدا هذا القانون العلمي مِصْفاةً منضبطةً جدًّا، وبه أمكن التصدي لأفكار دخيلة على الإسلام أُريدَ له أن يختلط بها، ولما تطوّر علمُ المناظرة نُقدَت التفسـيراتُ والاجتهادات في مداولات ومناقشات فكريّة، فنُقدَت الأفكار وقُوِّمت واختُبرت بالمحكَمات، فظهرت بارقة الحقيقة بهذه الطريقة.

وقـد تَكـوَّن تراث عظيـم في علـم النقد خاصـة نقد السـند، فدُوّنت مجلـدات عـن علـم الرجـال في ضـوء علـم الجـرح والتعديـل، ونقدوا رواة الأحاديـث النبويـة جميعًا، وبهذا تم التثبُّت مـن الروايات الصحيحة

عن رسول الله ﷺ، وليُعلَم أن العلماء حرَصوا على ألا يصدر عنهم ما يزيد عن الغرض من النقد مهما كان موضوع النقد مهمًّا، والتزموا الدقة والخشية في هذا الشأن؛ فهذا شعبة بن الحجاج -أحد واضعي علم الجرح والتعديل- يقول: "تعالوا نغتاب في الله!" يريد الكلام في الشيوخ[١١٧]، ومراده ضرورة العمل في نقد رواة الحديث، وضرورة قصره على ما فيه مرضاة الله.

أجل، لقد استُخدم منهج النقد في حضارتنا لا سيما القرون الهجرية الخمسة الأولى للوصول إلى الأفضل سواء في العلوم الدينية أو العلوم التطبيقية، واليوم يمكن الاعتماد على هذا المنهج العلمي أيضًا بشرط التزام الإنصاف في النقد، والحفاظ على الأدب، وأن تبحث المسألة وتُعرَض بعناية ودقة فائقة، ولهذا الموضوع أصول يمكننا أن نسميها آداب النقد ومبادئَه، نلخصها على النحو الآتي:

أقفالٌ مفاتيحها الإنصاف واللِّين

لا بد من كون النقد بأسلوب دَمِث، وأن يكون نمط العرض إنسانيًّا لأقصى درجة، أي ينبغي أن يكون النقد على نمط يقبله المتلقي برحابة صدر، ولا يثير حفيظة المخاطب، فلو أنكم عرضتم آراءكم المنطقية المعقولة وأفكارَكم البديلة التي تؤمنون بها في مشكلة ما عرْضًا إنسانيّ الأسلوب ليّنًا مُنصِفًا، لَقُوبِلت أفكاركم بالاحترام وبالقبول، فلو أن لكم في مسألةٍ ما رأيًا ولمخاطبكم خلافه، فإن خاطبتموه بنحو: "سيدي، كنت أحسب أن هذه المسألة على هذا النحو، غير أنني حين نظرت في رأيكم تبيّن لي أن للمسألة وجهًا آخر"، وحينئذ قد يعود بعد فترة ليقول: "تبيَّنَ لي أن رأيكم في المسألة التي تحدثْنا عنها هو الصواب"، وسترُدُّون عليه

(١١٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٦\٦١٦.

قائليـن: " نشـكرك، يـا لك مـن منصف!"؛ نعـم، يجب إعلاءُ شـأن الحق دائمًا، لذا فقد يقتضي قبول الآخرين باحترام من أجل الحقيقة واستقرارها فـي صـدور النـاس، فأحيانًـا يجب علـى المـرء التقليلُ من شـأن تجاربه الخاصـة وثروتـه العلميـة وأن يُغيّـب أنانيتـه إذا اقتضـى الأمـر، أو قـل: إن كان المطلـوب قبـول مـا كان معقولًا، فيلزم تقييم أفـكار الآخرين ولو كانـت غيـر معقولة تقييمًا معقـولًا، ومقابلتُهم بصدر رحـب دائمًا، وتهيئةُ مناخ من الصدق والإخلاص يمكّنهم من قبول الحق والحقيقة.

الحديث إلى العامة وعدم هتك الستر

يشـهد التاريخ أن من يسـتخف بأفكار الآخرين -مهما كان مجالها- ويطرحهـا جانبًـا دائمًا وكأنها نقـود مزيفة، ويراها "هبـاء"، قد يفقد -دون أن يـدرك- كثيـرًا من الأشـياء "الثمينـة" التي قد تفيـده؛ فلنعمل على مبدأ مقابلـة الأفـكار كلها باحتـرام بقدر معين، حتـى وإن كانت نقـودًا مزيفة، أو نحاسًـا، أو حديـدًا، أو رصاصًـا، وإذا جرينـا علـى هذا النحو اكتشـفْنا طريقـة صائبـة جـدًّا لإقنـاع مخاطبينا بالحقائـق، وإلا فـإن الكلمات التي تُقال وتُطلَق بشـكل مؤذٍ مُزعِج -وكأنها مطارق تهشـمُ رؤوس الآخرين- لـن تحظـى بقبـول حسـن مهمـا كانـت أفـكارًا ومشـاريـع رائعة، بـل إنه لا منـاص ولا مفـر من التعرض لـردة فعل إن لم ندقق في لغة النقد، حتى وإن وقعـت مخالفة لحكم شـرعي ثبت نصًّا، فمثـلًا قد ترون صديقًا لكم ينظر إلى الحرام، فإن واجهتموه بأسـلوب يهتك السـتر الذي بينكم وقلتم له: "فعلت كذا وكذا، غض الطرف، ولا تقرب الحرام!" فقد يجعله نقدكم هذا -نسأل الله السلامة- وكيلًا للشيطان، لا سيما إن لم يكن مستعدًّا لنقد الآخريـن تصرفاته وسـلوكياته ولا يستسـيـغ ذلك ولا يقبلـه، فإن أي نقد له سيتسـبب في ردود أفعال تحمله على عـدم احترام الحق، ويغدو عدوًّا

لقِيَمنا الذاتية؛ وقد يَعلم أن ما يُذكر له حقيقة، لكن ما يتكون في ذهنه من السفسطة يُظهر الباطل حقًّا، وذلك نتيجة الصدمة الروحية التي مُنِي بها بالصفعات التي انهالت على رأسه، بل إنه -وهو يخلد إلى النوم- ليخطط ويفكر في ردّ الانتقادات الموجهة إليه.

ولا بدّ عند معالجة أمر بالنقد والتحليل من اختيار أسلوب خطاب غير مباشر، فقد كان رسولُ الله ﷺ إذا بلغه أمر ينكره لم يواجه فاعله به ً، بل يجمع الناسَ في مكانٍ ثم يتوجّه بخطابه إليهم جميعًا، وبذلك يتسنى للمخطئ أن يأخذ العبرة والعظة من هذا الخطاب، من ذلك ما رُوي أنّه ﷺ استعمل رجلًا على الصدقة، فلما قدم قال: "هذا لكم وهذا أُهديَ لي"، فقام النبيُّ ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "**مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا**"(١١٨).

أمر آخر ذو قدر: من هو الناقد أو الناصح؟

إذا دعت الضرورة إلى نقد شخصٍ ما، فليس لأحدٍ أن يصرّ على القيام بهذا الأمر بنفسه، وليدعْ شخصًا يحبّه المخاطب يقوم بذلك؛ لأن انتقادات الحبيب قد تُعدّ مجاملة وثناء.

أجل، إن رأيتم أنّ كلامكم ستنجم عنه كراهية من المخاطب فتجنبوا الأمر، وافسحوا المجال لغيركم؛ فليس المهمّ مَن يعبّر عن الحقيقة، بل المهمّ هو أن تتقبّلها الصدور.

وإليكم في هذا منقبة للسِّبطَيْن الحسنِ والحسينِ ﷺ؛ نعم، لم ترد في الصحاح لكن فيها دروس زاخرة بالعِبر والعظات: يُحكى أنهما ﷺ

(١١٨) صحيح البخاري، الأحكام، ٢٤؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٢٦.

مَرًّا على شيخ يتوضأ ولا يحسن الوضوء، فاتفقا -وهما من أهل الفطرة النادرة والفِراسة الباهرة- على أن ينصحا الرجل ويعلّماه كيف يتوضأ، فأتياه وقالا له: "يا عمّ، انظر أَيُّنا أحسن وضوءًا"، ثم توضأ كلٌّ منهما كما رأيا جَدّهما سيدنا رسول الله ﷺ ووالدهما عليًّا كرم الله وجهه، فإذا بهذا الرجل يقول برحابة صدر: "كلاكما أحسنَ الوضوءَ، أما أنا فلم أحسنه"، وهذا لأنهما لم يتعرضا له بطعن أو نقد صريح، ولا أنكرا عليه مباشرة.

قلت وأعيد القول: قبول النقد في مسألة ما يقتضي أسلوبًا مناسبًا يستهدف تصحيح الخطأ وإبراز الصواب، بطريقة جيدة في الإعداد والعرض.

تربيةُ مخاطَبٍ يتحمل النقد

وينبغي الرقيُّ بالمخاطبين إلى مستوى القدرة على تحمّل النقد، وإثارة الشعور باحترام الحق فيهم، وقد بلغ الصحابة الكرام رضي الله عنهم هذا الأفق، فكان بعضهم يواجه بعضًا بأخطائهم بنفس راضية وصدر رحب، ولا يؤدّي هذا إلى حدوث أيّ خلاف بينهم ألبتة؛ فذات يوم صعد سيدنا عمر رضي الله عنه المنبر، وتحدّث عن آليات من شأنها أن تيسِّر أمر الزواج، وأن يكون المهر بقدر يطيقه الجميع، ودعا إلى ترك المغالاة في المهور، وحدَّها بقدْرٍ معين، وهو حلٌّ ناجع حقًّا لمنع الاستغلال ولو بقدر ما، وللتسامح في هذه المسألة أثر كبير اليوم في حلّ معضلة اجتماعية كبيرة.

وهنا قامت امرأةٌ وقالت: "يا أمير المؤمنين، أكتابُ الله تعالى أَحَقُّ أن يُتَّبع أو قولُك؟" قال: "بل كتابُ الله تعالى، فما ذاك؟" قالت: نهيتَ الناسَ آنفًا أن يغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٢٠)؛ كان عمر حينذئذ يدير دولة كبيرة أكبر من تركيا بعشرين ضعفًا، وهو من أرغم أكبر قوتين عظميتين حينئذ على طاعته والدخول تحت إمرته، ورغم ذلك توقّف فورًا عند سماعه هذه الكلمات، وانسابت من بين شفتيه هذه الكلماتُ: "كلُّ أحد أفقهُ مِن عمر!" مرتين أو ثلاثًا، ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: "إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، ألا فليفعل رجلٌ في ماله ما بدا له"(١١٩)؛ وحسّه المرهف هذا هو الذي جعلهم يصفونه بـ"الوقّاف عند كتاب الله تعالى"، أي كان يستطيع كبح جماح نفسه متى أراد وأينما شاء.

ولا بدّ أن يكون لدينا حميعًا هذه الحساسية وهذا الشعور؛ ويمكننا أن نتآخى ونتواءم ونعطي لأخينا حقّ النقد بكل ارتياح لما يراه فينا وفي سلوكنا وأفعالنا من قصور، حتى نتهيّأ بذلك لتقبّل أي نقد يُوجَّهُ إلينا.

وعلى من يفكّر في نقد مسألة أو تقويمها أن يدرُسها أولًا ويبذل قصارى جهده في قول الصواب، وأن يراعي حساسيةَ الطرف الآخر عند تحليل المسألة ونقدها، وأن يضع في حسبانه أيضًا مدى استعداد المخاطب لتقبّل ما يُوجّه إليه، فإن توقَّع أن يقابَل نقده بأيّ رد فعل من المخاطب فليس عليه أن يصرّ على إبراز الحقيقة بنفسه، بل يدع هذا الأمر لمن هو أقوى منه تأثيرًا في نفس هذا المخاطب.

ولمراعاة هذه الخصائص في عصرنا أهمية عظمى، إذ طغت الأنانية ولم يعد الناسُ يقبلون النقد.

وعلى مَن انتُقد أن يُعلِي من شأن الحق أكثر من أي شيء، وأن يقابل

(١١٩) سنن سعيد بن منصور، ١/١٩٥؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٧/٣٨٠.

النقد بالشكر لا الاعتراض، يقول الأستاذ بديع الزمان: "نحن نشكر من يرى نقائصنا ويُريها لنا -بشرط أن تكون حقيقية- ونقولُ له: جزاك الله خيرًا؛ إذ كما نشكر من إذا وجد عقربًا على عنقنا وألقاها عنا قبل أن تؤذينا ونقدم له أجزل الشكر والامتنان، كذلك نقبل ونرضى عمن يُرِينا نقائصنا وتقصيراتنا ونظل في شكر وامتنان له"[١٢٠]؛ وهذا هو النضج والكمال.

(١٢٠) سعيد النورسي: **الملاحق**، ملحق أميرداغ/١، ص ٢٢٦.

الرزق الحلال والعمل الصالح

سـؤال: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٥١)**؛ فما وجه ربط الرزق الحلال بالعمل الصالح؟**

الجواب: لمسألة الحلال والحرام في الكتاب والسنة قدر عظيم، عبّر عنه أهل العلم بالكتاب والسنة بقولهم: "الدِّينُ المعَامَلَةُ"، أي الإسلام هو معرفة الحلال والحرام والوقوف عندهما؛ قال سيدنا عمر ﷺ في هذا: "لَا تَنْظُرُوا إِلَى صَلَاةِ أَحَدٍ وَلَا إِلَى صِيَامِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى مَنْ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ أَدَّى، وَإِذَا أَشْفَى وَرِعَ"(١٢١)؛ ولا ريب أن العبادات من حج وصيام وزكاة قيّمةٌ جدًّا عند الله تعالى، وفضائلها جليلة، فلا يسع أحدًا أن يهوّن من أمرها، لكن ثمة قضية أساسية لا محيد عنها في الإسلام، وهي أن يُعنَى الإنسان بمطعمه ومشربه وملبسه، وبتعظيم حقوق الفرد وحقوق العامة على حدٍّ سواء، وبأن يصرف عمره كله في إحقاق الحق أي أن يقضي حياته بمنتهى الدِّقة والحذر في أمر الحلال والحرام؛ ولك أن تقول: لَتطبيق هذا على واقع الحياة أمثلَ تطبيقٍ أشقُّ على النفس من العبادات؛ فعلى من يمثّل الإسلام ويطبّقه بحق أن يتتبع الحلال ويتحراه، وأن يصبر على ترك الحرام، وألا تتسلل إلى جوفه ولو لقمة حرام واحدة بتاتًا، وليستقم على ذلك.

(١٢١) البيهقي: السنن الكبرى، ٦/٥١٢.

وإذا نظرنا إلى أحوال عباد الله الصالحين وأطوارهم تبيَّن أنَّ كلًّا منهم كان مرشـدًا حقيقيًّا للآخرين في هذا الموضوع؛ فالورع والإرادة الجازمة ديدنهم في هذا، بل إن الحق تعالى وقاهم الحرام وهم لا يشعرون؛ أجل، كان فيهـم مـن لـو امتـدّت يده إلـى حرام يجهـل أنه حرام، ارتعشـت يده أو تزايـدت دقـات قلبـه، فـأدرك أنه حرام فكـفّ عنه فـورًا؛ وآخر وضـع لقمـة حـرام في فيه خطأً، فراح يلوكها طويلًا، فعجـز عن أن يبتلعها ألبتة؛ ومنهم من لو علم أن حرامًا دخل معدته خطأً سرعان ما يستقيء ويحاول أن يلفظه؛ وَرَدَ أن سـيدنا أبا بكر أكل طعامًا اشـتراه خادمه من مال اكتسبه مـن العمـل بالكهانة في الجاهلية ولم يكن يعلم ﷺ هذا، وأن سـيدنا عمر شرب لبنًا من إبل الصدقة وهو لا يعلم؛ وما إن علم كلٌّ منهما بالأمر حتى أدخـل أصبعـه في حلقه فقـاءَ حتى لم يبقَ في معدته شـيءٌ، فدلّ ذلك أن ورعًا كهذا في اللقمة الحرام وتوقيها أمر ذو أهمية عظيمة في الإسلام.

أعظم وسائل الترقي

إنّ تحري الحلال والحرام ذو قدر عظيم لدلالته على مراعاة أوامر الله تعالى وتعظيمه سبحانه، وكل كسب يتوخّى منه الحلال ويتوقّى فيه الحرام عبادة ذات شـأن؛ فالصبر والجلد عـن المحرمات والبلايا والمصائب من "العبادات السـلبية"(١٢٢)، وسـعيه واجتهاده في طلب الـرزق الحلال عبادة كهـذه تمامًا؛ تأمل هذا في ضوء كلام الله العظيم: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَـلُ الصَّالِـحُ يَرْفَعُهُ**﴾ (سُـورَةُ فَاطِـرٍ: ١٠/٣٥)، دلت هذه الآيـة أن الكلمات المباركـة مثل: الحمد، والتسـبيح، والتكبيـر، والصلاة على النبي ليس لها رافـع إلى الحقّ تعالى إلا الأعمال الصالحة، فكلا نوعي العبادة فعلًا كانت

(١٢٢) المقصود بسلبية العبادة هنا العَدَميّةُ، فالمصيبة مثلًا تكفّر خطايا المؤمن مع أنه لم يقم بأي عبادة بإرادته، فكأن تكفير الذنوب يترتب على العدم وهو الحرمان من الصحة واللذائذ والراحة ونحوها، بالإضافة إلى أنه يؤجر عليها إن صبر.

كالصلاة والزكاة والصيام، أم تركًا كتجنب الحرام بحزم والسعي بجد في هذا جناحٌ تحلّقُ بالكلمات الطيبة إلى الله تعالى؛ فلا ينبغي التهوين من أمر هذه المسألة، وعلينا أن نسعى في طلب الحلال وتجنب الحرام سعيًا حثيثًا.

أجل، التمييز بين الطيب والخبيث في المأكل، وعدم خلط الأشياء الخبيثة بالطيبة، والتصرف بدقة كاملة في هذا الشأن له ثواب العبادة؛ فتحقق المرء من مكوّنات الدواء الذي سيتناوله مثلًا، وتحرّيه الحلال في شراء المواد الغذائية، وتثبته من الذبح الشرعي عند شراء اللحوم، وتحريه الكسب الحلال، سيرفعه ويسمو به معنويًا وروحيًا، أمَّا من لم يوفّ إرادته حقَّها في هذه المسألة ولم يأبه لها، فستخبو حياته المعنوية، وستتعرض لطائفه لمقتل قد يتسبب في هلاكه.

وقوله تعالى ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٤٢/٥) يصور أسوأ حالة وأقذرها لطائفة ما وهي تأكل الحرام، ودلت السنة أنه لن تقبل من الإنسان عبادة ولا طاعة بل ولا دعاء طالما جرى في عروقه الرزقُ الحرامُ "السُحت" كما في الآية؛ روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **"مَنْ أَكَلَ لُقْمَةً مِنْ حَرَامٍ لَمْ يُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيلَةً، وَلَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ دَعْوَةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَكُلُّ لَحْمٍ يُنْبِتُهُ الْحَرَامُ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ، وَإِنَّ اللُّقْمَةَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْحَرَامِ لَتُنْبِتُ اللَّحْمَ"**(١٢٣).

عاقبة طاعم الحرام الوخيمة

وفي بيان الأثر السلبي للحرام روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **"أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ**

(١٢٣) الديلمي: مسند الفردوس، ٥٩١/٣.

إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ"، فَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٥١) وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٧٢)، ثم ذكر: **"الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟"**(١٢٤).

وورد أيضًا: **"إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ حَاجًّا بِنَفَقَةٍ طَيِّبَةٍ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ، فَنَادَى: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، زَادُكَ حَلَالٌ، وَرَاحِلَتُكَ حَلَالٌ، وَحَجُّكَ مَبْرُورٌ غَيْرُ مَأْزُورٍ؛ وَإِذَا خَرَجَ بِالنَّفَقَةِ الْخَبِيثَةِ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ، فَنَادَى: لَبَّيْكَ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ، زَادُكَ حَرَامٌ، وَنَفَقَتُكَ حَرَامٌ، وَحَجُّكَ غَيْرُ مَبْرُورٍ"**(١٢٥).

أجل، أيُستجابُ دعاء مَن مطعمه حرام، ومشربه حرام، ومركبه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، أوَيُقبل حجه وهو غارق في الحرام إلى هذا القعر؟! أنى لغارق في هذا القدر من الحرام أن يقول: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ!"، حتى وإن قال أفلا تُرَد عليه كلماته تلك كأنها خرقة قذرة؟ فما أعظم وأهمّ التغذي بالرزق الحلال والحياة في دائرة الحلال ليُرفَع ما نؤديه من عبادات إلى الله تعالى! وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة الواردة في السؤال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٥١)، فتغذي الإنسان بالرزق الحلال ذو أثر خطير حقيقي على قبول العبادات والطاعات التي يؤديها.

(١٢٤) **صحيح مسلم**، الزكاة، ٦٥؛ **سنن الترمذي**، تفسير القرآن، سورة البقرة، ٣٧.

(١٢٥) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٥/٢٥١.

أمـر آخـر: وردت آيـات كثيـرة في الأمر بـالأكل من الـرزق الحلال الطيب؛ ومرد هذا إلى جهد الإنسـان وسعيه في تحري الحلال أولًا؛ فكل حلال يألف جنسـه فيطلبه، والحرام كذلك، فلكل شـيء أجناسٌ تشـبهه، وتتصف بصفاته نفسـها، وتلازمه، فيسعى بعضها في طلب بعض؛ وهكذا تصرفاتنا وأعمالنا وحركاتنا تطلب جنسها من الأشياء؛ وتشير الآية الكريمة ﴿**اَلْخَبِيثَـاتُ لِلْخَبِيثِـينَ وَالْخَبِيثُـونَ لِلْخَبِيثَـاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِـينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾ (سُورَةُ النُّورِ: ٢٦/٢٤) إلى أن شأن الخبيثين تتبُّعُ أثر الأشياء الخبيثة، وشـأن الطيّبين تتبع أثر الأشـياء الطيبة؛ ولكم أن تقولوا: النظافة والطهارة والجمـال والطيـب أشـياء جميلة تطلب أخرى من جنسـها؛ أمـا الخبائث والدنس والخبث فهي أشياء خبيثة تطلب مثلها أيضًا، والإنسان حين يتتبع أثـر الحـلال، ويبذل جهده في هذا الشـأن تتكون لديـه يومًا بعد يوم دائرة صالحة تنداح في محيط الخير، ويعيش الإنسـان حياته في هذا الجو، لذا وجب ابتداءً أن نميز بدقّة بين الحلال والحرام.

انتشار الحرام لا يسيغه قطعًا

المؤسـف أن اختـلاط الحـلال بالحرام في يومنا هـذا وضَعْفَ الورع عامـةً حقيقةٌ، فعلى الإنسـان أن يعلم أن تسـاهل غيره فـي هذا الموضوع لا يغنـي عنـه شـيئًا، كما خاطـب الأسـتاذ بديع الزمان نفسَـه قائـلًا: "لو ذهبتِ تنشـدين السـلوان في معية الآخرين ومشـاركتهم لك في المصيبة، فهـذا وهْم لا أسـاس لـه ألبتة فيما بعد القبـر!"(١٢٦)؛ فأكلُ النـاس الحرام، ونظرتهم إليه، وحديثهم فيه، وإسرافهم في الكلام عنه، وإن بدا أنه نوع من العزاء والسـلوان، إلا أنه لن يفيد الإنسـانَ في الآخرة شـيئًا ألبتة، فالشركة

(١٢٦) سعيد النورسي: **الكلمات**، خاتمة الكلمة الرابعة عشرة، ص ١٩١.

في المصيبة لا تخفف المصيبة في الآخرة، إذًا على المؤمن أن يعلم جيدًا من أين تأتي كل لقمة يضعها في فيه، وأين ستذهب، وماذا قد تجُرّ عليه.

ومن المعلوم أن غفلة الإنسان وتركه الورع في هذا الباب أمر عواقبُه خطيرة جدًّا في الآخرة؛ فسيُسأل الإنسان هناك ولو عن حبة شعير؛ بل إن القرآن الكريم يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ: ٩٩/٧-٨)؛ فتأمّل مثقال الذرة أو وزنها؛ نعم، فكما أن من عمل خيرًا وزنه ذرة سيثاب، سيعاقَب من عمل شرًّا وزنه ذرة؛ أجل، سيُحاسب العبد في الآخرة على كل كلمة تفوّه بها أو سمعها، وكل منظر رآه، وكل لقمة وشربة في معدته... إلخ؛ فإن لم يحاسب الإنسان نفسه في الدنيا بدقة حوسب في الآخرة حسابًا عسيرًا؛ فيُرهقونه صَعودًا -نسأل الله السلامة-، فعلى من عدِموا الدقة في هذا الباب أن يُراجعوا أنفسهم ويحاسبوها على المأكل والمشرب والمكسب والنفقات.

واعلم أن عبث العابثين في هذه المسألة وفرط تساهلهم فيها لا ينبغي أن يحملنا على التشاؤم؛ فإنّ رُوّاد الورع لو ملكوا زمامه، ومضوا في حياتهم على ذلك، فستنتشر حالتهم هذه في محيطهم كالأمواج، وسيتبنى المجتمع كله هذا الوعي والدقة يومًا بعد يوم بلا شكّ، ولهذا شرط هو أن نبرأ إلى الله من إسلام الهُويّة، وأن ننوي ونعزم ونصر على أن نميز الأشياء بعضها من بعض جيّدها من رديئها، وحسنها من قبيحها، وحلالها من حرامها، وذلك بأن نفكر، ونتدبر، ونغوص في غور الأعماق.

تأملات في أيام العيد

سـؤال: أيام العيد أيام فرحٍ وسرور، فماذا علينا أن نفعل حتى نتذوّقها بحقٍّ، وكيف يمكن استغلالها في ضوء المُحْكَمات الشرعية؟

الجـواب: أيُّ عبادةٍ أو تشـريـع إسـلامي له مغزى خـاصّ، لا يُدرَك إلا بالإيمـان أولًا، ثـم بمبـدأ التجـدّد، وطريقُهُ شـحذ الإرادة ضدّ الإلف والركود؛ لأنه لا يشـعر بنضارة الشـيء وغضارته إلا من يقدر على تجديد نفسه باستمرار، وبتعبير آخر: تجدُّدُ المنظور رهنٌ بتجدد الناظر.

يقول ﷻ: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ١٩/١٤).

كأنّ هـذه الآيـة تحـذِّر الناس من الركـود والبِلَى والـرزوح تحت نِير الإلـف والأنـس، وتهيـب بهم أن تكـون أرواحهم غضة طرية تشـعر بهذا الدين على الدوام؛ ومن هنا نعلم أنّ إدراك قدر شـهر رمضان وأيام العيد وحُسـنَ اسـتغلالهما مشـروطٌ بالإيمان القـوي أولًا، ثم بتجديد الإنسـان إيمانـه على الدوام؛ فيتعذر أن يشـعر بغضارة الأعيـاد ونضارتها مَن غدوا أُسـارى الإلف والألفة أو مسـلمين بالْهُويّةِ للدينِ في حياتِهم نمطٌ وجدوا عليه آباءهم.

رمضان والعيد

قال رسول الله ﷺ: **"جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ"**، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: **"أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله"**(١٢٧).

والمعنى: جددوا شأنَكم وصلتَكم بربكم ونظرتَكم إلى الأوامر التشريعية والتكوينية على الدوام، وحاسبوا أنفسكم باستمرار، وابدؤوا كل يوم بإيمان جديد، وامضوا في حياتكم على هذه الشاكلة.

ولهذا الخبر صلة بالأثر: **"مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ"**(١٢٨)؛ فمن الأهمية بمكان أن يزيد المرء مستواه المعنويَّ في يومه عن أمسه، وأن يتذوق محاسن هذا الدين كل يوم أكثر؛ ولا يشعر بمعنى رمضان والعيد إلا من يسعى سعيًا حثيثًا وراء هذه الغاية وذلك الهدف.

ولما اشتمل العيد على زبدةٍ وخلاصةٍ خالصة من رمضان صار تذوق محاسن العيد مشروطًا بالقيام برمضان حقَّ القيام؛ فمن يقومون برمضان بمعناه حقًّا هم وحدهم من يتنسمون نسائم العيد بمعناه حقًّا؛ أجل، إذا نجحت القلوب المؤمنة في التفاعل الفاعل مع رمضان، تمكنت لا محالة من صيامه وقيامه إيمانًا واحتسابًا لإيمانها الكامل بالله تعالى، فأدَّت الصيام والقيام وسائر العبادات في مناخ تعبّدي، وهي على وعي بالوظيفة الملقاة على عاتقها، ثم لا تلبث أن تشعر بضيق واكتئاب خشية أن يكون رمضان قد انقضى ولم تُوَفِّه حقَّه قائلة في نفسها: "اللهم إني لا أعلم، أوَفّيتُ شهر رمضان حقَّه أم لا، أحفظته أم ضيعته، أتحصنتُ بجُنَّة الصوم من الشرور

(١٢٧) مسند أحمد بن حنبل، ٣٢٨/١٤.

(١٢٨) الديلمي: مسند الفردوس، ٦١١/٣.

والآثام كما نعت الرسـول الأكرم ﷺ، وقضيت الشـهر متحصنًا بهذه الجُنّة أم لا؟"، ثـم تفيـض مشـاعرها بالرجـاء، لأن العيد يوم الجائـزة والمغفرة الإلهية.

العيد ساحة ذكر وشكر

الأعيـاد حقبة زمنيّة سـاحرة تنهمر فيها الفيوضـات والألطاف الإلهية على العباد، وهذا يقتضي مزيدًا من الحمد والثناء والشـوق والشـكر؛ فمن الخطـأ إذًا أن نعـدّ أيام العيد أيام لهـو ولعب ومرح ليس إلا؛ إنّ أيام العيد مـن أبـواب المغفرة التي يتفضـل الله بها على عباده للعفـو عنهم وغفران ذنوبهم؛ فعلى الإنسـان أن يجتهد في قضاء هذه الأيام المباركة بإحسـاسٍ وقلبٍ يقِظ، وأن يعيشـها بعمقها الأخروي وسَـعتها الميتافيزيقية؛ وأشـار الأستاذ بديـع الزمان إلى هذا في كتابه اللمعات، فقال: "ولئلّا تقوى الغفلة فـي النفوس في الأعياد، وتدفـع الإنسـانَ إلى الخروج عن دائرة الشـرع، وَرَدَ في الأحاديث الشريفة ترغيب عظيم في الشكر والذكر في تلك الأيام؛ وذلـك لتنقلب نِعَم الفرح والسـرور إلى شـكر يديـم تلـك النعم ويَزيدها، إذ الشكر يزيد النعمة ويزيل الغفلة"(١٢٩).

عادات عيدية لا يحظرها الإسلام

لـم نقـف في عصـر السـعادة والعصـور النيّـرة التالية علـى مثل هذه الفعاليات والمهرجانات التي تُقام في أعيادنا الآن اللهم إلا مسـائل تتصل بهـذه الأيـام المباركـة تناولَتْهـا كتب الفقه؛ فلم نشـهد في صدر الإسـلام أمـورًا مثل تنظيم الرِّحلات، وإقامة المهرجانات، وسَـمَر ليلة تحت ضوء

(١٢٩) سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الثامنة والعشرون، ص ٤٠٥.

القمـر، وتَطواف الأطفال على البيوت فـي وَقفة العيد يقبّلون أيدي الكبار ويجمعـون المكسَّـرات؛ لكن لمّا دخل أجدادنا في دين الإسـلام عرضوا عاداتهـم علـى مُحكمات الشـرع، فأبقوا علـى ما قوّمته ونقحته الشـريعة؛ ولم يجدوا حرجًا شرعيًّا في الحفاظ على بعض عادات الأعياد مثل تقبيل الأيـادي، وزيـارة الأقارب، والبشاشـة في وجه الآخريـن؛ وما زالت تلك العادات قائمة حتى الآن.

دفء المسامحة يحتضن الجميع

ينبغي أن تكون لحظات هذه الأيام المباركة جيَّاشة بالحبّ والصداقة والأخـوّة والخيـر والإحسـان؛ ليُنتفـع ببركاتهـا الفيّاضة وثـواب أعمالها المضاعـف؛ فمثـلًا جو التسـامح اللطيف الذي يحتضـن الجميـع ويخيم علـى هـذه الأيام فرصةٌ لتـرك الهجر، وللإقـدام على ما من شـأنه تحقيق الأخوة والمودّة بين الناس، ولتأليف قلوب الكبار بالزيارات، وغمرِ قلوب الصغـار فرحًا وسـرورًا بالهدايـا والحفاوة والإكرام، ولتهيئـة مناخ لطيف حتـى مـع غير المسـلمين ببناء جسـور للحـوار بيننا وبينهـم، الأمر الذي يُبـرز أننـا منصفون، ليس لنا موقف مسـبق ضدهم؛ نعـم، إنَّ لتوقير الدين والإيمان والذات المحمدية ﷺ أهمية ومكانة خاصة؛ إلا أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو -من حيث إنه إنسان- مخلوقٌ كريم لا بد مـن تقديـره وتوقيره، وقـد بات العالم كله اليوم بحاجة ماسّـة إلى سـلام عـامّ، لا سـيما هذا العصـر الذي زادت فيه الوحشـيّة وتضاعفت، وفتكت فيه القنابل بكل أنواعها بالإنسـانية، ونُشـرت بين الناس عمدًا الفيروساتُ الصناعيـة اسـتُخدمت أسـلحةً بيولوجية؛ أجـل، ينبغي صدّ هـذه الأمواج الهادرة بسدود تحول دون هلاك الإنسانية في خضم تلك المعركة الفتّاكة.

إنّ هـذه الأيـام المباركـة فرصة عظيمـة تلين فيها القلـوب، فلا حرج

فـي اسـتغلالها للقيام بأنشـطة خيّـرة وإن لم نقف لها علـى مثل في عصر السعادة والعصور التالية وفي كتب الفقه؛ ولا يخفى ما في الليالي المباركة من بركات؛ نعم، لم يرِد عن السـلف شـيء نحيي به هذه الليالي ولم تأت المصـادر الرئيسـة علـى ذِكْر عبادات خاصـة بهذه الليالـي، لكن لا حرج ألبتـة في الحـث على إحيائها بالعبادة والطاعة كالإكثار من الصلاة وتلاوة القـرآن والذِّكـر والدعاء؛ فهذه أيام عظيمة، فللعمل فيها قيمة أعلى إذ إنها مـن خـواصّ الأزمنة، وقُلْ مثل هذا في خـواصّ الأمكنة، فنحن مثلًا نلجأ إلـى الله بالدعـاء فـي كلّ مـكان، لكن الدعـاء في عرفات أرجـى للقبول؛ إذ إن الوقوف بها يطهّر الإنسان حتى يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن بقي من دَرَنِه شيء غسلته المزدلفة وأتت عليه؛ ثم إنّ لنا في الطواف حول الكعبـة طهـرًا خاصًّا كذلك؛ وإنما تحقق هذا بعدمـا أضفى ظرفُ المكان قيمةً أعلى على ما وقـع فيه من أعمال.

وبناء على ما سبق فمن الأهمية بمكان أن نتوجه إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار في الأمكنة المباركة والأزمنة المباركة مثل يوم المولد النبوي، وليلة الإسـراء والمعراج، وشـهر رمضـان، وأيام العيد، وأن نكدّ ونسـعى في سبيل الحب والأخوة والإنسانية كي ننال رضوان ربنا تبارك وتعالى.

مصادر

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **مصنف ابن أبي شيبة**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)؛ **الإصابة في تمييز الصحابة**؛ تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، الطبعة الأولى، ١٤١٥ه.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ (**موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦**) **سنن ابن ماجه**؛ دار السلام، رياض.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣) سنن أبن داود؛ دار السلام، رياض.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ **البداية والنهاية**؛ دار الفكر، ١-١٥، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء**؛ دار السعادة، ١-١٠، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م؛ [المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون]، ١-٤٥.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م.

ـــــــ، **شعب الإيمان**؛ تحقيق: الدوكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، رياض، الطبعة الأولى، ١-١٤، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م.

ـــــــ، **الزهد**؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ، ١٩٩٦م.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ (**موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١**) **صحيح البخاري**؛ دار السلام، الرياض.

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمذاني (ت: ٥٠٩هـ)؛ **الفردوس بمأثور الخطاب** (**مسند الفردوس**)؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

الحكيم الترمذي، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله (ت: ٣٢٠هـ)؛ **نوادر الأصول في أحاديث الرسول** ﷺ؛ تحقيق: عبد الرحمن عميرة؛ دار الجيل، بيروت، ١-٤، بدون تاريخ.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

كولن، محمد فتح الله؛ **القلوب الضارعة**؛ دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ (**موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢**) **صحيح مسلم**؛ دار السلام، الرياض.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت: ٣٠٣هـ)؛ **السنن الكبرى**؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١-١٠، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (ت: ٢٢٧هـ)؛ **السنن**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ الدار السلفية، الهند، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

سعيد النورسي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ **من كليات رسائل النور: الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: الشعاعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: السيرة الذاتية**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

ـــــــ، **من كليات رسائل النور: الملاحق**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (ت: ١٨١هـ)؛ **الزهد والرقائق**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)؛ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي؛ المكتبة العصرية، ١-٢، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ (**موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤**) **جامع الترمذي**؛ دار السلام، الرياض.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)؛ **سير أعلام النبلاء**؛ دار الحديث، القاهرة، ١-١٨، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ)؛ **إحياء علوم الدين**؛ دار المعرفة، بيروت ، ١-٤، بدون تاريخ.

تم بحمد الله